قصص الأنبياء

لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب

تأليف

الإمام الجليل

الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

المتوفى ٧٧٤ هـ

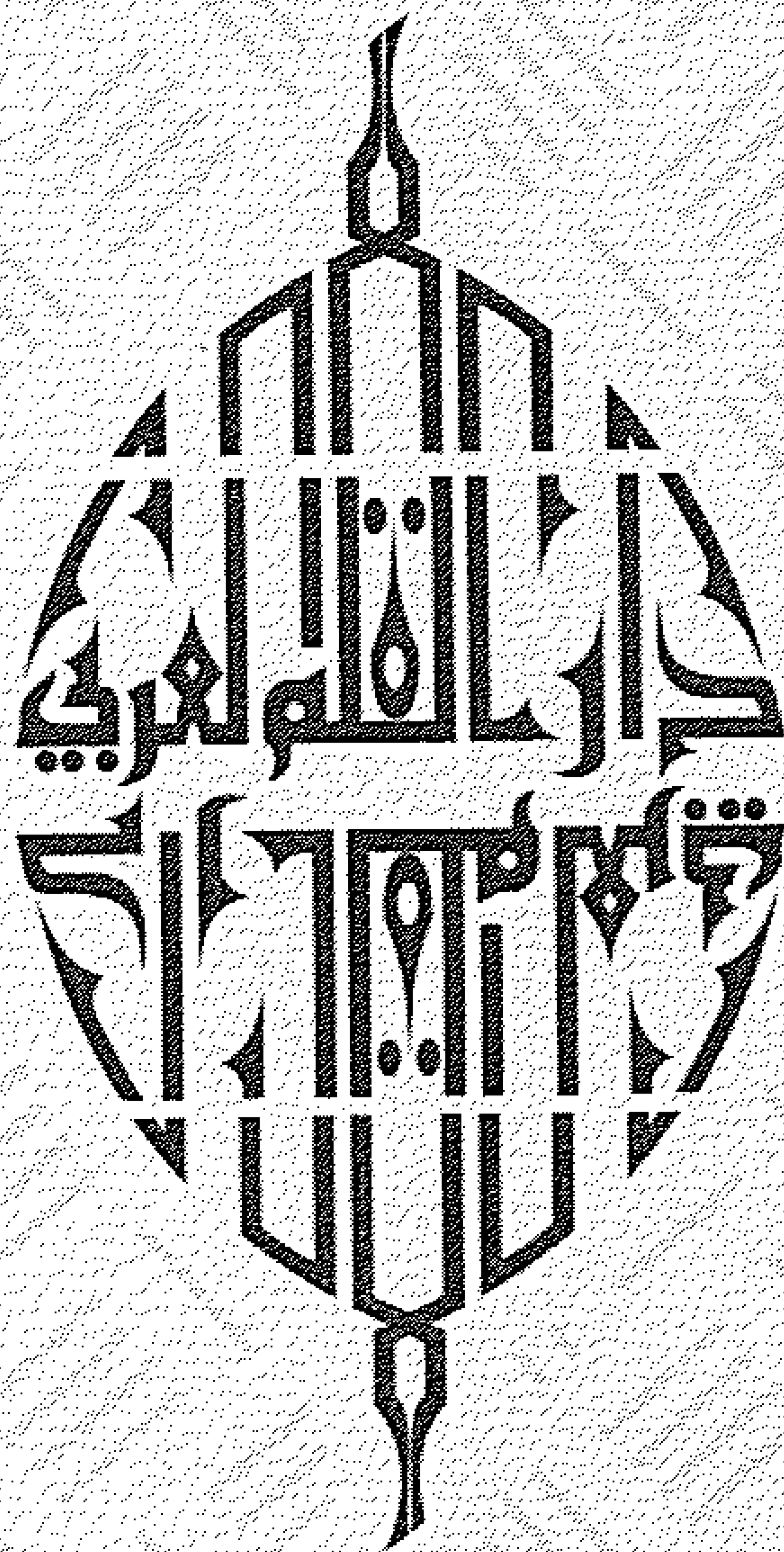
حققه وخرج أحاديثه

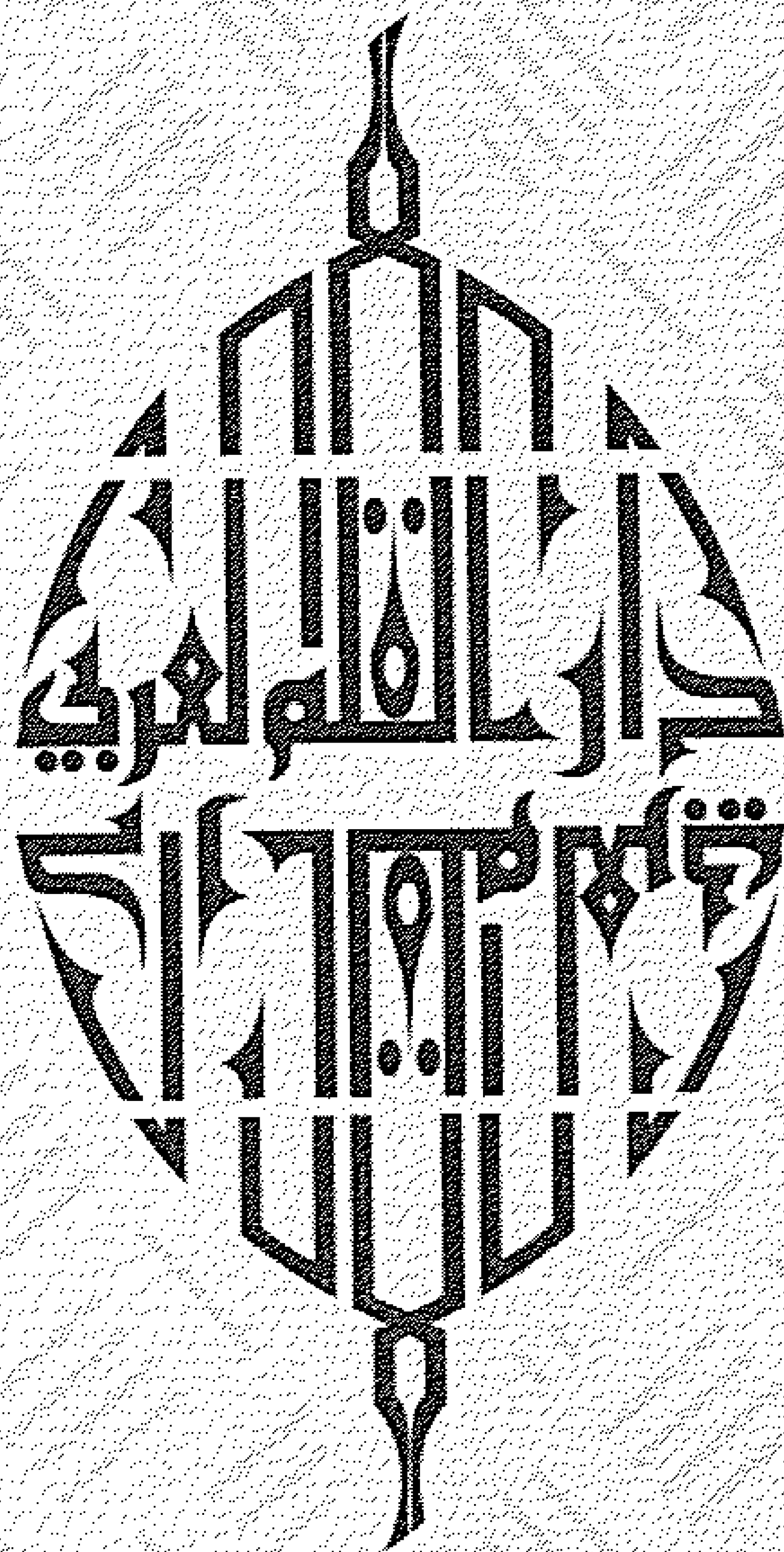
الشيخ عبد القادر الشيخ إبراهيم

ناشرون

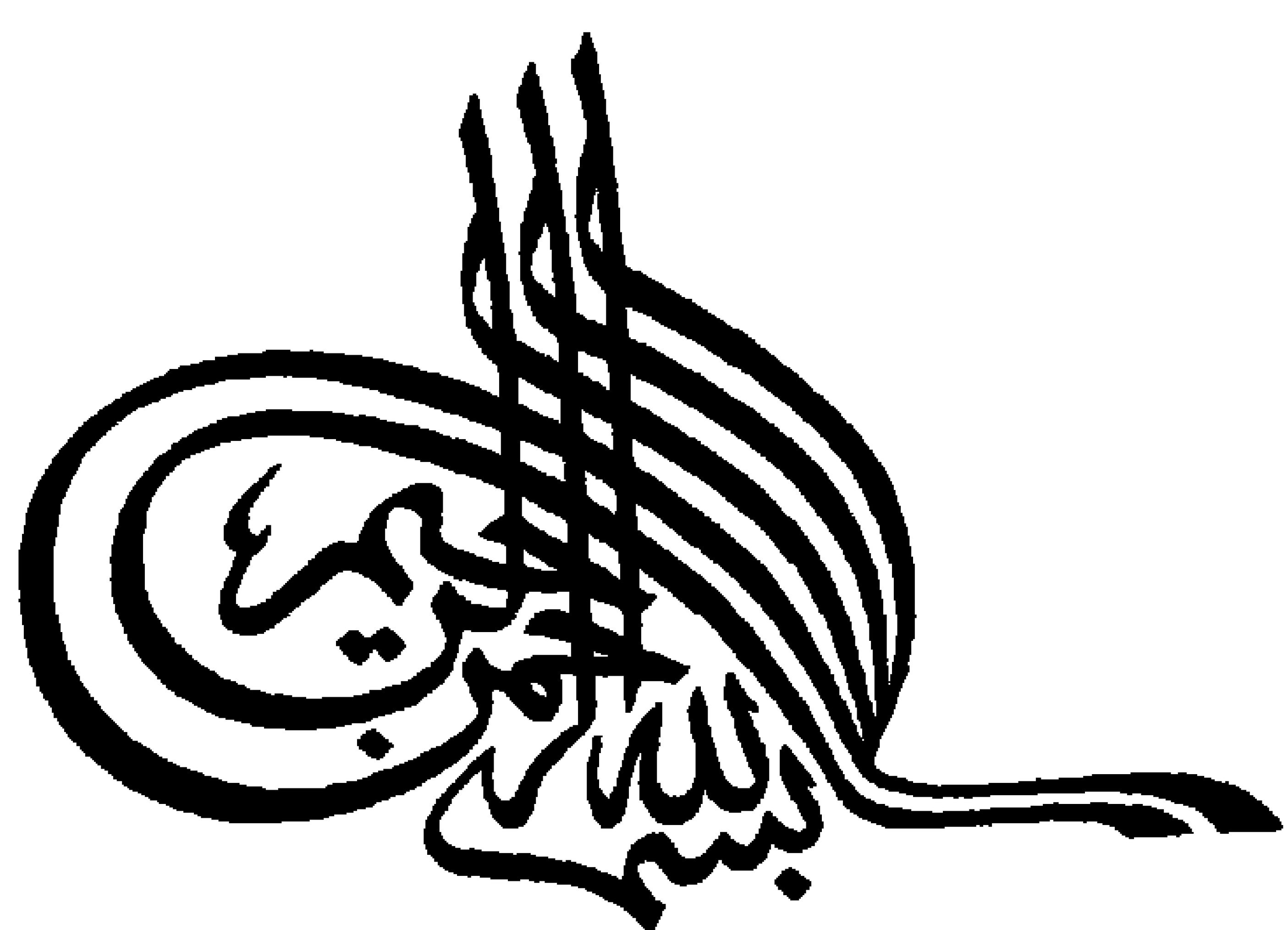
دار الرفاعي للنشر

دار القلم العربي


دار القلم العربي


دار القلم العربي

قصص الأنبياء



قصص الأنبياء

تأليف

الحافظ أبي الفداء عماد الدين

إسماعيل بن كثير الدمشقي

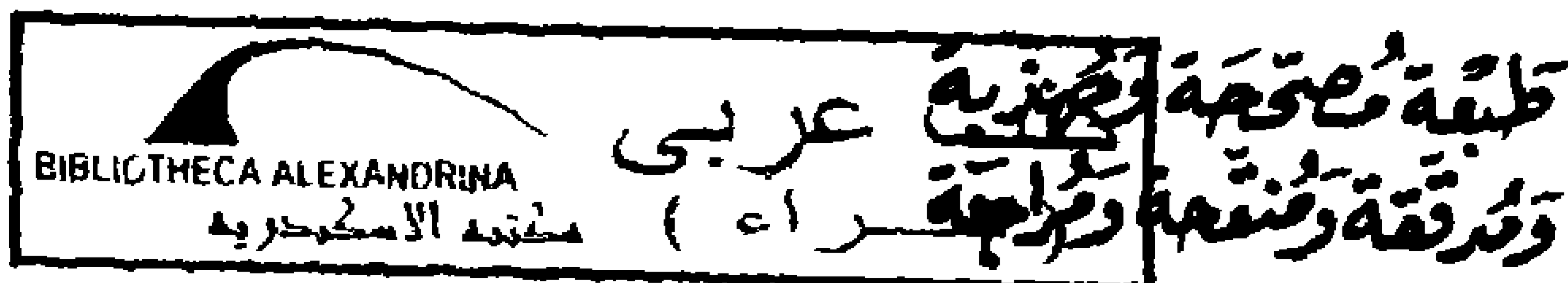
«٧٠١ - ٧٧٤هـ»

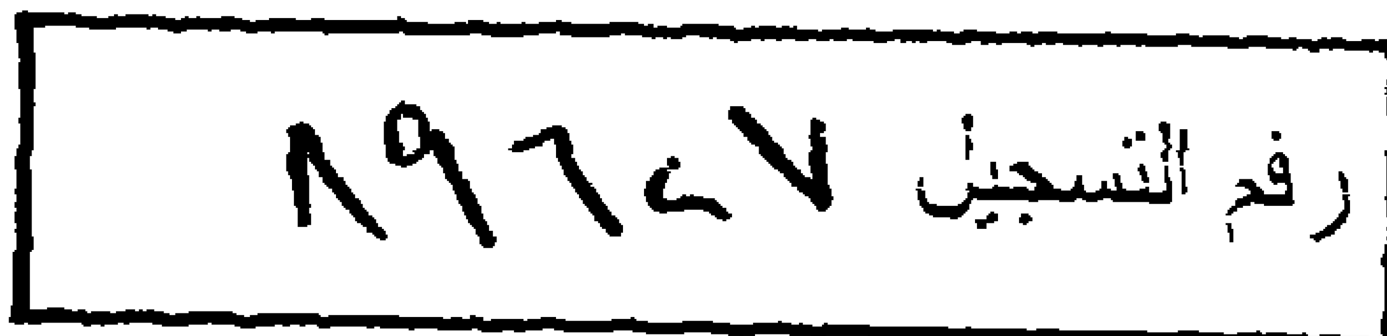


حققه وعلق عليه وخرج احاديثه

عبد القادر شيخ ابراهيم

طبعة مصححة ومخرّجة
ومدققة ومنقحة ومراجعة





دار القلم العربي

قصص الأنبياء

دار النشر : دار القلم العربي - دار الرفاعي للنشر

ISBN :1-5050-35

الطبعة الأولى

1425 - 2004

دار الرفاعي للنشر - سوريا - حلب

خلف الفندق السياحي - ص .ب :78

هاتف : 00963 21 2122599

www.qalamarabi.com



دار القلم العربي - سوريا - حلب

هاتف : 00963 21 2113129

فاكس : 00963 21 2212361

e-MAIL :qalamrab@scs-net.org



مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب النعم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ﷺ سيد ولد آدم وعلىٰ آله وصحبه ومن اتبعهم واهتدىٰ بهديهم واقتفىٰ آثارهم صلاة كاملة وسلاماً تاماً إلىٰ يوم الدين . أما بعد :

فإن الأنبياء والرسل هم صفوة الله من خلقه ، اجتباهم وهداهم إلىٰ صراط مستقيم ، وجعلهم قدوة صالحة في الآداب والأخلاق والنصح والصدق والاستقامة ، أيدهم الله تعالىٰ بمعجزات باهرة ، وأدلة ظاهرة ، وبراهين قاطعة ، تصديقاً لهم في دعوىٰ النبوة . من آمن بهم أفلح ونجح ، ومن كفر بواحد منهم خاب وخسر ، والمسلم يؤمن بهم جميعاً من غير تمييز عملاً بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

هذا . . . وقد جمع الإمام الكبير الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ قصص هؤلاء الأنبياء في كتابه الجامع (البداية والنهاية) واستطرد فيه كثيراً فأتىٰ بكل حسن وأجاد ، وأحاط بقصصهم فأحسن الاسترسال والاستطراد ، ولم يدع آية تتعلق بنبي إلا ذكرها وعلق عليها ودعمها بأحاديث نبوية وأقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين وغيرهم ، فغدا الكتاب موسوعة علمية غزيرة ، ومرجعاً تاريخياً قل نظيره ، إلا أن فيه كثيراً من الأسانيد المطولة ، والروايات المكررة ، وغير ذلك مما ليس له قيمة إلا عند الناقدين والمتخصصين ، الأمر الذي ربما يؤدي إلىٰ كد الذهن وجلب

السآمة ويجعل القارىء يحجم عنه ، والإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ وغيره من العلماء لهم عذرهم في ذلك لأن الأسانيد والروايات المكررة والاستطرادات اللغوية كان لها قيمة علمية كبيرة في زمانهم . أما اليوم فكما قال الإمام اللقاني رحمه الله تعالىٰ في جوهرة التوحيد :

لكن من التطويل كلت الهمم ... فصار فيه الاختصار ملتزم

من أجل هذا استعنت المولىٰ عز وجل فقمت بتحقيق هذا الكتاب الجامع وتهذيبه وحذف ما فيه زيادة وتوضيح ما فيه لبس أو إبهام لأقدمه إلىٰ القارىء الكريم في ثوب جديد بعيد عن الاستطراد والتعقيد ، مع الحرص التام علىٰ المحافظة علىٰ نص المؤلف رحمه الله تعالىٰ وعبارته حفاظاً علىٰ أمانة النقل إلا ما تقتضيه ضرورة التوضيح والبيان .

والله تعالىٰ أسأل أن يجعل فيه الفائدة والنفع بمنه وكرمه ، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم ، وشفيعاً لي يوم الدين ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ آمين .

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

كتبها

عبد القادر الشيخ إبراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التعريف بابن كثير مؤلف قصص الأنبياء

اسمه : هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع البصروي الدمشقي ، لقبه : عماد الدين ، ويكنىٰ أبا الفداء .

مولده : ولد ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في قرية من أعمال بصرىٰ يقال لها مَجْدَل القرية حوالي سنة ٧٠٠ للهجرة ، وشب وترعرع فيها ثم انتقل مع أخيه الأكبر بعد وفاة أبيه إلىٰ دمشق ليبدأ فيها حياة جديدة تعج بالعلم والدراسة وحفظ كتاب الله تعالى ، ذلك أنه نشأ في أسرة عرفت بالعلم ، فأبوه كان خطيباً معروفاً في زمانه ، وأمه كانت من الحافظات لكتاب الله ، وأخوه عبد الوهاب كان طالباً للعلم فساعده كثيراً وشجعه وذلل له مبادىء العلوم .

لقد كان ابن كثير رحمه الله تعالىٰ ذكياً نجيباً فطناً حيث عكف علىٰ حفظ كتاب الله تعالىٰ فأتمه قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ثم شرع في دراسة علم القراءات والتفسير وعلوم القرآن والفقه وأصوله والتاريخ وعلوم العربية حتىٰ نبغ في جميع ذلك وتفوق علىٰ جميع أقرانه فنال بذلك ثقة أساتذته وشيوخه .

شيوخه :

تتلمذ الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ علىٰ كثير من الشيوخ الكبار والعلماء الأفذاذ : منهم

١ ـ العلاّمة الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، صاحب (تاريخ الإسلام) و(سير أعلام النبلاء) و(ميزان الاعتدال) وغيرها ، ولقد أحبه الإمام الذهبي كثيراً وأثنىٰ عليه قائلاً : الإمام الفقيه ، المحدث الأوحد البارع ، فقيه

متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال .

٢ـ الإمام الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المِزّي ، صاحب (تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف) و(تهذيب الكمال في أسماء الرجال) ، وقد لازمه ابن كثير وتزوّج ابنته ، وكانت تقية جداً وحافظة لكتاب الله تعالى .

تلامذته :

ولقد تتلمذ على يديه كثيرون كان لهم فيما بعد شأن كبير في مجال العلم وبلغت شهرتهم الآفاق منهم :

١ ـ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بَهَادُر الزركشي صاحب كتاب (البرهان في علوم القرآن) وهو كتاب رائع ومفيد جداً .

٢ ـ شهاب الدين الحريري الدمشقي ، الشافعي الذي تولى الإفتاء ثم القضاء فكان مثال القاضي العادل النزيه .

٣ ـ أحمد بن حجّي بن موسى أبو العباس السعدي ، الذي كتب ذيلاً على تاريخ شيخه ذكر فيه الأحداث الواقعة بين (٧٤١ ـ ٨١٥هـ) .

وغير هؤلاء كثير .

ثناء العلماء عليه :

تقدم معنا ثناء الإمام الذهبي عليه في قوله فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسِّر نقّال ، وله تصانيف مفيدة ، يدري الفقه ، ويفهم العربية والأصول ، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم .

وأثنى عليه الشيخ أبو المحاسن الدمشقي فقال : أفتى ودرس ، وناظر وبارع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل .

ومدحه الشيخ ابن حبيب وأثنى عليه فقال : إمام ذوي التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنَّفَ ، وأطرب الأسماع بقوله وشنَّف ، وحذق وأفاد وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير .

وقال عنه الشيخ أحمد بن حجي : ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه .

وقال الحافظ ابن حجر : وصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار جماعة منهم الحسيني ، وشيخنا العراقي وغيرهما .

مؤلفاته :

ترك الحافظ ابن كثير ثروة علمية غزيرة أغنى بها المكتبات العربية والإسلامية وما زال المسلمون والباحثون ينهلون منها ، وهي :

١ ـ تفسير القرآن العظيم ، المشهور بين الناس بتفسير ابن كثير .

٢ ـ البداية والنهاية ، ومنه أخذنا كتاب قصص الأنبياء وقمنا بتحقيقه ، وهو الذي بين أيدينا .

٣ ـ شعب الإيمان .

٤ ـ جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم السنن .

٥ ـ مسند الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٦ ـ إرشاد الفقيه إلى أدلة التنبيه ، وهو كتاب في الفقه الشافعي .

٧ ـ التكميل في معرفة الثقات والمجاهيل .

٨ ـ طبقات الشافعيين .

٩ ـ اختصار علوم الحديث .

١٠ ـ تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب .

١١ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ .

وغير ذلك من الكتب النفيسة والقيمة ، وقد طبع معظمها .

وفاته :

انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمئة من هجرة المصطفى ﷺ بعد أن أمضى حياته كلها في خدمة الإسلام والمسلمين ، وعمل دؤوب بالتعليم والتأليف ، والتدريس والتصنيف ، مشيراً إلى ذلك بقوله من قبل :

تَمُــرُّ بِنَــا الأَيَّــامُ تَتْــرَى ، وَإِنَّمَــا نُسَــاقُ إِلَــىٰ الآجَــالِ وَالعَيْــنُ تَنْظُــرُ
فَـلاَ عَـائِدٌ ذَاكَ الشَّبَابُ الَّـذِي مَضَـى وَلاَ زَائِــلٌ هَــذَا المَشِيــبُ المُكَــدَّرُ

رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

* * * * *

باب
ما ورد في خلق آدم

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠ ـ ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ٥٩] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

كما قال تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : ١١ ـ ٢٥] .

كما قال تعالىٰ في الآية الأخرى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٥ ـ ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ ـ ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ .

[طه : ١١٥ ـ ١٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٦٧ ـ ٨٨] .

* * *

فورد ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن ، وقد تكلمنا علىٰ ذلك كله في التفسير ، ولنذكر ها هنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات ، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ . . . والله المستعان .

فأخبر تعالىٰ أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] فأخبرهم بذلك علىٰ سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين علىٰ وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا علىٰ وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين ، ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

قيل : علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الحن[1] والجن قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلىٰ جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه . وعن الحسن : ألهموا ذلك .

---

(١) لعل المقصود (الحن) وهم طائفة من الجن .

وقيل : لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من كان بهذه المثابة غالباً .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً[١] .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي أعلم مِنَ المصلحة الراجحةِ في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون .

ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها[٢] .

وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شيء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد[٣] .

وقال الربيع : علمه أسماء الملائكة .

والصحيح : أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس ابن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلىٰ ربنا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء » وذكر تمام الحديث .

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٧٨) .
(٢) تفسير الطبري (١/ ١٧٠) .
(٣) الطبري (١/ ١٧٠)

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] أي أعلم السر كما أعلم العلانية .

وقيل : إن المراد بقوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] ما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٣٠] وبقوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والنفاسة علىٰ آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير .

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] . قولهم : لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة : ٣٤] هذا إكرام عظيم من الله تعالىٰ لآدم حين خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، كما قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] فهذه أربع تشريفات : خلقه بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء .

ولهذا قال له موسىٰ الكليم حين اجتمعا في الملأ الأعلىٰ وتناظرا كما سيأتي : « أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء » ، وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم ، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقال في الآية الأخرى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١١ ـ ١٢] .

قال الحسن البصري : قاس إبليس وهو أول من قاس .

وقال محمد بن سيرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس ، رواهما ابن جرير[1] .

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد في نفسه ، فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٢٨ ـ ٣٥] . استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقّصَه لآدم وازدراءَه به وترفعَهُ عليه ومخالفة الأمر الإلهي ، ومعاندةَ الحق في النص على آدم على التعيين .

وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ ـ ٦٥] .

---

(١) تفسير الطبري : (٩٨/٨) .

وقال تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] . أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال ، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من مارج من نار(١) ، وخلق آدم مما وصف لكم »(٢) .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب : كان من الجن ، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه .

قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل .

قال النقاش : وكنيتُهُ أو كردوس .

قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن ، وكانوا خُزَّان الجنان ، وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٨٥] .

---

(١) إبليس ليس من الملائكة وليس صحيحاً أنه كان طاووس الملائكة .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٦/٨) وتفسير سورة الرحمن ، والمنذري في المختصر رقم (٢١٦٩) .

وقال تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ، ولآتينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه .

وعن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه** » وذكر الحديث(١) .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم .

أهم جميع الملائكة كما دلت عليهم عموم الآيات ؟ وهو قول الجمهور .

أو المراد بهم ملائكة الأرض ، كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس ؟ وفيه انقطاع وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه .

ولكن الأظهر من السياقات الأوّلُ ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد له ملائكته » وهذا عموم أيضاً . . . والله أعلم .

وقوله تعالىٰ لإبليس : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] و ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨] دليل علىٰ أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلىٰ الأرض مذؤوماً مدحوراً .

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

وقال في الأعراف : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا

(١) رواه الإمام أحمد ، وانظر تفسير الطبري (٨/ ١٠٠) .

وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٦ ـ ١١٩] .

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم إلىٰ الجنة لقوله : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ [الأعراف : ١٩] وهذا قد صرح به إسحاق ابن يسار ، وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكىٰ السدي عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا : أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشي فيها ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه . فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلي ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء ، قالوا : ولم كانت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي .

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً .

ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . وفي قوله تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الصحيحين من حديث زائدة ، عن ميسرة الأشجعي ، عن أبي حازم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً** » هذا لفظ البخاري[1] .

---

(١) البخاري ٨٠ ومسلم رضاع واستوفىٰ طرقه العجلوني في الكشف الحديث رقم (٣٣١) والترمذي =

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] فقيل : هي الكرم ، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : قال : وتزعم يهود أنها الحنطة .

وقال وهب : والحبة منه ألين من الزبد وأحلىٰ من العسل .

وقال الثوري عن أبي حصين ، عن أبي مالك : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] هي النخلة[١] . وقال ابن جريج عن مجاهد : هي التينة ، وقال أبو العالية : كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدثٌ .

وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من الأمور في القرآن[٢] .

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أدخلها آدم : هل هي في السماء أو في الأرض ، هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه .

والجمهور علىٰ أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود علىٰ معهود ذهني ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسىٰ عليه السلام لآدم عليه السلام : « علام أخرجتنا ونفسك من الجنة . . » ؟ الحديث كما سيأتي الكلام عليه .

عن أبي هريرة وعن حذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ : « **يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا . . استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم** » ؟ وذكر الحديث بطوله[٣]

= رضاع ١١ وتفسير سورة ٩/٢ وابن ماجه نكاح (٣) .

(١) لم يرد نص لا في القرآن ولا في الحديث عن نوع الشجرة التي أكل آدم وحواء منها في الجنة .

(٢) قال الطبري : وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

(٣) رواه مسلم في حديث الشفاعة رقم ١٣٢ .

وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة علىٰ أنها جنة المأوى ، وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى .

واختلف في الجنة التي أسكن الله فيها آدم وحواء علىٰ قولين ، أحدهما : أنها جنة الخلد .

الثاني : جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء .

ومن قال بهذا اختلفوا علىٰ قولين : أحدهما : أنها في السماء لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول الحسن ، والثاني : أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهذا قول ابن يحيى . وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم . ولقد حكىٰ أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال : هذه الثلاثة ، ورابعها : الوقف . وحكىٰ القول بأنها في السماء وليست جنة المأوىٰ عن أبي علي الجبائي ، وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلىٰ جواب ، فقالوا : لا شك أن الله سبحانه وتعالىٰ طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية ، وأمره بالخروج منها والهبوط منها ، وهذا أمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا ﴾ [الأعراف : ١٨] وقال تعالى : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] وقال تعالى : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص : ٧٧] والضمير عائد إلىٰ الجنة أو السماء أو المنزلة ، وأيا ما كان فمعلوم أنه ليس من الكون قدراً في المكان الذي طرد منه وأبعد منه ، لا علىٰ سبيل الاستقرار ولا علىٰ سبيل المرور والاجتياز .

قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] وبقوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا

عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ـ ٢٢] الآية .

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما .

وقد أجيب عن هذا بأنه : لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء[1] .

وفي الثلاثة نظر . . . والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة : ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات بسنده ، عن أبي بن كعب ، قال : إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون يا بني آدم ؟ فقالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه . فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وصلى عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه ، وقالوا : هذه سنتكم في موتاكم .

وسيأتي الحديث بسنده ، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام .

قالوا : فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً ، لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم .

قالوا : والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام ، فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء ، وخلق ليكون في الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . قالوا : وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم : ١٧] واللام ليس للعموم ، ولم يتقدم معهود لفظي ، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان .

---

(١) والصحيح أن آدم كان في الجنة التي هي فوق السموات السبع.

قالوا : وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء ، قال الله تعالى : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : ٤٨] .

وإنما كان في السفينة حين استقرت على الجوديّ ونضب الماء عن وجه الأرض أُمِر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : ٦١] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤]. وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا : ولا مانع ـ بل هو الواقع ـ أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه : ١١٨] ، أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعريّ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٩] أي : لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ، لما بينهما من الملاءمة .

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً ، وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة البقرة : ٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة : ٣٦] أي عن الجنة ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] يقول : ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أي لو أكلتما منها لصرتما كذلك .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ [الأعراف : ٢١] أي حلف لهما على ذلك ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] : أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي ؟.

وقوله : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] كما قال في طه ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [طه : ١٢١] وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهي التي حثّته على الأكل منها . . والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا بشر بن محمد ، حدثنا عبد الله ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه : « لولا بنو إسرائيل : لم يخبُث ولم يخنز[١] اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها »[٢].

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب : أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام ، وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر . وفيها : لأنهما كانا عريانين . وكذا قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم ، وتحريف وخطأ في التعريب ؛ فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ، ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً ، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى . وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس

(١) خنز اللحم وغيره خنزاً : فسد وأنتن فهو خنز .

(٢) السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم (٧٥٢١) وقال : رواه أحمد والدارقطني والبخاري ومسلم كلهم عن أبي هريرة وصححه .

في قوله : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف : ٢٧] فهذا لا يرد لغيره من الكلام . . . . والله تعالىٰ أعلم .

عن قتادة ، عن الحسن قال : (خلق آدم رجلاً طوالاً)[١] .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] هي التين[٢] .

وهذا إسناد صحيح إليه ، وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك ، وبتقدير تسليمه فلا يضر . . . . والله تعالىٰ أعلم .

عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ، ستون ذراعاً كثير الشعر مواريٰ العورة ، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته ، فناداه ربه : أفراراً مني يا آدم ؟ قال : بل حياء منك والله يارب مما جئت به »[٣] .

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

[الأعراف : ٢٢ ـ ٢٣] .

وهذا اعتراف ورجوع إلىٰ الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالىٰ في الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرىٰ في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلىٰ خير في دنياه وأخراه .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤] وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين .

وقوله تعالىٰ في سورة طه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ هو

---

(١) كان طول سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ستين ذراعاً ، بعرض سبعة أذرع وجعل الله سيدتنا حواء بطول يناسب طول آدم عليه الصلاة والسلام .

(٢) الحاكم في المستدرك (٢/٣١٩) كتاب التفسير عن ابن عباس .

(٣) رواه الحافظ ابن عساكر .

أمر لآدم وإبليس ، واستتبع آدم حواء .

وقيل : هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعىٰ عليه ، قال : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ .

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٦ ـ ٣٩] .

فقال بعض المفسرين : المراد بالإهباط الأول ، الهبوط من الجنة إلىٰ السماء الدنيا والثاني من السماء الدنيا إلىٰ الأرض .

وهذا ضعيف لقوله في الأول : ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فدل علىٰ أنهم أهبطوا إلىٰ الأرض بالإهباط الأول . . . والله أعلم .

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً ، وناط مع كل مرة حكماً ، فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقي ، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الكريم .

وروىٰ الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال : أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره ، فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به عصن فظن آدم أنه عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول : العفو . . . العفو . . . فقال الله : فراراً مني . . . ؟ .

قال : بل حياء منك يا سيدي .

وقال الأوزاعي عن حسان ـ هو ابن عطية ـ : مكث آدم في الجنة مئة عام ، وفي رواية : ستين عاماً ، وبكىٰ علىٰ الجنة سبعين عاماً ، وعلىٰ خطيئته سبعين عاماً ، وعلىٰ ولده حين قتل أربعين عاماً .

رواه ابن عساكر .

عن ابن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام إلىٰ أرض يقال لها « دحنا » بين مكة والطائف[1] .

وعن الحسن قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستميان من البصرة علىٰ أميال وأهبطت الحية بأصبهان .

رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال السدي : نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة ، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك .

وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وعن أبي موسىٰ الأشعري ، قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلىٰ الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير .

وعن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين العصر إلىٰ غروب الشمس .

رواه الحاكم ثم قال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

---

(١) قارن السيوطي في الدر (١/ ١٣٥) .

وفي الصحيح من وجه آخر : « وفيه تقوم الساعة » .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « **خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة** » .

رواه أحمد علىٰ شرط مسلم[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة : ٣٧] قيل هي قوله : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٣] عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال آدم عليه السلام : أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلىٰ الجنة ؟ قال : نعم** » فذلك قوله : ﴿ **فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة : ٣٧] .

وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : الكلمات : « **اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم** »[2] .

وروىٰ الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ قال : قال آدم : يا رب . . . ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى ، ونفخْتَ فيَّ من روحك ؟ قيل له : بلى ، وعطستُ فقلتَ : يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلى ، وكتبْتَ علي أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى ، قال : أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلىٰ الجنة ؟ قال : نعم .

ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3] .

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم (٤٠٩٥ ـ ٤٠٩٦) .
(٢) تفسير الطبري ١/ ١٩٤ .
(٣) المستدرك (٢/ ٢٦١) .

وروىٰ الحاكم أيضاً والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب . . . أسألك بحق محمد إلا غفرت لي** » .

فقال الله : فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يا رب ! لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت فيّ من روحك ، رفعت رأسي فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلىٰ اسمك إلا أحب الخلق إليك .

فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك .

قال البيهقي : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف . . . والله أعلم .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه : ١٢١ ـ ١٢٢] .



ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاج موسىٰ آدم عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم : يا موسى . . . أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني علىٰ أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ـ أو قدره علي قبل أن يخلقني » .

قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى »[(١)] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟

فقال له آدم : وأنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، تلومني علىٰ أمر قدر علي قبل أن أخلق ؟ » .

قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » مرتين[(٢)] .

قلت : وقد روىٰ هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري ، عن حميد ابن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم . . . أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة » .

---

(١) صحيح البخاري (جـ٦) ، كتاب التفسير (٢٥٩) والترمذي باب القدر والإمام أحمد في المسند (٢٨٧/٢ و٣١٤) .

(٢) المسند (٢٤٨/٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٣٩٢ ، ٤٤٨ ، ٤٦٤) والبخاري (١٧٨/٦) رقم ٢٥٩ تفسير سورة طه وكتاب القدر رقم ١١ ، والأنبياء ٣١ والتوحيد ٣٧ في قوله تعالىٰ وكلم الله موسىٰ تكليماً ١٤١ والأجرىٰ في الشريعة ١٨١ وأبو داود السنة رقم ٤٧٠١ والترمذي قدر .

قال : « فقال آدم : وأنت موسىٰ الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني علىٰ عمل أعمله ، كتبه الله علي قبل أن يخلق السموات والأرض » .

قال : « فحج آدم موسى » .

وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن يحيىٰ بن حبيب بن عدي ، عن معمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الأعمش به .

قال الترمذي : وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش .

قال : وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد[1] .

وقال أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووساً ، سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة .

قال له آدم : يا موسى . . . أنت الذي اصطفاك الله بكلامه ـ وقال مرة : برسالته ـ وخط لك بيده ، أتلومني علىٰ أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة » ؟ .

قال : « حج آدم موسى ، حج آدم موسى ، حج آدم موسى »[2] .

وعن طاووس قال : سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم . . . أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة .

فقال له آدم : يا موسى . . . اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني علىٰ أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ » .

« فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » هكذا ثلاثاً .

قال سفيان : حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ مثله[3] .

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب القدر ، باب ما جاء في حجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام الحديث رقم ٢١٣٤ وأضاف : وقد روىٰ هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

(٢) مسند أحمد (٢/٢٤٨) .

(٣) صحيح البخاري (٨/٢٢٦) ، كتاب القدر رقم ٢١ : باب تحاج موسىٰ وآدم عند الله عز وجل =

وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد ، عن عمار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى ، فقال : أنت الذي خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ، ثم فعلت ما فعلت ؟

فقال : أنت موسىٰ الذي كلمك الله واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة ، أنا أقدم أم الذكر ، قال : لا ، بل الذكر .

فحج آدم موسى »[1] .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقي آدم موسىٰ فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت ؟ .

قال آدم لموسى : أنت الذي كلمه الله ، وأنزل عليه التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فهل تجده مكتوباً علي قبل أن أخلق ؟ قال : نعم . قال : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى »[2] .

عن يزيد بن هرمز قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسىٰ عند ربهما فحج آدم موسى ، فقال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه[3] وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس إلىٰ الأرض بخطيئتك ؟

قال آدم : أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ قال موسى : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] قال نعم . قال : أفتلومني علىٰ أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة » ؟ .

قال : قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى »[4] .

= والأجرىٰ في الشريعة (١٨١) .

(١) مسند أحمد (٢/٢٦٨)

(٢) والآجرىٰ في الشريعة (١٨٠) مسند أحمد (٢/٣٩١) .

(٣) أي روحٌ مشرفٌ عند الله ليس جزءاً من الله .

(٤) رواه ابن أبي حاتم بسند عن أبي هريرة .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسىٰ لآدم : يا آدم . . . أنت الذي أدخلت ذريتك النار ؟ .

فقال آدم : يا موسى . . . اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة فهل وجدت أن اهبط ؟ قال : نعم ، قال : فحجه آدم .

وهذا علىٰ شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وفي قوله : « أدخلت ذريتك النار » نكارة[1] .

عن عمر بن الخطاب ، عن النبي ﷺ قال : « قال موسىٰ عليه السلام ، يا رب . . . أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام فقال : أنت آدم ؟ فقال له آدم : نعم . فقال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ؟ قال : نعم . قال : فما حملك علىٰ أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ .

فقال له آدم : من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : أنت موسىٰ نبي بني إسرائيل ؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب ، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم . قال : تلومني علىٰ أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل » ؟ قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري ، عن ابن وهب[2] .

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث .

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٩٢) .

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسند عمر (١/ ٢٠٩) رقم ١٠٤/ ٢٤٣ وأخرجه أحمد (١/ ٥١ ـ ٥٢) .
ـ ومسلم في الإيمان (٨) باب : الإيمان والإحسان .
ـ وأبو داود في سننه (٤٦٩٥) باب : في القدر .
ـ والترمذي في الإيمان الحديث رقم (٢٦١٣) باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ والإيمان .
ـ والنسائي في الإيمان (٨/ ٩٧) باب : نعت الإسلام .
ـ وابن ماجه في المقدمة (٦٣) باب الإيمان في طرق ، عن كهمس بهذا الإسناد .
ـ وأخرجه مسلم في الإيمان ٨ و٣ . وأبو داود في السنن الحديث رقم (٤٧٠٢) باب في القدر من طريق أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب بهذا الإسناد .

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق .

واحتج به قوم من الجبرية ، هو ظاهر لهم بادي الرأي حيث قال : « فحج آدم موسى » لما احتج عليه بتقديم كتابه ، وسيأتي الجواب عن هذا .

قال آخرون : إنما حجّه لأنه لامه علىٰ ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وقيل : إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل : لأنه أبوه . وقيل : لأنهما في شريعتين متغايرتين . وقيل : لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمون .

والتحقيق : أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنىٰ وفيه نظر .

وهذان معظمهما في الصحيحين وغيرهما علىٰ أنه لامه علىٰ إخراجه نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج علىٰ أكلي من الشجرة ، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق ، هو الله عز وجل ، فأنت تلومني علىٰ أمر ليس له نسبة إليّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً علىٰ ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة ، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه ، وله الحكمة في ذلك . فلهذا حج آدم موسى[1] .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند ، لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً .

ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا .

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً ، فهو بعيد من اللفظ والمعنىٰ وما فيهم من هو أقوىٰ مسلكاً من الجبرية .

وفيما قالوه نظر من وجوه :

أحدها : أن موسىٰ عليه السلام لا يلوم علىٰ أمر قد تاب عنه فاعله .

---

(١) أبو يعلى ، المسند (١/ ٢١١) رقم ١٠٥ ـ (٢٤٤) والأجرىٰ في الشريعة ١٨٠ .

الثاني : أنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، وقد سأل الله في ذلك بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص : ١٦] .

الثالث : أنه لو كان الجواب علىٰ اللوم علىٰ الذنب بالقدر المتقدم كتابته علىٰ العبد ، لانفتح هذا لكل من ليم علىٰ أمر قد فعله ، فيحتج بالقدر السابق فينسدُّ باب القصاص والحدود . ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد علىٰ الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار ، وهذا يفضي إلىٰ لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء ، بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر علىٰ المصيبة لا المعصية .

والله تعالىٰ أعلم[١] .

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيىٰ ومحمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، حدثني قسامة بن زهير ، عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك »[٢] .

ورواه أيضاً عن هوذة ، عن عوف ، عن قسامة بن زهير ، سمعت الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك »[٣] .

وقال الترمذي : حسن صحيح[٤] .

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : (بعث الله عز وجل جبريل في

---

(١) ولمزيد من الاطلاع يراجع : فتح الباري (١١/ ٥٠٥ ـ ٥١٢) .
(٢) المسند (٤/ ٤٠٠) والترمذي (٥/ ٢٠٤) كتاب التفسير ، باب من سورة البقرة .
(٣) المسند (٤/ ٤٠٦) .
(٤) الترمذي (٥/ ٢٠٤) الحديث (٢٩٥٥) وأبو داود في السنن الحديث رقم (٤٧٠١) .

الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها .

فبعث ميكائيل ، فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبلَّ التراب حتىٰ عاد طيناً لازباً . واللازب : هو الذي يلزق بعضه ببعض ، ثم قال تعالىٰ للملائكة : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٧٢] .

فخلقه الله بيده[١] . لئلا يتكبر إبليس عنه ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة . فمرت به الملائكة ، ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منها فزعاً إبليس ، فكان يمرّ به فيضربه ، فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار يكون له صلصلة ويقول : لأمر ما خلقت . ثم يقول للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد ، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه . فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل ـ أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : رحمك ربك ، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلىٰ ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهىٰ الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلىٰ رجليه عجلان إلىٰ ثمار الجنة ، وذلك حين يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٣٠ ـ ٣١] .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث ، وإن كان كثير منها متلقىٰ من الإسرائيليات .

---

(١) أي بقدرته أما الملائكة فعجنوا ذلك التراب والماء .

فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك »[1] .

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حمد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيىٰ بن محمد بن السكن ، حدثنا حبان ابن هلال ، حدثنا مبارك بن فضالة . عن عبيد الله عن حبيب . عن حفص ـ هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ـ عن أبي هريرة رفعه وقاله : « لما خلق الله آدم عطس فقال : الحمد لله ، فقال له ربه : رحمك ربك يا آدم » .

وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه .

وقال عمر بن عبد العزيز : لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل .

رواه ابن عساكر .

وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طيناً ثم تركه ، حتىٰ إذا كان حمأً مسنوناً خلقه الله وصوره ، ثم تركه حتىٰ إذا كان صلصالاً كالفخار قال : فكان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم .

ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرىٰ فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة به ، فقال الله : يرحمك ربك ، ثم قال الله : يا آدم . . . اذهب إلىٰ هؤلاء النفر فقل لهم[2] ، فانظر ماذا يقولون ؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال : يا آدم . . . هذه تحيتك وتحية ذريتك » .

---

(١) المسند (٣/ ١٥٢ و٢٢٩ و٢٥٤) عن أنس ومسلم كتاب البر (١١١) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ بسنده وفي معناه أحمد في المسند (١/ ٢٥١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم علىٰ آدم فقال : أي رب ، من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء ذريتك ، فرأىٰ رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أي رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود .

قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة .

قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضىٰ عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟

قال : أولم تعطها ابنك داود . . . ؟ قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته » .

قال الترمذي : حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروىٰ ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء ابن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره ، وفيه : « ثم عرضهم علىٰ آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمىٰ وأنواع الأسقام فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي » .

وعن الحسن قال : (خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرىٰ فألقوا علىٰ وجه الأرض منهم الأعمىٰ والأصم والمبتلى ، فقال آدم : يا رب ، ألا سويت بين ولدي . . ؟ قال : يا آدم ، إني أردت أن أُشْكَرَ) .

وذكر البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلم علىٰ أولئك من الملائكة واستمع ما يجيبونك

فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة علىٰ صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت آية الدَّين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن الله لما خلق آدم ومسح ظهره فأخرج منه ذراري إلىٰ يوم القيامة ، فجعل يعرض ذريته عليه فرأىٰ فيهم رجلاً يزهر[1] ، فقال : أي رب من هذا . . ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره . . ؟ قال : ستون عاماً ، قال : أي رب زد في عمره ، قال : لا إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً ، فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه فقال : إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً ، فقيل له : إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال : ما فعلت ، وأبرز الله عليه الكتاب ، وشهدت عليه الملائكة »[2] .

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبي أنيسة : إن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآية ، فقال ابن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال : « إن الله خلق آدم عليه السلام ، فاستخرج منه ذرية » .

فقال رجل : يا رسول الله . . . ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار » .

---

(١) يزهر : يضيء .
(٢) رواه أحمد ، وله شواهد له وللطبراني وغيره .

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو حاتم ، وابن حبان في صحيحه من طرق ، عن الإمام مالك به .

فأما الحديث الذي رواه أحمد : عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣](١) .

واستأنس القائلون بهذا القول ـ وهو أخذ الميثاق علىٰ الذرية وهم الجمهور ـ بما قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثني شعبة ، عن أبي عمران الجوني عن أنس ابن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما علىٰ الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » .

أخرجاه من حديث شعبة به(٢) .

وقال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآية والتي بعدها .

قال : فجمعهم له يومئذٍ جميعاً ما هو كائن منه إلىٰ يوم القيامة ، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ الآية .

قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن لا تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٧٢) والطبري (٩/ ٧٥ ـ ٧٩) .

(٢) مسند أحمد (٣/ ١٢٧ و١٢٩) .

رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتابي .

قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك . فأقروا يومئذٍ بالطاعة .

ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأىٰ فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يا رب . . . لو سويت بين عبادك ؟ فقال : إني أحببت أن أشكر .

ورأىٰ فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] وهو الذي يقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] وفي ذلك قال : ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم : ٥٦] وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] .

رواه الأئمة : عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر ، وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي ، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث[(١)] .

وتقدم أنه تعالىٰ لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، امتثلوا كلهم للأمر الإلهي ، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له ، فطرده الله وأبعده وأخرجه وأهبطه إلىٰ الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، ويعلىٰ ومحمد ابنا عبيد ، قالوا : حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله . . . أمر ابن آدم

---

(١) تفسير الطبري (٩/٧٦ ـ ٨١) .

بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار » .

ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به[1] .

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها ـ أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام ، يأكلان منها رغداً حيث شاءا ، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلىٰ الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها .

مقدار مقامه في الجنة : وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : « وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة » وتقدم أيضاً حديثه عنه ، وفيه ـ يعني يوم الجمعة ـ « خلق آدم ، وفيه أخرج منها » .

فإن كان اليوم الذي خلق فيه أخرج فيه ـ قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير ، فقد لبث هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير : ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة ، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر . . . والله تعالىٰ أعلم[2] .

روىٰ عبد الرزاق بسنده عن عطاء بن أبي رباح أن آدم لما أهبط كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلىٰ ستين ذراعاً . . . وفي هذا نظر ، لما تقدم من الحديث المتفق علىٰ صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن » وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتىٰ الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس : أن الله قال : يا آدم . . . إن لي حرماً بحيال عرشي ، فانطلق فابن لي فيه بيتاً ، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل

---

(١) مسند أحمد (٥٥٣) ومسلم كتاب الإيمان باب من سجد لله (١/ ١٠٢) وابن ماجه في المقدمة .

(٢) الطبري (١٧/ ٢٠ و٢١) .

الله له ملكاً فعرفه مكانه وعلمه المناسك ، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه : أن أول طعام أكله آدم في الأرض ، أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة ، فقال : ما هذا ؟ قال : هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها . فقال : وما أصنع بهذا ؟ قال : ابذره في الأرض ، فبذره . وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مئة ألف ، فنبتت فحصده ، ثم درسه ثم ذراه ، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن : جزّاه ثم غزلاه ، فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً .

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد ؟ فقيل : لم يولد لهما إلا في الأرض ، وقيل : بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها . . . والله أعلم .

وذكروا أنه كان يولد في كل بطن ذكر وأنثى ، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه ، والآخر بالأخرى ، وهلم جراً ، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه .

قصة ابني آدم : قابيل وهابيل

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ ـ ٣١] .

وقد تكلمنا علىٰ هذا القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية . . . ولله الحمد .

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك :

فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ، أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثىٰ الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها علىٰ أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً ، وذهب آدم ليحج إلىٰ مكة واستحفظ السموات علىٰ بنيه فأبين ، والأرضين والجبال فأبين ، فتقبل قابيل بحفظ ذلك .

فلما ذهب قربا قربانهما ، فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتىٰ لا تنكح أختي ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين .

وروي عن ابن عباس من وجوه أخر ، وعن عبد الله بن عمرو . وقال عبد الله ابن عمرو : وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده[١] .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه .

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تقبل منك ولم يتقبل مني . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ، فغضب قابيل وقتله . وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها علىٰ رأسه وهو نائم فشدخته ، وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً فمات . . . والله أعلم .

---

(١) الطبري (٦/ ١٢٠) .

وقوله لما توعده بالقتل : ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٨] دل علىٰ خلق حسن ، وخوف من الله تعالىٰ وخشية منه ، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله .

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله . . . هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً علىٰ قتل صاحبه »[1] .

وقوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى ، إذ قد عزمت علىٰ ما عزمتَ عليه ، أن تبوء بإثمي وإثمك . أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك ، قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد .

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلىٰ القاتل كما توهمه بعض الناس ، فإن ابن جرير حكىٰ الإجماع علىٰ خلاف ذلك .

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ترك القاتل علىٰ المقتول من ذنب » فلا أصل له ، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً .

ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة ، أن يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلىٰ القاتل ، كما ثبت في الحديث الصحيح في سائر المظالم ، والقتل من أعظمها . . . والله أعلم . وقد حررنا هذا كله في التفسير ، ولله الحمد .

وقد روىٰ الإمام أحمد وأبو داود والترمذي ، عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم (٤٨٥) وفيه لأحمد في مسنده والبخاري ومسلم ولأبي داود والنسائي عن أبي بكرة ، ولابن ماجه عن أبي موسى .

عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » .

قال : أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إلي ليقتلني .

قال : « كن كابن آدم » .

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وقال : « كن كخير ابني آدم » ورویٰ مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا[١] .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : قال : حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل[٢] نفس ظلماً إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » .

ورواه الجماعة سوىٰ أبي داود من حديث الأعمش به . وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي أنهما قالا مثل هذا سواء[٣] .

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، فالله أعلم بصحة ذلك .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير ـ وقال إنه كان من الصالحين ـ أنه رأىٰ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له ، وذكر أنه سأل الله تعالىٰ أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء ، فأجابه إلىٰ ذلك ، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال : « إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس » .

---

(١) البخاري جنائز ٣٣ ، أنبياء (١) ديات ٢ واعتصام ١٥ ومسلم : قسامة (٢٧) والترمذي علم ٢١٤ والنسائي تحريم (١) وابن ماجه ديات (١) وأحمد في المسند (١/٣٣٨ و٣٤٠ و٤٣٣)

(٢) بضم التاء وسكون القاف .

(٣) السيوطي في الجامع الصغير الحديث (٤٦٧٠) وفيه : لأحمد في مسنده وللبخاري ومسلم كلاهما عن أبي هريرة . حديث صحيح .

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا ، لم يترتب عليه حكم شرعي . . . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١] ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله علىٰ ظهره ولم يزل كذلك حتىٰ بعث الله غرابين أخوين . هكذا قال السدي بإسناده عن الصحابة ، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر ، فلما قتله عمد إلىٰ الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه[١] .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن علىٰ ابنه هابيل حزناً شديداً وأنه قال في ذلك شعراً وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مُغْبَرٌّ قبيحُ
تغيَّر كل ذي لون وطعم وقلَّ بشاشة الوجهُ المليحُ

فأجيب آدم

أبا هابيلَ قد قُتِلا جميعاً وصار الحيُّ كالميتِ الذبيحِ
وجاء بشرةٍ قد كان منها علىٰ خوف فجاء بها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن فيه بلغته فألفه بعضهم إلىٰ هذا وفيه أقوال والله أعلم .

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه ، فعلقت ساقه إلىٰ فخذه ، وجعل وجهه إلىٰ الشمس كيفما دارت ، تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه .

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »[٢] .

---

(١) الطبري في تفسيره (٦/ ١٢٧) .

(٢) السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم (٨٠٢٩) للطبراني في الكبير عن أبي بكرة . حديث حسن .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم : **أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً . قاله ابن إسحاق وسماهم . . . والله تعالىٰ أعلم .**

وقيل : مئة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى . أولهم هابيل وأخته قليما وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث .

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا ، وامتدوا في الأرض ونموا ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتىٰ رأىٰ من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمئة ألف نسمة . . . والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ـ ١٩٠] الآيات . . . فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ، ثم استطرد إلىٰ الجنس . وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء ، بل لما جرىٰ ذكر الشخص استطرد إلىٰ الجنس كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٣] قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ، وإنما استطرد من شخصها إلىٰ جنسها .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « **لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش . فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره** »[1] .

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند

---

(١) لا يصح أن حواء فعلت ذلك .

هذه الآية ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به ، فقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه[1] .

فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روي موقوفاً عن ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذويه . . . والله أعلم .

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره . . . والله أعلم .

وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟ !

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ ، والصواب وقفه . . . والله أعلم . وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا؛ فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه جنته .

وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمئة وثلاثة عشر : جم غفير » قلت : يا رسول الله . . . من كان أولهم ؟ قال : « آدم » . قلت : يا رسول الله . . . نبي مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً » .

---

(1) الترمذي : الحديث رقم (٣٠٧٧) عن سمرة ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة .

رویٰ الطبراني بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل الملائكة ؟ جبريل ، وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور شهر رمضان ، وأفضل الليالي ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران » .

وقال كعب الأحبار : ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم ، لحيته سوداء إلىٰ سرته ، وليس أحد يكنىٰ في الجنة إلا آدم كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد .

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا قال له : « مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، قال : وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى ، فقلت : يا جبريل ما هذا . . ؟ قال : هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه ، فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك ، وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى » . هذا معنىٰ الحديث .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثني يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » قالوا : معناه أنه كان علىٰ النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء .

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنىٰ « شيث » : هبة الله ، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل قابيل هابيل .

قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل مئة صحيفة وأربع صحف ، علىٰ شيث خمسين صحيفة » .

قال محمد بن إسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلىٰ ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك .

قال : ويقال إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلىٰ شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا . . . والله أعلم .

ولما توفي آدم عليه السلام ـ وكان ذلك يوم الجمعة ـ جاءته الملائكة بحنوط وكفن ـ من عند الله عز وجل ـ من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام . قال ابن إسحاق : وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن .

وروىٰ ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ ، عن محمد بن زياد ، عن ميمون ابن مهران ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « كبرت الملائكة علىٰ آدم أربعاً ، وكبر أبو بكر علىٰ فاطمة أربعاً ، وكبر عمر علىٰ أبي بكر أربعاً ، وكبر صهيب علىٰ عمر أربعاً » .

قال ابن عساكر : ورواه غيره عن ميمون فقال : عن ابن عمر .

واختلفوا في موضع دفنه ، فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند ، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة . ويقال : إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت ، فدفنهما ببيت المقدس . حكىٰ ذلك ابن جرير .

وروىٰ ابن عساكر عن بعضهم أنه قال : رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس . وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة .

واختلف في مقدار عمره عليه السلام : فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً : أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة[١] .

وقال عطاء الخراساني : لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام . رواه ابن عساكر .

---

(١) عاش آدم في الجنة مئة وثلاثين وأتم الألف في الدنيا .

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام ، وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي ذر مرفوعاً : أنه أنزل عليه خمسون صحيفة .

فلما حانت وفاته أوصىٰ إلىٰ ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ، ثم بعده ولده قينان ثم من بعده ابنه مهلاييل ـ وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة ، وأنه أول من قطع الأشجار ، وبنىٰ المدائن والحصون الكبار ، وأنه هو الذي بنىٰ مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى ، وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلىٰ أطرافها وشعاب جبالها ، وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان ، وكان له تاج عظيم ، وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة .

فلما مات قام بالأمر بعده ولد « يرد » فلما حضرته الوفاة أوصىٰ إلىٰ ولده « خنوخ » وهو إدريس عليه السلام علىٰ المشهور .

ذكر إدريس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦ ـ ٥٧] . فإدريس عليه السلام قد أثنىٰ الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية ، وهو خنوخ هذا . وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ علىٰ ما ذكره غير واحد من علماء النسب .

وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام .

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمئة سنة وثماني سنين . وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل سائل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال : « إنه كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك » .

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ، ويسمونه هرمس الهرامسة ، ويكذبون عليه أشياء كما كذبوا علىٰ غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء[1] أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة . وقد روىٰ ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن جرير بن حازم ، عن الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالىٰ في إدريس : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ؟ فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحىٰ إليه : إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم ـ لعله من أهل زمانه ـ فأحب أن يزداد عملاً ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحىٰ إليّ كذا وكذا فكلِّمْ ملك الموت حتىٰ أزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلىٰ السماء ، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس ، فقال : وأين إدريس ؟ قال : هو ذا علىٰ ظهري ، فقال ملك الموت : يا للعجب . بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ ! فقبض روحه هناك . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها . وعنده فقال لذلك الملك : سل لي ملك الموت كم بقي من عمري ؟ فسأله وهو معه : كم بقي من عمره ؟ فقال : لا أدري حتىٰ أنظر ، فنظر فقال : إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك إلىٰ تحت جناحه إلىٰ إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر .

وهذا من الإسرائيليات ، وفي بعضه نكارة .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . إن أراد أنه لم يمت إلىٰ الآن ففي هذا نظر ، وإن أراد أنه رفع حياً إلىٰ السماء ثم قبض هناك فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار . . . والله أعلم[2] .

---

(١) البخاري (٤/١٤٦) باب المعراج و(٤/ ٢٧٢) باب ذكر إدريس عليه السلام .

(٢) تفسير مجاهد (١/ ٣٨٧) .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : رفع إلى السماء السادسة فمات بها[١] ، وهكذا قال الضحاك . والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح ، وهو قول مجاهد وغير واحد . وقال الحسن البصري : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : إلى الجنة ، وقال قائلون : رفع في حياة أبيه « يرد بن مهلاييل » . . . والله أعلم .

قال البخاري : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس ، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء : أنه لما مرّ به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قالوا : فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له[٢] .

وهذا لا يدل ولابد ، قد لا يكون الراوي حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر ، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن ، وأكبر أولي العزم بعد محمد... صلوات الله عليهم أجمعين .

قصة نوح عليه السلام

هو نوح[٣] بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام .

وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مئة وست وأربعون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في

---

(١) الصواب أن إدريس عليه السلام مات على هذه الأرض وأنه لم يزل في السماء السادسة غير معتمد وذلك لقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ٥٥]

(٢) البخاري (٢٧١/٤) باب ذكر إدريس عليه السلام .

(٣) واسمه في العربية عبد الغفار .

صحيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، وحدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبيًّا كان آدم ؟ قال : « نعم مكلم » . قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : « عشرة قرون » .

قلت : وهذا علىٰ شرط مسلم ولم يخرجه .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام » .

فإن كان المراد بالقرن مئة سنة ـ كما هو المتبادر عند كثير من الناس ـ فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام ، لكن حديث أبي أمامة يدل علىٰ الحصر في عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس : « أنهم كانوا علىٰ الإسلام » .

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب : أن قابيل وبنيه عبدوا النار . . . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] وقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] وقال تعالى : ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨] وقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم : ٧٤ و٩٨] وكقوله عليه السلام : « خير القرون قرني . . » الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يُعمَّرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين نوح وآدم ألوف من السنين ، والله أعلم .

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالىٰ لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلىٰ أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة[1] .

وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره .

---

(١) نوح أول رسول أرسل للكفار لدعوتهم للإسلام .

واختلفوا في مقدار سنّه يوم بعث ، فقيل كان ابن خمسين سنة ، وقيل ابن ثلاثمئة وخمسين سنة ، وقيل ابن أربعمئة وثمانين سنة حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلىٰ ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، في غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت ، وأنزل فيه سورة كاملة .

فقال في سورة الأعراف :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة يونس : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ
خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا
تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ
يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ
ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا
عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ
يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ
أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ
أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ
إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ
قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ
أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ
ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا
ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا
مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ
بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ
أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الصافات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ
نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة القمر : ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ
عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ

كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ
مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ
وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ
يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة نوح] .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير . وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار .

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ،
فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقال تعالىٰ في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الآيات .

وتقدمت قصته في الأعراف .

وقال تعالىٰ في سورة براءة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة سبحان : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] وقال تعالىٰ فيها أيضاً : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] .

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت .

وقال تعالىٰ في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة ص : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة غافر : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشورى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة ق : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الذاريات : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة النجم : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ .

وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة .

وقال تعالىٰ في سورة الحديد : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾(١) .

وأما مضمون ما جرىٰ له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام ، رواه البخاري . وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة علىٰ ما سلف .

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلىٰ عبادة الأصنام .

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموهم بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتىٰ إذا هلك أولئك وانتسخ

---

(١) سورة التحريم [الآية ١٠] وهذه الآية دليل علىٰ أن امرأة نوح ماتت كافرة ولم تكن مع نوح في السفينة كما يروي بعض القصاصين . ومعنىٰ خانتاهما أي لم تؤمنا بهما وليس معناه أنهما زانيتان لأن الله عصم الأنبياء من أن تزني نساؤهم .

العلم عبدت[1] .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد .

وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق .

قال ابن جرير في تفسيره : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلىٰ العبادة إذا ذكرناهم ، فصوَّروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس اللعين فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[2] .

وروىٰ ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر ، أولاد آدم وكان « ود » أكبرهم وأبرَّهم به .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب عن أبي المطهر ، قال : ذكروا عند أبي جعفر ـ هو الباقر ـ وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى . قال ذكر وداً قال : كان رجلاً صالحاً ، وكان محبباً في قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأىٰ إبليس اللعين جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرىٰ جزعكم علىٰ هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم ، فصور لهم مثله قال : فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأىٰ ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ، فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتىٰ اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد من غير الله « ود » الصنم الذي سموه وداً .

---

(١) البخاري : تفسير سورة نوح رقم (٤١٣) .

(٢) تفسير سورة نوح .

ومقتضىٰ هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس ، وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان ، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لها ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير . . . ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة ، تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة ، ويقال لها « مارية » وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل » .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهىٰ عن عبادة ما سواه .

فكان أول رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم . . أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلىٰ ربك ؟ ألا ترىٰ ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ نوح .

فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح . . أنت أول الرسل إلىٰ أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه ؟ ألا ترىٰ إلىٰ ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلىٰ ربك عز وجل ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي » وذكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح[1] .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلىٰ إفراد عبادة الله وحده لا شريك

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) تفسير سورة نوح عليه السلام .

به ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالىٰ من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[الصافات : ٧٧] وقال تعالىٰ فيه وفي إبراهيم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته ، وكذلك إبراهيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ ﴾[النحل : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء : ٢٥] .

ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف : ٥٩] وقال : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[هود : ٢٦] وقال : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[نوح : ٢ ـ ٣] وقال : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[نوح : ١٤] الآيات الكريمات .

فذكر أنه دعاهم إلىٰ الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار ، والسر والجهر ، بالترغيب تارةً والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم علىٰ الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به ، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾[الأعراف : ٦٠] أي السادة الكبراء منهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأعراف : ٦٠] .

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأعراف : ٦١] أي لست كما تزعمون من أني ضال ، بل علىٰ الهدىٰ المستقيم رسول من رب

العالمين ، أي الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً ، أي فصيحاً ناصحاً ، أعلم الناس بالله عز وجل .

وقالوا له فيما قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] .

وتعجبوا أن يكون بشر رسولاً ، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم ، وقد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقل : « وهم أتباع الرسل » ، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق .

وقولهم : ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية . وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلىٰ روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متىٰ ظهر .

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق : « ما دعوت أحداً إلىٰ الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعثم » ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته علىٰ من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه علىٰ خلافته فتركه ، قال : « يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر » رضي الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : ٢٧] أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٧ ـ ٢٨] .

وهذا تلطف في الخطاب معهم : وترفق بهم في الدعوة إلىٰ الحق ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] وهذا منه .

يقول لهم : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [هود : ٢٨] أي النبوة والرسالة ، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ [هود : ٢٨] أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ [هود : ٢٨] أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها ؟ ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه . ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود : ٢٩] أي لست أريد منكم أجرة علىٰ إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، لن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي ، وأبقىٰ مما تعطونني أنتم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبىٰ عليهم ذلك ، وقال : ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلىٰ الله عز وجل ، ولهذا قال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٣٠] .

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين ، كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم ، نهاه الله عن ذلك ، كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [هود : ٣١] أي بل أنا عبد رسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما علمني به ، ولا أقدر إلا علىٰ ما أقدرني عليه ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ [هود : ١٣] يعني من أتباعه ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، والله أعلم بهم وسيجازيهم علىٰ ما في نفوسهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كما قالوا في المواضع الأخرى : ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ١١١ ـ ١١٥] .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ

﴿ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١] أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم .

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته . وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه ، وصاه فيما بينه وبينه ، ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي .

وكانت سجاياهم تأبىٰ الإيمان واتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

ولهذا ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود : ٣٢ ـ ٣٣] أي إنما يقدر علىٰ ذلك الله عز وجل ، فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر ، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم ، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود : ٣٦] تسلية له عما كان منهم إليه ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوءنك ما جرىٰ فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب .

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود : ٣٧] .

وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأىٰ أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلىٰ أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب فلبىٰ الله دعوته وأجاب طلبه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ٧٥ ـ

٧٦][1] وقال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦][2] وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٧ ـ ١١٨] وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ٢٦] وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

[نوح : ٢٥ ـ ٢٧] .

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم .

فعند ذلك أمره الله تعالىٰ أن يصنع الفلك ، وهي السفينة العظيمة . التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها .

وقدم الله تعالىٰ إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه ، فإنه لعله قد تدركه رقة علىٰ قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة . ولهذا قال : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] .

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ﴾ [هود : ٣٨] أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به ، ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم علىٰ كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٩] .

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا ، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول .

---

(١) الصافات ٧٦ قلت انظر توافق الآيتين في الرقم وما فيها من سر عظيم .

(٢) الأنبياء ٧٦ قلت انظر توافق الآيتين في الرقم وما فيها من سر عظيم .

كما قال البخاري : حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء نوح عليه السلام وأمته ، فيقول الله عز وجل : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، أي رب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ » وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] [البقرة : ١٤٣] .

والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد علىٰ شهادة نبيها الصادق المصدوق ، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق ، وأنزل عليه الحق وأمره به ، وأنه بلغه إلىٰ أمته علىٰ أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتىٰ إنه حذر قومه المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم ، حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم .

كما قال البخاري : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله ، عن يونس ، عن الزهري ، قال سالم قال ابن عمر : قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ، ثم ذكر : « إني أنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه ، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور »[2] .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيىٰ ابن أبي كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه ؟ إنه أعور وإنه يجيء معه

---

(١) البقرة : ١٤٣ بخاري أنبياء الحديث رقم ١٤٣ عن أبي هريرة وقارن الدر المنثور ٣٥٢ .

(٢) البخاري أدب ٧٧ ، وفتن ٣٦ توحيد ١٧ وجهاد ١٧٨ وأنبياء ٣ ، ومسلم فتن ٩٥ و١٠١ وأبو داود ملاحم ١٤ وسنة ٢٦ والترمذي فتن ٥٦ و٦٢ وابن ماجه فتن ٣٣ ، وأحمد في المسند ١٧٦ و١٨٢ و٢/٢٧ و١٤٩ .

بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه » [لفظ البخاري][(١)] .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له ، أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مئة سنة ، ثم نجره في مئة أخرىٰ وقيل في أربعين سنة والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق عن الثوري : وكان من خشب الساج وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة .

قال الثوري : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً ، وأن يطلىٰ ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور[(٢)] يشق الماء .

وقال قتادة : كان طولها ثلاثمئة ذراع في عرض خمسين ذراعاً . وهذا الذي في التوراة علىٰ ما رأيته . قال الحسن البصري : ستمئة في عرض ثلاثمئة ، وعن ابن عباس : ألف ومئتا ذراع في عرض ستمئة ذراع ، وقيل : كان طولها ألفي ذراع ، وعرضها مئة ذراع .

وقالوا كلهم : كان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع ، فالسفلىٰ للدواب والوحوش ، والوسطىٰ للناس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [المؤمنون : ٢٦ ـ ٢٧] أي بأمرنا لك ، وبمرأىٰ منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلىٰ الصواب في صنعتها .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ .

[المؤمنون : ٢٧] .

---

(١) باب التوحيد ١٧ ، ومسلم فتن ١٠٠ وابن ماجه فتن ٣٣ وأحمد في المسند /أ/ ٣٣ و٣٧ .

(٢) الجؤجؤ : صدر السفينة . والأزور : المائل والمنحرف .

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه ، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أي أهل بيته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، أي إلا من كان كافراً فإن قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم ، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد . كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض ، أي نبعث الأرض من سائر أرجائها حتىٰ نبعت التنانير التي هي محال النار ، وعن ابن عباس : التنور عين في الهند وعن الشعبي : بالكوفة ، وعن قتادة : بالجزيرة .

وقال علي بن أبي طالب : المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر ، أي إشراقه وضياؤه . أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وهذا قول غريب .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود : ٤٠]هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وفي كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ، وما لا يؤكل زوجين : ذكر وأنثى .

وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى : ﴿ اثنين ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به ، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي . . . والله أعلم .

وذكر بعضهم ـ ويروىٰ عن ابن عباس : أن أول ما دخل من الطيور الدرة[١] وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ، ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار . روىٰ ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه :

---

(١) الدرة : نوع من الببغاوات .

وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد ؟ ! . . . فسلط الله عليه الحمىٰ فكانت أول حمىٰ نزلت في الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحىٰ الله إلىٰ الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها » هو مرسل .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود : ٤٠] أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر ، فكان منهم ابنه « يام » الذي غرق كما سيأتي بيانه .

﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارةً والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة .

فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة .

وقيل : إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة « يام » الذي انخزل وانعزل ، وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل .

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية ، بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] .

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم : حام ، وسام ، ويافث ، ويام ، ويسميه أهل الكتاب « كنعان » وهو الذي قد غرق ، و« عابر » فقد ماتت قبل الطوفان ، وقيل إنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليها القول لكفرها .

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة . والظاهر الأول لقوله : ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨ ـ ٢٩][1] .

وأمره أن يحمد ربه علىٰ ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممّن خالفه وكذبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ الزخرف : ١٢ ـ ١٤] .

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور : أن يكون علىٰ الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالىٰ لرسوله ﷺ حين هاجر : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠]

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : ﴿ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : ٤١]أي علىٰ اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي وذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيماً ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢]وذلك أن الله تعالىٰ أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : ١٠ ـ ١٣]والدسر المسامير ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٤]

---

(١) هذا تعليم من الله تعالىٰ لعباده إذا ركبوا واسطة أو نزلوا منزلاً ، أو دخلوا بيوتهم أو بيوت غيرهم أن يقولوا : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ ورُوي عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال : « اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » .

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] أي السفينة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٢] .

قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء علىٰ أعلىٰ جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً ، وهو الذي عند أهل الكتاب ، وقيل : ثمانين ذراعاً ، وعم جميع الأرض طولها وعرضها ، سهلها وواديها ، وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق علىٰ وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير .

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملؤوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها ملك وحائز .

رواهما ابن أبي حاتم .

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٢ ـ ٤٣] .

وهذا الابن هو « يام » أخو سام وحام ويافث ، وقيل اسمه « كنعان » . وكان كافراً عمل عملاً غير صالح ، فخالف أباه في دينه ، فهلك مع من هلك . هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب ، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب .

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤] .

أي لما فرغ من أهل الأرض ، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل ، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ أي نقص عما كان ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره ، من إحلاله بهم ما حل بهم .

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي نودي عليهم بلسان القدرة : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة .

كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

[الشعراء : ١١٩ ـ ١٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٥ ـ ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥ ـ ٢٧] .

وقد استجاب الله تعالىٰ ـ وله الحمد والمنة ـ دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

قال رسول الله ﷺ : « مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة ـ يعني إلا خمسين عاماً ـ وغرس مئة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ، ويقولون : تعمل سفينة في البر ، كيف

تجري ؟ قال : سوف تعلمون .

فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت به إلىٰ الجبل حتىٰ بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتىٰ استوت علىٰ الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا » وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً .

فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ـ ويقال ابن عناق ـ كان موجوداً من قبل نوح إلىٰ زمان موسى ، ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً . ويقولون كان لغير رشدة ، بل ولدته أمه بنت آدم من زنا ، وأنه كان يأخذ من طوله السمك في قرار البحار ويشويه في عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القصيعة التي لك ؟ ويستهزىء به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمئة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً ، إلىٰ غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها . ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ، ولا يهلك عوج بن عنق ، ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغىٰ علىٰ ما ذكروا ؟ .

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ، ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر ، الشديد الكافر ، الشيطان المريد علىٰ ما ذكروا ؟ .

وأما المنقول : فقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٦] وقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن »[١] .

---

(١) البخاري (٤/ ٢٦٥) كتاب الأنبياء .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] أنه لم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن ، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلىٰ يوم إخباره بذلك وهلم جراً إلىٰ يوم القيامة . وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه .

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلىٰ أقوال الكفرة من أهل الكتاب ، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأوّلُوها ووضعوها علىٰ غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة والكذبة عليهم لعنة الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة ، وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقٌ من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء . . . والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالىٰ مناشدة نوح ربه في ولده ، وسؤاله له عن غرقه علىٰ وجه الاستعلام والاستكشاف .

ووجه السؤال : أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق ؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أي الذين وعدت بنجاتهم . أي أنا قلنا لك ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلىٰ أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

ثم قال تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود : ٤٨][1] .

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها . أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم علىٰ ظهر جبل « الجودي » وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور . ﴿ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود : ٤٨] أي اهبط سالماً مباركاً عليك . وعلىٰ أمم ممن سيولد

---

(١) قال سعيد بن المسيب : بلغني أنه من قال حين يمسي : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لم تلدغه عقرب ، وفي الآية وقاية من جميع هوام الأرض .

بعد ، أي من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوىٰ نوح عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] . فكل من علىٰ وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ، ينسبون إلىٰ أولاد نوح الثلاثة وهم : سام ، وحام ، ويافث .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال : والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المتسبون إلىٰ رومي ابن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام .

ثم روىٰ من حديث إسماعيل بن عياش ، عن يحيىٰ بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة : فولد سام : العرب وفارس والروم . وولد يافث : الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج . وولد حام : القبط والسودان والبربر[١] .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح : سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث : يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم . وولد لحام : القبط والبربر والسودان » .

وقد قيل : إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة « كنعان » الذي غرق ، و« عابر » مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن يزيد بن جدعان عن يوسف بن

---

(١) الحديث رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (١/١/١٨).

مهران ، عن ابن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسىٰ بن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتىٰ أتىٰ إلىٰ كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه . وقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب . فقال له عيسىٰ عليه السلام : هكذا هلكت ؟ قال : لا ولكني مت وأنا شاب ، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت .

قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع ، وعرضها ستمئة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : فطبقة فيها الدواب والوحوش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ نوح عليه السلام : أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا علىٰ الروث ، ولما وقع الفأر يخرز السفينة أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ نوح عليه السلام : أن اضرب بين عيني الأسد ، فخرج من مِنخره سنور وسنورة فأقبلا علىٰ الفأر ، فقال له عيسى : كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت .

قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت . قال : فقالوا : يا رسول الله . . ألا ننطلق به إلىٰ أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله . . فعاد تراباً .

وهذا أثر غريب جداً .

وروىٰ علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا في السفينة مئة وخمسين يوماً ، وإن الله وجه السفينة إلىٰ مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلىٰ « الجودي » فاستقرت عليه ، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض ،

فذهب فوقع علىٰ الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلىٰ أسفل « الجودي » فابتنىٰ قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم علىٰ ثمانين لغة ، إحداها العربية ، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره : ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من رجب فساروا مئة وخمسين يوماً واستقرت علىٰ « الجودي » شهراً . وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم . وقد روىٰ ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا ، وأنهم صاموا يومهم ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا الصوم » ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي نجىٰ الله فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا اليوم استوت فيه السفينة علىٰ الجودي ، فصامه نوح وموسىٰ عليهما السلام شكراً لله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « أنا أحق بموسىٰ وأحق بصوم هذا اليوم » وقال لأصحابه : « من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه » .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضاً . . والله أعلم[1] .

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ، ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها ، وطحنوا الحبوب يومئذ ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعدما كانوا في ظلمة السفينة ـ فكل هذا لا يصح فيه شيء ، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدىٰ بها . . والله أعلم .

---

(١) البخاري الصوم ٣٩ والتفسير سورة رقم ١٠ ومسلم صيام ١٢٦ وابن ماجه صيام ٤١ .

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً علىٰ وجه الأرض ، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر ، وكان استواء الفلك علىٰ « الجودي » ـ فيما يزعم أهل التوراة ـ في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال . فلما مضىٰ بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم يجد لرجلها موضعاً ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء ، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلىٰ أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين ، برز وجه الأرض ، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب .

وقال ابن إسحاق : وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٤٨] .

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك [١] وبنوك ونساء بنيك معك ، وجميع الدواب التي معك ، ولينموا وليكثروا في الأرض . فخرجوا وابتنىٰ نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلىٰ الله عز وجل وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان علىٰ أهل الأرض . وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام ، وهو قوس قزح الذي روي عن ابن عباس أنه أمان من الغرق . قال بعضهم : فيه

(١) امرأة نوح كانت من المغرقين . . . ! !

إشارة إلىٰ أنه قوس بلا وتر ، أي أن هذه الغمام لا يُوجِدُ طوفاناً كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر ، من لدن كيومرث ـ يعنون آدم ـ إلىٰ زماننا هذا .

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ، ومكابرة للمحسوسات ، وتكذيب لرب الأرض والسموات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن ، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان ، علىٰ وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد ، استجابة لدعوة نبيه المعصوم ، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم .

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء : ٣] . قيل : إنه كان يذكر الله علىٰ طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة (١) .

والظاهر أن الشَّكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا (٢) .

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه « باب صيام نوح عليه السلام » : حدثنا سهل بن أبي سهب ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة ، عن أبي فراس ،

---

(١) الإمام الأحمد في مسنده ولمسلم وللترمذي وللنسائي كلهم عن أنس ، حديث صحيح .
(٢) ذكر العلماء أن الشكور هو الذي أدىٰ الواجبات واجتنب المحرمات .

أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى » .

وقد قال الطبراني : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة ، عن يزيد بن رباح أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر[١] .

ذكر حجه عليه السلام

عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ فلما أتىٰ وادي عسفان قال : « يا أبا بكر . . أي وادٍ هذا . . أي وادٍ هذا » ؟ قال : هذا وادي عسفان . قال : « لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم علىٰ بكرين[٢] لهم حمر خطمهم الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار[٣] ، يحجون البيت العتيق » .

فيه غرابة .

ذكر وصيته لولده عليه السلام

عن عبد الله بن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ـ أو قال : يريد أن يضع كل فارس بن فارس ـ ورفع كل راع بن راع » .

قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « ألا أرىٰ عليك لباس من لا يعقل » ؟ ! ثم قال : « إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية ، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم (٤٩٨٦) وقال : الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، حديث حسن .

(٢) البكر : الفتي من الإبل ، والجمع أبكر وبكار ، والأنثى : بكرة .

(٣) النمار : برود من صوف ذات خطوط بيض وسود .

السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولوأن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر » قال : قلت - أو قيل - يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : « لا » قلت - أو قيل - يا رسول الله . فما الكبر ؟ قال : « سفه الحق وغمط الناس »(١) .

وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه(٢) .

عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان في وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين » فذكر نحوه(٣) .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب في السفينة - كان عمره ستمئة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمئة وخمسين سنة ، وفي هذا القول نظر . ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض . فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك .

فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس - من أنه بعث وله أربعمئة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين - فيكون قد عاش علىٰ هذا ألف سنة وسبعمئة وثمانين سنة .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) ولفظ مسلم : الكبر بطر الحق .

(٣) رواه الطبراني .

وأما قبره عليه السلام : فروىٰ ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام .

وهذا أقوىٰ وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين ، من أنه ببلدة البقاع تعرف اليوم« بكرك نوح » ، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر . . والله أعلم .

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ويقال إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، ويقال هود بن عبد الله ابن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

ذكره ابن جرير .

وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عاص بن سام بن نوح . وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف ـ وهي جبال الرمل ـ وكانت باليمن بين عمان وحضرموت ، بأرض مطلة علىٰ البحر يقال لها «الشحر » ، واسم واديهم « مغيث » .

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾[الفجر : ٦ ـ ٧] أي عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه . وأما عاد الأولىٰ فهم عاد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾[الفجر : ٧ ـ ٨] أي مثل القبيلة ، وقيل مثل العمد . والصحيح الأول كما بيناه في التفسير .

ومن زعم أن « إرم » مدينة تدور في الأرض ، فتارةً في الشام ، وتارةً في اليمن وتارةً في الحجاز ، وتارةً في غيرها ، فقد أبعد النُّجْعَة ، وقال ما لا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مسند يركن إليه[١] .

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكره الأنبياء والمرسلين

---

(١) ولقد اكتشفها العلم الحديث عن طريق الأقمار الصناعية وأثبت موضعها أنها تحت تلال متراكمة من الكثبان الرملية في الربع الخالي في المملكة العربية السعودية .

قال فيه « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر » .

ويقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك . . والله أعلم .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام ، العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم .

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود أن عاداً ـ وهم عاد الأولى ـ كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكانت أصنامهم ثلاثة : صمداً ، وصموداً ، وهراً .

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلىٰ الله ، كما قال تعالىٰ بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم فيسورة الأعراف : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة المؤمنون بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة حم فصلت : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الأحقاف : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في الذاريات : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ .

وقال تعالىٰ في النجم : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ في الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ

فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ .

وقد تكلمنا علىٰ كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد جرىٰ ذكر عاد في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، والعنكبوت ، وفي سورة ص ، وفي سورة ق .

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات ، مع ما يضاف إلىٰ ذلك من الأخبار .

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين في قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف : ٦٩] أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش . . وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون : ٣١] وهم قوم هود علىٰ الصحيح .

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون : ٤١] قالوا : وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦] وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات ، ثم لا خلاف في أن عاداً قبل ثمود .

والمقصود أن عاداً كانوا جفاة كافرين ، عتاة متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلىٰ الله وإلىٰ إفراده بالعبادة والإخلاص له ، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ، ووعدهم علىٰ ذلك خير الدنيا والآخرة ، وتوعدهم علىٰ مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف : ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلىٰ ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجىٰ

منها النصر والرزق ، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف : ٦٧] أي ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[الأعراف : ٦٨] والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب .

وهو مع هذا البلاغ علىٰ هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص علىٰ هدايتهم ، ولا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً ، بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه ، ولهذا قال : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[هود : ٥١] أي أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلىٰ الحق المبين الذي تشهد به فطرتكم التي خلقتم عليها ، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق . وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه ، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع ، ولهذا قال مؤمن : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس : ٢١ ـ ٢٢] .

وقال قوم هود له فيما قالوا : ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾[هود : ٥٣ ـ ٥٤] يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته ، وما نظن ، إلا أنك مجنون فيما تزعمه . وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك ، وهو قولهم ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[هود : ٥٤ ـ ٥٥] .

وهذا تحدٍّ منه لهم ، وتبرُّؤٌ من آلهتهم وتنقص منه لها ، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر ، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعنٌ لها ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ، ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ، ولا أنظر إليكم . ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] أي أنا متوكل على الله ومتأيد به ، الذي لا يضيع من لاذ به ، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه .

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله ، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً . فدل على صدقه فيما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله : ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ .

[يونس : ٧١] .

وهكذا قال الخليل عليه السلام : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٠ ـ ٨٣] .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ .

[المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٥]

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً. وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] أي ليس هذا بعجيب: فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٩] استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾، أي بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة. وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩]. يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا أنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] فعاد إرم هم عاد الأولى

الذين كانوا يصنعون الأعمدة التي تحمل الخيام التي يسكنونها .

ومن زعم أن « إرم » مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد ، فقد غلط وأخطأ ، وقال ما لا دليل عليه .

وقوله : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ قيل هي القصور ، وقيل بروج الحمام ، وقيل مآخذ الماء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٣٠ ـ ١٣٥] .

وقالوا له فيما قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ؟ فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال ، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك .

كما قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٦ ـ ١٣٨] . أما على قراءة فتح « الخاء » ، فالمراد به اختلاق الأولين ، أي إن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك ، أخذته من كتب الأولين . هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين . وأما على قراءة ضم « الخاء واللام » فالمراد به الدين ، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف ، ولن نتحول عنه ولن نتغير ، ولا نزال متمسكين به .

ويناسب كلتا القراءتين الأولى والثانية قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام نحتّموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ؟ اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان . أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً . وإذ أبيتم قبول الحق وتماديتم في

الباطل ، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا ، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ .

[الأحقاف : ٢٢ ـ ٢٥] .

وقد ذكر الله تعالىٰ خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً ، كقوله : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٢] وكقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [هود : ٥٨ ـ ٦٠] وكقوله : ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤١] وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

[الشعراء : ١٣٩ ـ ١٤٠] .

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأحقاف : ٢٤]كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب ، أنهم كانوا ممحلين مستتين [١] ، فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلۡ هُوَ مَا

(١) ممحلين : أي أصابهم الجدب واحتبس عنهم المطر . ومستتين : أي أصابتهم السنة وهي القحط والجدب .

ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ﴾ أي من وقوع العذاب وهو قولهم : ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف] ومثلها في الأعراف .

وقد ذكر المفسرون وغيرهم هاهنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار قال : فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل ، أمسك عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته . وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال إنه معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبري . قال : فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً ، يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان ، قينتان لمعاوية ، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ـ عمل شعراً يعرّض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهَيْنمْ ... لعل الله يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً ... قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخير ... فقد أمست نساؤهمُ أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم ... نهاركمُ وليلكمُ تماما
فقُبِّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقّوا التحية والسلاما

قال : فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز ، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : اختر لنفسك ـ أو لقومك ـ من هذا السحاب ، فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه مناد : اخترت رماداً رِمدداً ،

لا تبقي من عاد أحداً ، لا والداً ولا ولداً ، إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية قال : وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال : ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة .

قال : وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلىٰ عاد ، حتىٰ تخرج عليهم من وادٍ يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥] أي تهلك كل شيء أمرت به .

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها « مهد » ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا مهد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها . فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، والحسوم : الدائمة ، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك .

قال : واعتزل هود عليه السلام ـ فيما ذكر لي ـ في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر علىٰ عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روىٰ الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال : حدثنا زيد بن الخباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي ، حدثنا عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن الحارث ـ وهو ابن حسان ـ ويقال ابن يزيد البكري ، قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلىٰ رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله . . إن لي إلىٰ رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ .

قال : فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً .

قال : فجلست ، قال : فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه فأذن لي ،

فدخلت فسلمت فقال : « هل كان بينكم وبين بني تميم شيء » ؟ فقلت : نعم . وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقلت : يا رسول الله . . إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا ، قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله . . فإلىٰ أين يضطر مضطرك ؟ قال : فقلت : إن مثلي ما قال الأول : معزىٰ حملت حتفها ، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال : هيه . . وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه .

قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له « قيل » ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضىٰ الشهر خرج إلىٰ جبال تهامة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلىٰ مريض فأداويه ، ولا إلىٰ أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه . فمرت به سحابات سود فنودي منها : اختر . فأومأ إلىٰ سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رماداً رمدداً ، لا تبقي من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتىٰ هلكوا .

قال أبو وائل : وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد .

وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحباب به ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجه . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره[١] .

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة ، فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٨٢) والترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الذاريات الحديث رقم (٣٢٧٣) .

ذكراً لمكة ، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل ، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل ، فتزلت جرهم عندهم كما سيأتي ، وعاد الأولىٰ قبل الخليل ، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، ولا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولىٰ إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هي الباردة والعاتية والشديدة الهبوب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] أي كوامل متتابعات . قيل : كان أولها الجمعة ، وقيل : الأربعاء .

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلىٰ أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه علىٰ أم رأسه فتشدخه فيبقىٰ جثة بلا رأس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ [القمر : ١٩] أي في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم .

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر : ٢٠] ومن قال إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم ، فقد أخطأ وخالف القرآن ، فإنه قال في الآية الأخرى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة ، وهذا لا يقوله أحد ، إنما المراد في أيام نحسات ، أي عليهم .

وقال تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات : ٤١] أي التي لا تنتج خيراً ، فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً ، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات : ٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[1] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى ، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب ، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قال الله تعالى : ﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ﴾ أي من العذاب ، ثم فسره بقوله : ﴿ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب ، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً ، بل تتبعتهم حتىٰ كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة ، فكما مَنُّوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا : من أشد منا قوة ؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة ، وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً . كما ذكره غير واحد . ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة والعذاب بالنار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة ، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون . والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيىٰ بن الضريس ،

---

(١) البخاري استسقاء ٣٦ ، وبدء الخلق (٥) وأنبياء ٦ ، ومغازي ٢٩ ، ومسلم استسقاء ١٧ ، وأحمد في المسند .

حدثنا ابن فضيل عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله علىٰ عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأىٰ ذلك أهل الحاضرة من عاد ، الريح وما فيها : ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فألقت أهل البادية ومواشيهم علىٰ أهل الحاضرة » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله علىٰ عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلىٰ الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا . وكان أهل البوادي فيها ، فألقي أهل البادية علىٰ أهل الحاضرة حتىٰ هلكوا »[1] .

قال : عتت علىٰ خزانها حتىٰ خرجت من خلال الأبواب . قلت : وقال غيره : خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر ، ثم اختلف فيه علىٰ مسلم الملائي ، وفيه نوع اضطراب . . والله أعلم .

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغةً السحاب ، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري ، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قال : وإذا غيَّمت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر . فإذا أمطرت سري عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ رواه مسلم .

ومن طريق آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، أنبأنا عبد الله ابن وهب ، أنبأنا عمرو ـ هو ابن الحارث ـ أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن

---

(١) رواه الطبراني .

يسار ، عن عائشة أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتىٰ أرىٰ منه لهواته[1] ، إنما كان يبتسم وقالت : كان إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، قالت : يا رسول الله . . إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : « يا عائشة . . ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم عاد بالريح وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلىٰ هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات خبراً عن عاد الأولى . . والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب .

وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام . وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام[2] والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام
مع قومه ثمود

وهم قبيلة مشهورة ، يقال لهم « ثمود » باسم جدهم ثمود أخي جديس ، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح .

وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلىٰ تبوك بمن معه من المسلمين .

وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك .

---

(١) اللهوات : جمع لهاة ، وهي اللحمة المشرفة علىٰ الحلق ، أو الهنة المطبقة في أقصىٰ سقف الفم ، والجمع : لهوات ، ولهيات ، ولهى ، ولها ، ولهاء .

(٢) البخاري (٦/ ٣٣٨) تفسير سورة الأحقاف .

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله : صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام الأنداد ولا يشركوا به شيئاً . فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

كما قال تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ
ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة هود : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ
مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً
فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ
ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟

كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الحجر : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

وقال سبحانه وتعالىٰ في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة النمل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة حم . فصلت : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى

ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة اقتربت : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس : ١١ ـ ١٥] .

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود ، كما في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان : وسورة ص ، وسورة ق ، والنجم ، والفجر .

ويقال إن هاتين الأمتين لا يَعْرف خبرَهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة . ولكن في القرآن ما يدل علىٰ أن موسىٰ أخبر عنهما ، كما قال تعالىٰ في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٨ ـ ٩] الآية . الظاهر أن هذا من تمام كلام موسىٰ مع قومه ، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسىٰ عليه السلام . وقد تكلمنا علىٰ هذا كله في التفسير مستقصى . . . ولله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجىٰ الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام .

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً ، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم .
ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٣ ـ ٧٤] أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم . وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور، ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩] حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها . فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح ، والعبادة له وحده لا شريك له ، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته ، فإن عاقبة ذلك وخيمة .

ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ ـ ١٤٨] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤٩ ـ ١٥٢] .

وقال لهم أيضاً : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض ، وجعلكم عمارها ، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرازق ، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه . ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٦١] أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا علىٰ عبادته ، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود: ٦٢].

أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً كما كان قبل هذه المقالة ، وهي دعوتك إيانا إلىٰ إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

[هود : ٦٢] . ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾ [هود : ٦٢] .

وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب ، وحسن تأت في الدعوة لهم إلىٰ الخير ، أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ ماذا يكون عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعوتكم إلىٰ طاعته ؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني من الله ولا ينصرني . فأنا لا أزال أدعوكم إلىٰ الله وحده لا شريك له ، حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم .

وقالوا له أيضاً : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٣] أي من المسحورين : يعنون مسحوراً لا تدري ما تقول في دعوتك إيانا إلىٰ إفراد العبادة لله وحده . وخلع ما سواه من الأنداد . وهذا القول عليه الجمهور ، وهو أن المراد بالمسحرين : المسحورين . وقيل من المسحرين : أي ممن له سحر ـ وهو الرئي(١) ـ كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر . والأول أظهر لقولهم بعد هذا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] وقولهم : ﴿ فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل علىٰ صدق ما جاءهم به . ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الشعراء : ١٥٥ ـ ١٥٦] كما قال : ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأعراف : ٧٣] وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلىٰ الله ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلىٰ صخرة هناك ـ ناقة ، من صفتها كيت وكيت . وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها . وأن تكون عشراء طويلة ،

---

(١) الرئي : الجني يعرض للإنسان ويطلعه علىٰ ما يزعم من الغيب .

من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبي صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم ، على الوجه الذي طلبتم ، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا .

فلما عاينوها كذلك ، رأوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . ولهذا قال : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ ﴾ أي جحدوا بها ، ولم يتبعوا الحق بسببها ، أي أكثرهم . وكان رئيس الذين آمنوا : جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من رؤسائهم . وهمَّ بقية الأشراف بالإسلام ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلمس ، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهم بالإسلام فنهاه أولئك ، فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله :

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذبابا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم ، كقوله بيت الله وعبد الله ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ .

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها

ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم . ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ [القمر : ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ [القمر : ٢٧] أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ [القمر : ٢٧] علىٰ أذاهم فسيأتيك الخبر علىٰ جلية ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر : ٢٨] .

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم علىٰ أن يعقروا هذه الناقة ، ليستريحوا منها ويتوفّر عليهم ماؤهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم . قال الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

وكان الذي تولىٰ قتلها منهم رئيسهم : قدار بن سالف بن جندع ، وكان أحمر أزرق أصهب . وكان يقال إنه ولد زانية ولد علىٰ فراش سالف ، وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما (صدوق) بنة المحيا بن زهير بن المختار . وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له (مصرع) بن مهرج بن المحيا . وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة . واسم الأخرىٰ (عنيزة) بنت غنيم ابن مجلز ، وتكنىٰ أم غنمة وكانت عجوزاً كافرة ، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء ، فعرضت بناتها الأربع علىٰ قدار بن سالف ، إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء ، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك ، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة . وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] ، وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها ، فأجابوهم إلىٰ ذلك وطاوعوهم في ذلك . فانطلقوا يرصدون الناقة ، فلما صدرت من وردها كمن لها (مصرع) فرماها

بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النسوة يذمرن[1] القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم في ذلك فأسرع مصرع وقدار وبعض السفهاء من القوم إلىٰ الناقة للإجهاز عليها فكان أسرعهم قدار بن سالف ، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلىٰ الأرض . ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ، ثم طعنها في لبتها فنحرها ، وانطلق سَقْبُها ـ وهو فصيلها ـ فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً .

ورویٰ عبد الرزاق ، عن معمر ، عمن سمع الحسن أنه قال : يا رب . أين أمي ؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها . ويقال : بل اتبعوه فعقروه أيضاً .

قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٢٩ ـ ٣٠] وقال الله تعالى : ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢ ـ ١٣] أي احذروها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس : ١٤ ـ ١٥] .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا هشام ـ أو عروة ـ عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : « إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه ، مثل أبي زمعة » .

أخرجاه من حديث هشام به . عارم : أي شهم . عزيز : أي رئيس . منيع : أي مطاع في قومه[2] .

عن عمار بن ياسر ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « ألا أحدثك بأشقىٰ الناس » قال : بلى . قال : « رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي علىٰ هذا ـ يعني قرنه ـ حتىٰ تبتل منه هذه ـ يعني لحيته » .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا

---

(١) يذمرن : أي يحضضن ويشجعن .

(٢) البخاري (٦/١٩٥) تفسير سورة الشمس ، ووضوء ٦٩ وصلاة ١٠٩ ، ومسلم جنة ٤٩ ، والنسائي طهارة ١٩١ ، ومسند أحمد (١٧/٤) .

إن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه :

منها : أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها : أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين : أحدهما الشرط عليهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] وفي آية ﴿ عَظِيمٌ ﴾ [الشعراء : ١٥٦] وفي الأخرى : ﴿ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] والكل حق . والثاني استعجالهم على ذلك .

ومنها : أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه ، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم . قال الله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] .

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف ، لعنه الله ، فعرقبها فسقطت إلى الأرض ، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها ـ وهو ولدها ـ شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ، ورغا ثلاث مرات .

فلهذا قال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أي غير يومهم ذلك ، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد ، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا ـ فيما يزعمون ـ أن يلحقوه بالناقة . ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [النمل : ٤٩] أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ، ولهذا قالوا : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٥٠ ـ ٥٣] .

وذلك أن الله تعالىٰ أرسل علىٰ أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكتهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النظرة ـ ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام . فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضىٰ يوم من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضىٰ يومان من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ـ ووجوههم مسودة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضىٰ الأجل .

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ، لا يدرون كيف يفعل بهم ، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب .

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها ، قالوا : ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها « كلبة » بنت السلق ـ ويقال لها الذريعة ـ وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسرع كأسرع شيء ، فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت .

قال الله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٨] أي نادىٰ عليهم لسان القدر بهذا .

عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « هو أبو رغال ، فلما خرج من

الحرم أصابه ما أصاب قومه »[١] .

وهذا الحديث علىٰ شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة : والله تعالىٰ أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً : قال معمر : أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال ، فقال : « أتدرون من هذا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا قبر أبي رغال ، رجل من ثمود ، كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ها هنا ، ودفن معه غصن من ذهب » . فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن .

قال عبد الرزاق : قال معمر : قال الزهري : أبو رغال أبو ثقيف .

هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن أمية ، عن بجير بن أبي بجير ، قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلىٰ الطائف ، فمررنا بقبر ، فقال : « إن هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه » فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن .

وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به[٢] .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله : هذا حديث . حسن عزيز .

قلت : تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ، ولا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولم يرو عنه سوىٰ إسماعيل بن أمية . قال شيخنا : فيحتمل أنه وهم في رفعه ، وإنما يكون

---

(١) مسند الإمام أحمد

(٢) يقال : إن أبا رغال هو الرجل الذي بعثه أهل الطائف مع أبرهة الحبشي ليدله علىٰ طريق مكة لهدم الكعبة ، فمات أبو رغال هذا في موضع يقال له المغمس بمنىٰ ودفن فيه وهو صاحب القبر الذي يرجمه الحجاج إلىٰ يومنا هذا . . . والله أعلم .

من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه[1] . والله أعلم .

قلت : لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] إخبار عن صالح عليه السلام ، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي : جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني ، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، المستمر بكم المتصل إلى الأبد ، وليس لي فيكم حيلة ، ولا لي بالدفع عنكم يدان . والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته ، وبذلته لكم ، ولكن الله يفعل ما يريد .

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال : وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » . وقال لهم فيما قال : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » .

فقال له عمر : يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون »[2] .

ويقال أن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

عن ابن عباس قال : لما مرّ النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال : « يا أبا

---

(١) الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها . وقد غنم عبد الله بن عمرو بعض كتب اليهود ـ حمل زاملتين ـ فكان يحدث منهما .

(٢) البخاري جنائز ٨٦ ، مغازي (٨) ، ومسلم جيفة ٧٦ ـ ٧٧ ، والنسائي جنائز ١١٧ ومسند أحمد (١٣١/٢) .

بكر . . . أي وادٍ هذا » ؟ قال : وادي عسفان . قال : « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام علىٰ بكرات خطمها الليف . أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق »(١) .

إسناد حسن . وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم .

مرور النبي ﷺ بوادي الحجر

عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس علىٰ تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقىٰ الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتىٰ نزل بهم علىٰ البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا علىٰ القوم الذين عذبوا فقال : « إني أخشىٰ أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »(٢) .

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

أخرجاه في الصحيحين من غير وجه .

وفي بعض الروايات : أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنّع رأسه وأسرع راحلته ، ونهىٰ عن دخول منازلهم إلا أن يكونوا باكين . صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودي ، عن إسماعيل ابن أوسط ، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه ـ واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد ـ رضي الله عنه قال : لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلىٰ أهل

(١) مسند الإمام أحمد .
(٢) مسند الإمام أحمد .

الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادىٰ في الناس : « الصلاة جامعة » .

قال : فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : « ما تدخلون علىٰ قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل : نعجب منهم يا رسول الله ! قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » .

إسناد حسن ولم يخرجوه[1] .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال .

وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية ، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة ، أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها ، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك ، وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب[2] فبعثوا القوابل في البلد متىٰ وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه ، فكانوا علىٰ ذلك دهراً طويلاً ، وانقرض جيل وأتىٰ جيل آخر فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم علىٰ ابنه بنت آخر مثله في الرئاسة فزوجه ، فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف ، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم ، فنشأ نشأة سريعة ، فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر حتىٰ كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم ، رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه علىٰ ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح

---

(١) ابن ماجه المقدمة ، باب الفتن ، وأحمد في المسند (١/ ١٤) .

(٢) الصهوبة : احمرار شعر الرأس ، وقد ذكر الشاعر زهير بن أبي سلمىٰ قدار بن سالف في معلقته المعروفة فقال :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

عليه السلام : فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة ، وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام ، جاءهم باكياً عليها ، فتلقوه يعتذرون إليه ، ويقولون : إن هذا لم يقع عن ملأ منا . وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال : أنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك ، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع ، فلا يناله الطير ، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحاً عليه السلام ورغا ثلاثاً ، فعندها قال صالح : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ، ثم تحمر وجوههم في الثاني ، وفي اليوم الثالث تسود وجوههم . فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة ، فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين .

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راغو « ٢٣٩ » بن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » ابن سام « ٦٠٠ » بن نوح عليه السلام .

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته .

وحكى الحافظ بن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب « المبتدأ » ، أن اسم أم إبراهيم « أميلة » . ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي : اسمها « بونا » بنت كربتا بن كرثى ، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم عليه السلام يكنى « أبا الضيفان » .

قالوا : ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام ، و« ناحور » و « هاران » وولد لهاران « لوط » .

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في

أرضه التي ولد فيها ، وهي أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل .

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والأخبار . وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر ، بعد ما روىٰ من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق ، في قرية يقال لها برزة ، في جبل يقال له « قاسيون » ، ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلىٰ فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام .

قالوا : فتزوج إبراهيم « سارة » .

قالوا : وكانت سارة عاقراً لا تلد .

قالوا : وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلىٰ أرض الكنعانيين ، فنزلوا حران فمات بها تارخ وله مئتان وخمسون سنة . وهذا يدل علىٰ أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها .

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً . وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا علىٰ هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال . ولهذا كان علىٰ كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين .

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان علىٰ وجه الأرض كانوا كفاراً ، سوىٰ إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليه السلام .

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالىٰ آتاه رشده في صغره ، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره ، قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] أي كان أهلاً لذلك . وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ
يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ ـ ٢٧] .

ثم ذكر تعالىٰ مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له .

كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ
تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ
كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى
شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ ـ ٤٨] .

فذكر تعالىٰ ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة ، وكيف دعا أباه إلىٰ الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة ، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي

لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه ، فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟ ثم قال له منبهاً علىٰ ما أعطاه الله من الهدىٰ والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣] أي مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلىٰ الخير في دنياك وأخراك .

فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدىٰ هذه النصيحة إليه ، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾[مريم : ٤٦] قيل بالمقال وقيل بالفعال ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أي واقطعني وأطل هجراني .

فعندها قال له إبراهيم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم : ٤٧] أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي . وزاده خيراً فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[مريم : ٤٧] قال ابن عباس وغيره : أي لطيفاً ، يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له . ولهذا قال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[مريم : ٤٨] .

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٤].

وقال البخاري : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثني أخي عبد الحميد ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد ؟ ؟ ! ! . . فيقول الله : إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين .

ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك . . ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار » . هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً .

وقال في التفسير : وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبيه عن أبي هريرة[1] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] . هذا يدل علىٰ أن اسم أبي إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب ، منهم ابن عباس ، علىٰ أن اسم أبيه « تارح » وأهل الكتاب يقولون « تارخ » بالخاء المعجمة ، فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر .

وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمين علمين ، أو أحدهما لقب والآخر علم .

وهذا الذي قاله محتمل . . . والله أعلم[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٧٥ ـ ٨٣] .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة

---

(١) البخاري (٥/ ٢٠٢) كتاب التفسير .

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٥٩) وقيل : آزر عم إبراهيم عليه السلام ، وإنما جاء التعبير بقوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ جرياً علىٰ عادة العرب أنهم ينزلون العم بمنزلة الأب .

مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارةً وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالىٰ لا يغيب عنه شيء ولا تخفىٰ عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك ، قيل هو الزهرة ، ثم ترقىٰ منها إلىٰ القمر الذي هو أضوأ منها وأبهىٰ من حسنها ، ثم ترقىٰ إلىٰ الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧].

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام : ٧٨] أي طالعة ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام : ٧٨ ـ ٨٠] أي لست أبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ، فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران ، فإنهم كانوا يعبدونها . وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وهو مستند إلىٰ أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ، ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ
ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا
فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ
أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى
هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾
فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

يخبر الله تعالىٰ عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر علىٰ قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها ، فقال : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾

[الأنبياء : ٥٢] أي معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا : ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء : ٥٤] كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ٨٥ ـ ٨٧] . قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ .

وقال لهم : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢ ـ ٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما الحامل لهم علىٰ عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال . ولهذا قال لهم : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧] .

وهذا برهان قاطع علىٰ بطلان ألوهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرت فيه .

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٥] ؟ ويقولون : هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه في آبائنا أتقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ؟ .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٦] يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شيء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما علىٰ غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا علىٰ ذلكم من الشاهدين .

وقوله : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولّوا مدبرين إلىٰ عيدهم .

قيل : إنه قال هذا خفية في نفسه . وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم .

وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم . كما قال تعالى :﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات : ٨٨ ـ ٨٩] .عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة .

فلما خرجوا إلى عيدهم ، واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات : ٩١]أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات : ٩١ ـ ٩٣]لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر ، فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى :﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء : ٥٨] .أي حطاماً ، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ . قيل : إنه وضع القدوم في يد الكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار !

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥٩] .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حل بألهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم:﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء : ٦٠] أي يذكرها بالعيب والتنقيص لها والإزدراء بها ، فهو المقيم عليها والكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود، أي يذكرهم بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء : ٥٧] . ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء : ٦١] أي في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه .

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على

جميع عباد الأصنام الحجة علىٰ بطلان ما هم عليه ، كما قال موسىٰ عليه السلام لفرعون : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] .

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٢ ـ ٦٣] قيل معناه : هو الحامل لي علىٰ تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ .

وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلىٰ القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات .

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٤] أي فعادوا علىٰ أنفسهم بالملامة ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون . أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها .

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٥] قال السدي : أي ثم رجعوا إلىٰ الفتنة ، فعلىٰ هذا يكون قوله : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي في عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أي فأطرقوا ثم قالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٥] أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فيكف تأمرنا بسؤالها ؟ ! .

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٦٦] .

كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ [الصافات : ٩٤] قال مجاهد : يسرعون . قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥] أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] .

وسواء أكانت : « ما » مصدرية أو بمعنىٰ « الذي » فمقتضىٰ الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولىٰ من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له .

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .
[الصافات : ٩٧ ـ ٩٨] .

عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٠] .

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى حوية عظيمة (١) ، فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت ، والتهبت وعلا لها شررٌ لم ير مثله قط .

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق (٢) صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك .

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ، ثم ألقوه منه إلى النار ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٣-١٧٤]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « لما ألقي إبراهيم في النار قال :

---

(١) الحوية : الأرض الصلبة الملساء ، يحاط عليها بالحجارة أو التراب فيجتمع فيها الماء.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت تلقى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال أمّا إليك فلا .

ويروىء عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول متى أومرُ فأرسل المطر ؟ فكان أمر الله أسرع : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . قال علي بن أبي طالب : أي لا تضرُّ به .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال ﴿ وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لآذى إبراهيم بردها .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم تحرق منه سوى وثاقه .

وقال الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه ولم يصبه منها شيء غيره .

وقال السدي : كان معه أيضاً ملكُ الظل . وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الجوبّة حوله النار ، وهو في روضة خضراء ، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول ، ولا هو يخرج إليهم .

فعن أبي هريرة أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم ؛ إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم !

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته . يا بني إني أريد أن أجيءَ إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك . فقال : نعم ، فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار . فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً ، وأنه قال : ما كنت أياماً ولياليَ أطيب عيشاً إذ كنت فيها . ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها . صلوات الله وسلامه عليه .

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فخسروا . قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠] وفي الآية الأخرى : ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال ، هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً وسلاماً ، ولا يلقون فيها تحية وسلاماً ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] .

عن أم شريك ، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[١] ، وقال : « كان ينفخ النار علىٰ إبراهيم »[٢] .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية ، أن نافعاً مولىٰ ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار علىٰ إبراهيم » قال : فكانت عائشة تقتلهن[٣] .

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع ، أن امرأة دخلت علىٰ عائشة فإذا رمح منصوب فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ . فإنه جعل ينفخها عليه »[٤] .

تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثتني سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة ، قالت : دخلت علىٰ عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً ، فقلت : يا أم المؤمنين . . . ما تصنعين بهذا الرمح ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به ، فإن رسول الله ﷺ حدثنا : « إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في

---

(١) الوزغ : سام أبرص ـ يطلق علىٰ الذكر والأنثى ـ أو الوزغة : الأنثى ، والوزغ : الذكر .
(٢) البخاري أنبياء (٨) وأحمد في المسند (٦/ ٢٨٠) .
(٣) المسند (٦/ ٢٨٠)
(٤) المسند (٦/ ٣١٧)

الأرض دابة إلا تطفىء عنه النار ، غير الوزغ كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله »[1] .

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

يذكر الله تعالىٰ مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعىٰ لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح . قاله مجاهد . وقال غيره : نمرود ابن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان . والكافران : النمرود ، وبختنصر .

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمئة سنة ، وكان طغىٰ وبغى ، وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا .

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، حمله الجهل والضلال وطول الأمل علىٰ إنكار الصانع ، فحاجّ إبراهيم الخليل في ذلك ، وادعىٰ لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ .

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أُتي بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر .

---

(١) المسند (٦/ ٨٣ـ ١٠٩) .

وهذا ليس بمعارضة للخليل ، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة ، بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع عن الحقيقة ، فإن الخليل استدل علىٰ وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها ، علىٰ وجود فاعل ذلك الذي لابد من استنادها إلىٰ وجوده ، ضرورة عدم قيامها بنفسها . ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة ، من خلقها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ، ثم إماتتها . ولهذا قال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ .

فقول هذا الملك الجاهل : ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ إن عنىٰ أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند . وإن عنىٰ ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ، إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفىٰ علىٰ كثير من الناس ممن حضره وغيره ، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع ، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة .

﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم والناس جميعاً يعلمون أنك لا تقدر علىٰ شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها .

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به ، بل انقطع وسكت ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من

النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذٍ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روىٰ عبد الرزاق عن معمر ، عن زيد بن أسلم ، أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذٍ فكانت بينهما هذه المناظرة . ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطىٰ الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام .

فلما قرب من أهله عمد إلىٰ كثيب من التراب ، فملأ من عدليه وقال : أشغل أهلي إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إلىٰ العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً ، فعملت منه طعاماً ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال : أنىٰ لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل .

قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلىٰ ذلك الملك الجبار ، ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبىٰ عليه ، ثم دعاه الثانية فأبىٰ عليه ثم دعاه الثالثة فأبىٰ عليه وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعي .

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعمئة سنة ! عذبه الله تعالىٰ بها . فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها ، حتىٰ أهلكه الله عز وجل بها .

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٦ ـ ٢٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا

لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١ ـ ٧٣] .

ولما هجر قومه في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالىٰ بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء علىٰ نبي من الأنبياء بعده ، فعلىٰ أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر إلىٰ بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه .

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١] .

قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم .

وروىٰ العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ مكة ، ألم تسمع إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب : أنه خرج من بابل هو وأبوه وابن أخيه لوط ، وأخوه ناحور ، وامرأة إبراهيم سارة ، وامرأة أخيه « ملكا » فنزلوا حران ، فمات « تارخ » أبو إبراهيم بها .

وقال السدي : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام ، فلقي إبراهيم سارة ـ وهي ابنة ملك حران ـ وقد طعنت علىٰ قومها في دينهم ، فتزوجها علىٰ أن لا يغيرها .

رواه ابن جرير وهو غريب .

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران .

ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط ، كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش ، فقد أبعد النجعة وقال بلا علم .

ومن ادعىٰ أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له علىٰ ذلك دليل ، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت ـ كما هو منقول عن الربانيين من اليهود ـ فإن الأنبياء لا تتعاطاه . . . والله أعلم .

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم . . . والله أعلم .

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحىٰ الله إليه : « إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك » فابتنىٰ إبراهيم مذبحاً لله شكراً علىٰ هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً ، إلىٰ التيمن ، وأنه كان جوع ، أي قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلىٰ مصر .

وذكروا قصة سارة مع ملكها ، وأن إبراهيم قال لها : قولي أنا أخته . وذكروا إخدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلىٰ بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها ، ومعه دواب وعبيد وأموال .

روىٰ البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتان منها في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتىٰ علىٰ جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختي ، فأتىٰ سارة فقال : يا سارة ، ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان ، وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر .

فأتته وهو قائم يصلي[1] فأومأ بيده مهيم ؟ فقالت : رد الله كيد الكافر ـ أو

(١) أي إبراهيم عليه السلام .

الفاجر ـ في نحره ، وأخدمني هاجر .

قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء .

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله : قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً فأُتي الجبار فقيل له : إنه قد نزل ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال : إنها أختي . فلما رجع إليها قال : إن هذا سألني عنك فقلت : إنك أختي[2] ، وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك وإنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فانطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أُخِذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأرسل ، ثلاث مرات ، فدعا أدنىٰ حشمه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر .

فجاءت وإبراهيم قائم يصلي . فلما أحس بها انصرف ، فقال : مهيم ؟ فقال : كفىٰ الله كيد الظالم ، وأخدمني هاجر » .

وأخرجاه من حديث هشام . ثم قال البزار : لا يعلم إسناده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام . ورواه غيره موقوفاً[3] .

قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار :

---

(١) البخاري (٦/ ١١٧) كتاب النكاح و(٤/ ١٠٤) باب خلق آدم وذريته .

(٢) قاعدة شرعية : لا يجوز الاعتقاد بأن إبراهيم عليه السلام قد كذب لأن الأنبياء يستحيل عليهم الكذب قبل النبوة وبعدها ، لأن الأنبياء لا يكذبون بالمرة حتىٰ لا يقال لهم وما أدرانا أنكم تكذبون كما كذبتم يوم كذا مثلاً .

(٣) البخاري أنبياء (٨) ونكاح ١٢ ، ومسلم فضائل ١٥٤ ، وأبو داود طلاق ١٦ ، والترمذي تفسير سورة الأنبياء الحديث رقم (٣١٦٦) . =

من هذه معك ؟ قال : أختي ، قال : فأرسل بها ، قال : فأرسل بها إليه وقال : لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي وما علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك .

فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا علىٰ زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر . قال : فغط حتىٰ ركض برجله .

قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم إن يمت يقال هي قتلته ، قال : فأرسل .

قال : ثم قام إليها ، قال : فقامت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا علىٰ زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر . قال : فغط حتىٰ ركض برجله . قال أبو الزناد : وقال أبو سلمة عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم إن يمت يُقَلْ هي قتلته ، قال : فأرسل .

قال : فقال في الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً ، ارجعوها إلىٰ إبراهيم وأعطوها هاجر .

قال : فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين ! .

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو علىٰ شرط الصحيح[١] .

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان ، عن شعيب عن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ به مختصراً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قالها : « ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله » ، فقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقال للملك حين أراد امرأته : هي أختي .

فقوله في الحديث : « هي أختي » أي في دين الله . وقوله لها : « إنه ليس علىٰ

---

(١) المسند ٣ / ٤٠٣ .

وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك » يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ، ويتعين حمله علىٰ هذا لأن لوطاً كان معهم وهو نبي عليه السلام .

وقوله لها لما رجعت إليه : مهيم[1] ؟ معناه : ما الخبر . فقالت : إن الله رد كيد الكافرين . وفي رواية : الفاجر وهو الملك ، وأخدم جارية .

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلىٰ الملك ، قام يصلي لله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هي أيضاً . فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلىٰ وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة : ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلىٰ نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام . والذي عليه الجمهور أنهن صِدِّيقات رضي الله عنهن وأرضاهن .

ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها ، فما زال منذ خرجت من عنده إلىٰ أن رجعت إليه . وكان مشاهداً لها وهي عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حباً شديداً ، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلىٰ زمانها ، أحسن منها ، رضي الله عنها . . . ولله الحمد والمنة .

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً للضحاك الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملاً لأخيه علىٰ مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج ابن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح . وذكر ابن هشام في التيجان : أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ ، وكان علىٰ مصر . نقله السهيلي . . . والله أعلم .

---

(١) مهميم : كلمة استفهام ، أي ماحالك وما شأنك ، أو ماوراءك ؟ [المعجم الوسيط] .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلىٰ أرض التيمن ، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك ، إلىٰ أرض الغور ، المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم[1] وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان . وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً .

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ إبراهيم الخليل ، فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشّره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلىٰ آخر الدهر ، وسأكثر ذريتك حتىٰ يصيروا بعدد تراب الأرض .

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة ، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في غير هذه الأمة المحمدية .

ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله زوى[2] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتىٰ ما زُوي لي منها » .

قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا علىٰ لوط عليه السلام فأسروه ، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتىٰ وصل إلىٰ شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل . . . والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلىٰ بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرهين خاضعين ، واستقر ببلاده . صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) سدوم : مدينة قديمة في فلسطين علىٰ شاطىء البحر الميت . وهي قرية قوم لوط . . وجاء عن أهل الكتاب أن الله أمطرها مع مدينة عامورة قاراً قصاصاً علىٰ خطايا أهلها .

(٢) زوى : جمع .

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام

قال أهل الكتاب : وإن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة ، وأن الله بشره بذلك ، وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام : إن الرب قد حرمني الولد ، فادخل علىٰ أمتي هذه لعل الله يرزقك منها ولداً .

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه ، قالوا فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت علىٰ سيدتها ، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلىٰ إبراهيم فقال لها : افعلي ما شئت ، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل ، ويكون يده علىٰ الكل ، ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته .

فشكرت الله عز وجل علىٰ ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت علىٰ ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه الذي به سادت العرب ، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً ، وآتاها الله من العلم النافع ، والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وما ذاك إلا بشرف رسولها علىٰ سائر الرسل ، وبركة رسالته ويمن سفارته وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام .

قالوا : وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة .

ولما ولد إسماعيل أوحىٰ الله إلىٰ إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة ، فخر لله ساجداً ، وقال له : قد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً ، وأجعله رئيساً لشعب عظيم .

وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء

الراشدون الاثنا عشر ، المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « يكون اثنا عشر أميراً » . ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبي : ما قال ؟ قال : « كلهم من قريش »[1] .

أخرجاه في الصحيحين .

وفي رواية : « لا يزال هذا الأمر قائماً ـ وفي رواية : عزيزاً ـ حتىٰ يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » .

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً ، ومنهم بعض بني العباس . وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً بل لابد من وجودهم .

وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد بهم الرافضة ، الذين أوّلُهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامراء ـ وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون ـ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي ، حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية ، وأخمد نار الفتنة وسكن رحىٰ الحرب بين المسلمين ، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم علىٰ الأمة في أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسرداب سامراء ، فذاك هوس في الرؤوس ، وهذيان في النفوس ، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها فطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتىٰ وضعهما حيث مكة اليوم .

ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً .

فلما تركهما هناك وولّىٰ ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم . . . أين تذهب وتدعنا ها هنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : فإذاً لا يضيعنا ! .

---

(١) البخاري (٨/ ١١٩) كتاب الأحكام ، ومسلم (٢/ ٧٩) كتاب الإمارة .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكّة ، وبنائه البيت العتيق

ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً[١] فيه تمر ، وسقاء فيه ماء[٢] .

ثم قفل إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم . . . أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ؛ وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفِدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال : يتلبط ــ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها . ثم

---

(١) الجِراب بكسر الجيم: وعاء من جلد الشاء يحفظ فيه التمر وغيره كالجعبة .

(٢) البخاري أنبياء ٩ ، ومسند أحمد (١/٣٤٧).

تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث . فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ـ حتىٰ ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً » قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوهُ ، وإن الله لا يضيع أهله[1] .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتىٰ مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور علىٰ ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جَرِياً[2] أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم .

قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفىٰ ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلىٰ أهليهم فنزلوا معهم حتىٰ كان بها أهل أبيات منهم » .

وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال : فإذا

---

(١) البخاري (٣/ ٧٣) كتاب المساقاة .
(٢) الجريّ : الرسول .

جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك . قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل علىٰ امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت علىٰ الله عز وجل . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : « اللهم بارك لهم في اللحم والماء » .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذٍ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » .

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل . . . إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً . وأشار إلىٰ أكمة مرتفعة علىٰ ما حولها .

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتىٰ إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

قال : فجعلا يبنيان حتىٰ يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ثم قال : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن كثير بن كثير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ، ومعهم شنة[(١)] فيها ماء ، وذكر تمامه بنحو ما تقدم .

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه ، وفي بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات ، وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك .

وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله أن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم ، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذٍ ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله ، فيدل علىٰ أنه فعله علىٰ وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب علىٰ الرجال ، كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة ابن عبد الرحمن القرشي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم »[(٢)] .

وفي بعض الألفاظ : « اختتن إبراهيم بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم والقدوم هو الآلة » .

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة علىٰ الثمانين . . . والله أعلم ، لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اختتن إبراهيم وهو ابن مئة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » .

رواه ابن حبان في صحيحه .

---

(١) الشنة : القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها .

(٢) البخاري (٤/١٠٣) كتاب خلق آدم .

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل ، ولم يذكر في عودة إبراهيم عليه السلام إلىٰ مكَّة إلا بذكر ثلاث مرات : أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد ـ علىٰ ما ذكر ـ إلىٰ حين تزويجه لا ينظر في حالهم ، وقد ذكر أن الأرض كانت تُطوىٰ له ، وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة ؟ ! .

وكأن بعض هذا السياق متلقىٰ من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح ، وقد دللنا علىٰ أن الذبيح هو إسماعيل علىٰ الصحيح في سورة الصافات .

قصة الذبيح

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٩٩ ـ ١١٣] .

يذكر الله تعالىٰ عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله بغلام حليم ، وهو إسماعيل عليه السلام ، لأنه أول من ولد له علىٰ رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أولاً ولده وبكره .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] أي شب وصار يسعىٰ في مصالحه كأبيه . قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل .

فلما كان هذا ، رأىٰ إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ،

وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : « رؤيا الأنبياء وحي » قاله عبيد بن عمير أيضاً .

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه علىٰ كبر ، وقد طعن في السن ، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر ، ووادٍ ليس به حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثل أمر الله في ذلك ، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه ، وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره ، وسارع إلىٰ طاعته .

ثم عرض ذلك علىٰ ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً : ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] . وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ قيل : « أسلما » : أي استسلما لأمر الله وعزم علىٰ ذلك . وقيل : وهذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى : « تله للجبين » أي ألقاه علىٰ وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لا صقاً بالأرض « وأسلما » أي سمَّىٰ إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت . قال السدي وغيره : أمر السكين علىٰ حلقه فلم تقطع شيئاً . ويقال : جُعِل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس ، والله أعلم .

فعند ذلك نودي من الله عز وجل : ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ [الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٥] أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ، ومبادرتك إلىٰ أمر ربك ، وبذلت ولدك للقربان ، كما سمحت ببدنك للنيران . وكما مالك مبذول للضيفان ! ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] أي الاختبار الظاهر البين .

وقوله : ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠٧] أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالىٰ له من العوض عنه .

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن[١] ، رآه مربوطاً بسَمُرة في ثبير .

وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجنة حتىٰ تشقق عنه ثبير . وكان عليه عهن[٢] أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه .

رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى ، وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام .

فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً ، وعن الحسن أن كان تيساً من الأروىٰ واسمه جرير ، فلا يكاد يصح عنهما .

ثم غالب ما ها هنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرىٰ من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله نافع ، عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلىٰ عثمان بن طلحة ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما[٣] فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي »[٤] .

قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتىٰ احترق البيت فاحترقا .

---

(١) أي عظيم سواد العينين ، وكبير القرنين .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ ألواناً ، والقطعة منه : عهنة ، والجمع : عهون .

(٣) خمر الشيء : ستره وواراه .

(٤) مسند أحمد (٤/ ٦٨) و(٥/ ٣٨٠) وأبو داود مناسك ٩٣ .

وكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل عند ميزاب الكعبة قد يبس .

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أن قدمها في حال صغره . . . والله أعلم .

وهذا هو الظاهر في القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل ، لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده :﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢]ومن جعله حالاً فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات . وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ها هنا قطعاً لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة من المعربة : بكره إسحاق ، فلفظة إسحاق ها هنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بُهْت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل .

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١]قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟

هذا لا يكون ، لأنه يناقض البشارة المتقدمة . . . والله أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ جملة تامة ، وقوله : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة . قال : لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن

يعاد معه حرف الجر ، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتىٰ يقال ومن بعده بعمرو ، وقال : فقوله : ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧١] منصوب بفعل مضمر تقديره : ووهبنا لإسحاق يعقوب .

وفي هذا الذي قاله نظر .

ورجح أنه إسحاق ، واحتج بقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] قال : وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي ؟ .

وهذا أيضاً فيه نظر ، لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلىٰ مكة ، يطلع علىٰ ولده وابنه ثم يرجع . . . والله تعالىٰ أعلم .

ولكن الصحيح عنه ـ وعن أكثر هؤلاء ـ أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس أنه قال : المفدي إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم : سألت أبا حاتم عن الذبيح فقال : الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام .

وروىٰ عن علي وابن عمر وأبي هريرة ، وأبي الطفيل ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي صالح أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء .

قلت : وروي عن معاوية ، وجاء عنه : أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا بن الذبيحين . . . فضحك رسول الله ﷺ .

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي ، عن محمد بن

كعب : أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني استدلاله بقوله بعد القصة : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ - فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت . ثم أرسل إلىٰ رجل كان عنده بالشام ، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرىٰ أنه من علمائهم ، قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب علىٰ أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق ، لأن إسحاق أبوهم .

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير . . . ولله الحمد والمنة .

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ - ١١٣] .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلىٰ مدائن قوم لوط ، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم . كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

[هود : ٦٩ - ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ

﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[الحجر : ٥١ ـ ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

[الذاريات : ٢٤ ـ ٣٠] .

يذكر تعالى : أن الملائكة ـ قالوا : كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ لما وردوا علىٰ الخليل حسبهم أولاً أضيافاً ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوىٰ لهم عجلاً سميناً من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلىٰ الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلىٰ الطعام فنكرهم إبراهيم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾[هود : ٧٠] أي لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم . وكانت قائمة علىٰ رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشاراً بذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود : ٧١] أي بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أي في صرخة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] أي كما يفعل النساء عند التعجب وقالت : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾[هود : ٧٢] أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلي ، أي زوجي ، شيخاً ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه .

ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[هود : ٧٢ ـ ٧٣] .

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾[الحجر : ٥٤ ـ ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣] وهو إسحاق ، وأخوه إسماعيل غلام

حليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال في الآية الآخرى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره علىٰ أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ ، وهو المشوي . رغيفاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا ، وهذا غلط محض ، وقيل : كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشىٰ في الهواء .

وعندهم أن الله تعالىٰ قال لإبراهيم : أما سارا امرأتك فلا يدعىٰ اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً ، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه ، فخر إبراهيم علىٰ وجهه - يعني ساجداً - وضحك قائلاً في نفسه : أبعد مئة سنة يولد لي غلام ؟ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة ؟ ! .

وقال إبراهيم لله تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم : بحق أن امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحاق إلىٰ مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقي إلىٰ الدهر ولخلفه من بعده ، وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم .

وقد تكلمنا علىٰ هذا بما تقدم . . . والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] دليل علىٰ أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده بولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولما عين بالذكر دل علىٰ أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله . قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ ﴾ [مريم : ٤٩] .

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي ، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان ابن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله . . . أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد » .

وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا ببيت المقدس شرفه الله . فعلىٰ هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء ، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق لأن إبراهيم عليه السلام لما عاد قال في دعائه : كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ ـ ٤١] .

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنىٰ بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص : ٣٥] ، وكما سنورده في قصته ـ فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوىٰ ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

فائدة : أول من بنىٰ الكعبة آدم عليه السلام ، ثم أعاد إبراهيم عليه السلام بناءها بسبب تهدمها في الطوفان زمن نوح .

بناء البيت العتيق

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[الحج : ٢٦ ـ ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٤ ـ ١٢٩] .

يذكر الله تعالىٰ عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بنىٰ البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه ، وبوأه الله مكانه ، أي أرشده إليه ودله عليه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره : أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل . وقد ذكرنا في صفة خلق السموات : أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، بحيث إنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع ، كما قال بعض السلف : إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض .

فأمر الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك

المعابد لملائكة السموات ، وأرشده الله إلىٰ مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت في الصحيحين :

« إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة »[1] .

ولم يجىء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك في هذا بقوله : ﴿ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ، المقرر في قدره ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلىٰ زمان إبراهيم .

وقد ذكر أن آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به .

وقد قال الله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى ، البيت الذي ببكة . وقيل محل الكعبة ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

ولهذا قال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ، ليرتفع عليه لما تعالىٰ البناء وعظم الفناء . كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة علىٰ ما كان عليه من قديم الزمان إلىٰ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخره عن البيت قليلاً ، لئلا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا ، فإنه قد وافقه ربه في أشياء ، منها قوله لرسوله ﷺ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلىٰ أول الإسلام . وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

---

(١) البخاري(٤/ ٦٩) باب الجزية ومسلم(١/ ٣٨٣) كتاب الحج .

وثورٍ ومنْ أرسى ثَبيراً مكانَهُ ... وراقَ ليُرقى في حِراء ونازِل[1]

وبالبيتِ حقّ البيت من بطنِ مكة ... وبالله إنّ الله ليس بغافِل

وبالحَجرِ المسودّ إذ يمسّحونه ... إذِ اكتنفوهُ بالضّحى والأصائل

وموطئ إبراهيمَ في الصّخر رطبة ... على قدميه حَافياً غيرَ ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت ، على قدر قدمه حافية لا منتعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة : ١٢٧] أي في حال قولهما : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله عز وجل السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع ، ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرماً محرماً ، وأمناً محتماً .

فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ، ولبّى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت : ٦٧] وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص : ٥٧] .

وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم ، أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة ، لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والآخرة .

وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً ، وأي رسول ختم به أنبياءه ورسله ،

---

(١) ثور : جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن الكريم . وثبير : جبل أيضاً . والبر العيان.

وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض علىٰ اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلىٰ يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه في نفسه وكمال ما أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته ، وكمال شفقته علىٰ أمته ، ولطفه ورحمته ، وكريم محتده[1] وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده .

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض . أن يكون منصبه ومحله وموضعه ، في منازل السموات ورفيع الدرجات ، عند البيت المعمور ، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور ، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلىٰ يوم البعث والنشور .

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بنائه للبيت ، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية ، فمن أراد فليراجعه ثم . . . ولله الحمد .

فمن ذلك ما قال السدي : لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه ، حتىٰ بعث الله ريحاً يقال له « الخجوج » ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتىٰ وضعا الأساس . وذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾[2] [الحج : ٢٦] .

فلما بلغا القواعد وبنيا الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل : يا بني . . . اطلب لي حجراً حسناً أضعه ها هنا ، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة[3] . وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبت . . . من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك . فبنيا وهما يدعوان الله : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

---

(١) محتده : أصله .

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٧٧) .

(٣) الثغامة : شجرة بيضاء الثمر والزهر ، تنبت في قمة الجبل ، وإذا يبست اشتد بياضها ، والجمع : ثغام .

وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل ، وأن ذا القرنين ـ وكان ملك الأرض إذ ذاك ـ مر بهما وهما يبنيانه فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم : الله أمرنا به . فقال : وما يدريني بما تقول ؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقي : أنه طاف مع الخليل بالبيت .

وقد كانت الكعبة علىٰ بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش . فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام علىٰ ما هي عليه اليوم .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم : أن عبد الله ابن محمد بن أبي بكر أخبر عن ابن عمر ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم » ؟ فقلت : يا رسول الله . . . ألا تردها علىٰ قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » . وفي رواية : « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر »[(١)] .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه علىٰ ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة ، أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلىٰ ما كانت عليه ، فنقصوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية ، كما هو مشاهد إلىٰ اليوم .

ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا علىٰ ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولىٰ من ذلك .

---

(١) البخاري حج ٤٢ وأنبياء ٢١٠ ، ومسلم حج ٤٠٣ ، وأبو داود ومناسك ٩٢ ، والترمذي حج ٤٨ ، والنسائي مناسك ١٢٥ و١٢٩ ، والموطأ حج ١٠٤ ، وأحمد المسند (٦/ ١١٣ و١١٧ و٢٤٧) .

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها علىٰ الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له : إني أخشىٰ أن يتخذها الملوك لعبة . يعني كلما جاء ملك بناها علىٰ الصفة التي يريد . فاستقر الأمر علىٰ ما هي عليه اليوم .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤]لما وفىٰ ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة ، جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه . وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه ، وباقية في نسبه ، وخالدة في عقبه فأجيب إلىٰ ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمام ، واستثني من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون . كما قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧] .

فالضمير في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ عائد علىٰ إبراهيم علىٰ المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليباً ، وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير عائد علىٰ نوح كما قدمنا في قصته . . . والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد : ٢٦] الآية . فكل كتاب أنزل من السماء علىٰ نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل ، فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ، ومرتبة علية لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ، وولد له يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم

واختصهم بالرسالة والنبوة ، حتىٰ ختموا بعيسىٰ بن مريم من بني إسرائيل .

وأما إسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب علىٰ اختلاف قبائلهم ، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى . ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوىٰ خاتمهم علىٰ الإطلاق وسيدهم ، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه .

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوىٰ هذه الجوهرة الباهرة ، والدرة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة .

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إليَّ الخلق كلهم حتىٰ إبراهيم » .

فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ، ودل كلامه علىٰ أنه أفضل الخلائق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »[1] .

ورواه أهل السنن من حديث منصور به .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير وقررناها بأتم تقرير .

والحاصل : أن الله عز وجل أجابه إلىٰ ما سأل ، فأمره أن يعمد إلىٰ أربعة من الطيور . واختلفوا في تعيينها علىٰ أقوال ، والمقصود حاصل علىٰ كل تقدير ، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ويجعل علىٰ كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أمر به . ثم أمر أن يدعوَهن بإذن ربهن ،

فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلىٰ صاحبه ، وكل ريشة تأتي إلىٰ أختها ، حتىٰ اجتمع بدن كل طائر علىٰ ما كان عليه . وهو ينظر إلىٰ قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون ، فأتين إليه سعياً ، ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً .

ويقال إنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده ، فجعل كل طائر يأتي فيلقاه رأسه فيتركب علىٰ جثته كما كان . . . فلا إله إلا الله .

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ علماً يقينياً لا يحتمل النقيض . ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقىٰ من علم اليقين إلىٰ عين اليقين ! فأجابه الله علىٰ سؤاله وأعطاه غاية مأموله .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٥ ـ ٦٨] .

ينكر تعالىٰ علىٰ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ في دعوىٰ كل من الفريقين ، كون الخليل علىٰ ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ [آل عمران : ٦٥] أي فكيف يكون علىٰ دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

فبين أنه كان علىٰ دين الله الحنيف ، وهو القصد إلىٰ الإخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل إلىٰ الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي

قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٤١] .

فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران: ٦٨] يعني الذين كانوا علىٰ ملته من أتباعه في زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ يعني محمداً ﷺ ، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل ، وكمله الله تعالىٰ له ، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً من قبله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣] .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣] .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأىٰ الصُّوَر في البيت لم يدخل حتىٰ أمر بها فمحيت . ورأىٰ إبراهيم وإسماعيل وبأيديهما الأزلام فقال : « قاتلهم الله . . . والله ما استقسما بالأزلام قط »(١) .

لم يخرجه مسلم .

وفي بعض ألفاظ البخاري : « قاتلهم الله . . . لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط » .

وقوله : ﴿ أُمَّةً ﴾ أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلىٰ الخير ، يُقتدىٰ به فيه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي مخلصاً علىٰ بصيرة ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿ ٱجْتَبَٰهُ ﴾ أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته . واتخذه خليلاً ، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] يرغب تعالىٰ في اتباع إبراهيم عليه السلام ، لأنه كان علىٰ الدين القويم والصراط المستقيم ، وقد قام بجميع ما أمره به ربه ، ومدحه تعالىٰ بذلك فقال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] ولهذا اتخذه الله خليلاً ، والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تخلّلْتَ مسلك الروح مني ... وبذا سمّي الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس . . . إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » .

وقال أيضاً في أخر خطبة خطبها : « أيها الناس . . . لو كنت متخذاً من أهل

---

(١) البخاري (٥/ ٨٧) كتاب المغازي وأحمد المسند (١/ ٣٦٥) .

الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

أخرجاه من حديث أبي سعيد[١] .

وروىٰ البخاري في صحيحه ، عن عمرو بن ميمون ، قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلىٰ بهم الصبح فقرأ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتىٰ إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجباً . . . إن الله اتخذ من خلقه خليلاً ! فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسىٰ تكليماً ، وقال آخر : فعيسىٰ روح الله وكلمته . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم . . . إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسىٰ كليمه وهو كذلك ، وعيسىٰ روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وإني حبيب الله ولا فخر ، ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأولين والأخرين يوم القيامة ولا فخر » .

عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم ؟ والكلام لموسى ؟ والرؤية لمحمد ؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٢] .

عن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقىٰ في قلبه الوجل حتىٰ إن خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء .

وقال عبيد بن عمير : كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجع إلىٰ داره فوجد فيها رجلاً قائماً ، فقال : يا عبد الله . . . ما أدخلك داري بغير إذني ؟ قال : دخلتها بإذن ربها .

---

(١) البخاري صلاة ٨٢ وفرائض ٩ وفضائل الصحابة ٣ و٥ ، ومسلم (١٠٨/٧) ، وابن ماجه ١١ ، ومسند أحمد (١٨/٣) و(٤/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه .

قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، أرسلني ربي إلىٰ عبد من عباده ، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً . قال : من هو ؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصىٰ البلاد لآتينه ، ثم لا أبرح له جاراً ، حتىٰ يفرق بيننا الموت . قال : ذلك العبد أنت . قال : أنا ؟ ! قال : نعم . قال : فبم اتخذني ربي خليلاً ؟ قال : بأنك تعطي الناس ولا تسألهم .

رواه ابن أبي حاتم .

وقد ذكره الله تعالىٰ في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له ، فقيل : إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر في البقرة وحدها .

وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص علىٰ أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] وقوله : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ .

وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . وما وقع في حديث شريك بن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء ، من أن إبراهيم في السادسة وموسىٰ في السابعة ، فمما انتقد علىٰ شريك في هذا الحديث . والصحيح الأول .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن » .

تفرّد به أحمد .

ثم مما يدل علىٰ أن إبراهيم أفضل من موسىٰ الحديث الذي قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلّهم حتىٰ إبراهيم » .

الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ».

رواه مسلم ، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » الحديث بتمامه .

عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال « فعن معادن العرب تسألونني » ؟ قالوا : نعم قال : « فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ قال : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله » . تفرد به أحمد .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني مغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ : « يحشر الناس عراة غُرْلاً ، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس به .

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون .

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان ـ هو الثوري ـ عن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : يا خير البرية . فقال : « ذاك إبراهيم » فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس ، وعلي بن مشهر ومحمد بن فضيل ، أربعتهم عن المختار بن فلفل .

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال : « لا تفضلوني علىٰ الأنبياء » وقال : « لا تفضلوني علىٰ موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسىٰ باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » ؟ .

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة . وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتىٰ إبراهيم » .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . أمر المصلي أن يقول في تشهده ، ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال : قلنا : يا رسول الله . . . هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] قالوا : وفَّىٰ جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه ، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار .

قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن ابن طاوس عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفي الجسد :

تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم .

قلت : وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط »[(١)] .

عن عبد الله بن الزبير ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم[(٢)] ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ـ يعني الاستنجاء » .

وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام علىٰ الختان .

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة ، عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين ، وإزالة ما يشين ، من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح[(٣)] أو وسخ .

فهذا من جملة قوله تعالىٰ في حقه المدح العظيم : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[(٤)] .

ذكر قصره في الجنة

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصراً ـ أحسبه قال من لؤلؤة ـ ليس فيه فصم ولا وَهْيٌ أعدَّه الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلاً »[(٥)] .

ذكر صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عرض علي الأنبياء ، فإذا موسىٰ ضرب

---

(١) الجامع الصغير

(٢) البراجم: مفاصل الأصابع واحداتها : برجمة (بضم الباء والجيم) رواه مسلم وأصحاب السنن.

(٣) القلح : تغير الأسنان بصفرة وخضرة تعلوها .

(٤) تاريخ الطبري (١/ ١٩٧ ـ ٢٠١) طبعة البخاري الكبرى .

(٥) رواه البزار .

من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسىٰ بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية » .

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ[1] .

عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسىٰ ابن مريم وموسىٰ وإبراهيم ، فأما عيسىٰ فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسىٰ فآدم جسيم » قالوا له : فإبراهيم ؟ قال : « انظروا إلىٰ صاحبكم » يعني نفسه .

وقال البخاري : حدثنا بيان بن عمرو ، حدثنا النضْر ، أخبرنا ابن عون ، عن مجاهد ، أنه سمع ابن عباس ، وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر أو « ك . ف . ر » فقال : لم أسمعه ، ولكنه قال : قال ﷺ : « أما إبراهيم فانظروا إلىٰ صاحبكم ، وأما موسىٰ فجعد آدم علىٰ جمل أحمر مخطوم بخلبه[2] كأني أنظر إليه انحدر في الوادي » .

ذكر وفاة إبراهيم الخليل

ذكر ابن جرير في تاريخه : أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان ، وهو ـ فيما قال ـ الضحاك الملك المشهور ، الذي يقال إنه ملك ألف سنة ، وكان في غاية الغشم والظلم[3] .

وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا ، وذكروا أنه طلع نجم أخفىٰ ضوء الشمس والقمر ، فهال ذلك أهل ذلك الزمان ، وفزع النمرود ، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك علىٰ يديه ، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين ، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين ، فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار ، وشب شباباً باهراً ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، حتىٰ كان من أمره ما تقدم .

---

(١) مسلم باب الإيمان حديث رقم ، ٢٧١ وأحمد : في المسند٣٣٦) .

(٢) الخُلْب (بضم الخاء وتسكين اللام) : الحبل الرقيق الصلب من الليف .

(٣) تاريخ الطبري١/١٦٣ وهو قول عامة السلف .

وكان مولده « بالسوس » وقيل « ببابل » وقيل « بالسواد » من ناحية « كوثي »[1] - وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق فلما أهلك الله نمرود علىٰ يديه هاجر إلىٰ حران ، ثم إلىٰ أرض الشام ، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا . وولد له إسماعيل وإسحاق . وماتت سارة قبله بقرية « حبرون » التي في أرض كنعان ، ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب . فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ، ورثاها رحمها الله ، واشترىٰ من رجل من بني « حيث » يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمئة مثقال ، ودفن فيها سارة هنالك .

قالوا : ثم خطب إبراهيم علىٰ ابنه إسحاق فزوجه « رفقا » بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها علىٰ الإبل .

وقد روىٰ ابن عساكر عن غير واحد من السلف ، عن أحبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلىٰ إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة ، وكذا داود وسليمان . والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك .

قالوا : ثم مرض إبراهيم عليه السلام ، ومات عن مئة وخمس وسبعين ، وقيل : وتسعين سنة ، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي ، وتولىٰ دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد ورد ما يدل علىٰ أنه عاش مئتي سنة كما قاله ابن الكلبي .

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومئة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة »[2] .

وعن أبي هريرة قال : كان إبراهيم أو من تسرول ، وأول من فرق ، وأول من استحد ، وأول من اختتن بالقدوم ، وهو ابن عشرين ومئة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرىٰ الضيف ، وأول من شاب .

---

(١) موضع بالعراق .

(٢) ذكر الختان في : البخاري أنبياء ٨ استئذان ٥١ ، ومسلم فضائل ١٥١ ، وأحمد في المسند ٢/٣٢٢ ، ٤١٨ ، ٤٣٥ .

هكذا رواه موقوفاً ، وهو أشبه بالمرفوع ، خلافاً لابن حبان . . . والله أعلم .

وقال مالك عن يحيىٰ بن سعيد بن المسيب قال : كان إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص شاربه ، وأول الناس رأىٰ الشيب . فقال : يا رب . . . ما هذا ؟ فقال الله : « وقار » فقال : يا رب . . . زدني وقاراً .

وزاد غيرهما : وأول من قص شاربه ، وأول من استحد ، وأول من لبس السراويل .

فقبره وقبر ولده إسحاق وولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلدة حبرون ، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم . وهذا متلقىٰ بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلىٰ زماننا هذا ، أن قبره بالمربعة تحقيقاً . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم . فينبغي أن تراعىٰ تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها ، وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها ، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها .

وروىٰ ابن عساكر بسنده إلىٰ وهب بن منبه قال : وجد عند قبر إبراهيم الخليل علىٰ حجر كتابة خلقة :

ألهَىٰ جهولاً أملُه ... يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيلُه
وكيف يبقىٰ آخراً ... من مات عنه أولُه
والمرء لا يصحبه ... في القبر إلا عملُه

قصة لوط عليه السلام

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة : قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النقمة العميمة .

وذلك أن لوط بن هاران بن تارح ـ وهو آزر كما تقدم ـ ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل ، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا ، ويقال إن هاران هذا هو الذي

بنىٰ حران ، وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب . . . والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وبإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر ، وكانت أمَّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرىٰ مضافة إليها . ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ، وأردئهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين .

فدعاهم لوط إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وحده ، لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات ، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا علىٰ ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا علىٰ فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مثلة في العالمين . وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين .

ولهذا ذكر الله تعالىٰ قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين . فقال تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ

مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ
إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا
تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ
لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن
يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ
أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
بِبَعِيدٖ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الحجر : ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ
سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن
يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ
إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ
جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ
ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ
أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي
فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ
إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة النمل : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام

عليم : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقد تكلمنا علىٰ هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير .

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخر من القرآن ، تقدم ذكرها مع نوح وعاد وثمود .

والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله بهم ، مجموعاً من الآيات والآثار . . . وبالله المستعان .

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش ، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتىٰ ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا . بل استمروا علىٰ حالهم ، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم ، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم . وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم ـ إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج ! وما حملهم علىٰ مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج .

فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلتهم خالدين ، لكن بعدما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج .

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين من أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها .

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويأتون في ناديهم ـ وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم ـ المنكر من الأقوال والأفعال علىٰ اختلاف أصنافه . حتىٰ قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ، ولا يستحيون من مجالسيهم ، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل ، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ، ولا ندموا علىٰ ما سلف في الماضي ، ولا راموا في المستقبل تحويلاً ، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً .

وقالوا له فيما قالوا : ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم .

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم ، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره علىٰ القوم المفسدين .

فغار الله لغيرته وغضب لغضبته ، واستجاب لدعوته ، وأجابه إلىٰ طلبته وبعث رسله الكرام ، وملائكته العظام ، فمروا علىٰ الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم ، وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم : ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الذاريات : ٣١ ـ ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣١ ـ ٣٢] وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [هود : ٧٥ ـ ٧٦] .

أي أعرض عن هذا وتكلم غيره ، فإنه قد حتم أمرهم ، ووجب عذابهم

وتدميرهم وهلاكهم ، ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق : أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمئة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : فمئتا مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال ابن إسحاق : إلىٰ أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا : لا ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ الآية .

وعند أهل الكتاب أنه قال : « يا رب . . . أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً ؟ ! فقال الله : لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً ، ثم تنازل إلىٰ عشرة فقال الله تعالى : « لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم ـ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ أقبلوا حتىٰ أتوا أرض سدوم ، في صور شبان حسان ، اختباراً من الله تعالىٰ لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم . فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس ، فخشي إن لم يضيّفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ، ولكن رأىٰ من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها ، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : والله يا هؤلاء ما أعلم علىٰ وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشىٰ قليلاً ، ثم أعاد ذلك عليهم حتىٰ كرره أربع

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ١٨ العدد٢٤ إلىٰ العدد٣٣ .

مرات . قال : وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتىٰ يشهد عليهم نبيهم بذلك(١) .

وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى : « ريثا » والصغرىٰ « زغرتا » فقالوا لها : يا جارية . . . هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتىٰ آتيكم . شفقة عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : يا أبتاه . . . أرادك فتيان علىٰ باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم . وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال(٢) .

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط . فجاءه قومه يهرعون إليه .

وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ٧٨] أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ، ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلىٰ غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً ، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦] .

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ، هو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحّف عليهم كما أخطؤوا في قولهم : إن الملائكة كانوا اثنين ، وإنهم تعشوا عنده . وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً .

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢١٠) .
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢١٠) .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود : ٧٨] نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفرة أغبياء .

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه .

فقال قومه ، عليهم لعنة الله الحميد المجيد ، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود : ٧٩] . يقولون ـ عليهم لعائن الله ـ لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا .

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذي العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] . ود أن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب علىٰ هذا الخطاب .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : « **نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلىٰ ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي** » .

ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة .

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « **رحمة الله علىٰ لوط ، أن كان يأوي إلىٰ ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه** » .

وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الحجر : ٦٧ ـ ٧١] فأمرهم بقربان نسائهم ، وحذرهم الاستمرار علىٰ طريقتهم وسيئاتهم .

وهذا ـ وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون ـ ، بل كلما نهاهم يبالغون في

تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون ، ولم يعلموا ما حُمَّ به القدر مما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون .

ولهذا قال تعالىٰ مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٣٦ ـ ٣٨] .

ذكر المفسرون وغيرهم : أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، وكل ما لهم في إلحاح وإنفاج[1] ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] لأحللت بكم النكال .

قالت الملائكة : ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ [هود : ٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتىٰ قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ، ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن ! .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٣٧ ـ ٣٨] .

فذلك أن الملائكة تقدمت إلىٰ لوط ، عليه السلام ، آمرين بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود : ٨١] ، يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه ، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ [هود : ٨١] علىٰ قراءة النصب : يحتمل أن يكون مستثنىٰ من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها ، ويحتمل

---

(١) نفج الرجل : فخر بما ليس عنده ولا فيه .

أن يكون من قوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر في المعنى . . . والله أعلم .

قال السهيلي : واسم امرأة لوط « والهة » واسم امرأة نوح « والغة » .

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة . الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] .

فلما خرج لوط ـ عليه السلام ـ بأهله ، وهم ابنتاه ، لم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال : إن امرأته خرجت معه . . . والله أعلم فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها ، جاءهم من أمر الله ما لا يرد ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد .

وعند أهل الكتاب : أن الملائكة أمروه أن يصعد إلىٰ رأس الجبل الذي هناك فاستبعده ، وسأل منهم أن يذهب إلىٰ قرية قريبة منهم ، فقالوا : اذهب فإنا ننتظرك حتىٰ تصير إليها وتستقر فيها ، ثم نُحِلّ بهم العذاب . فذكروا أنه ذهب إلىٰ قرية « صوعر » التي يقول الناس : غور زغر ، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب : قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن ـ وكن خمس مدن[1] ـ بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعمئة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتىٰ بلغ بهن عنان السماء ، حتىٰ سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] والسجيل فارسي معرب :

---

(١) وقيل : سبع مدن .

وهو الشديد الصلب القوي ، ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء ، ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ [الذاريات : ٣٤] أي معلمة مكتوب علىٰ كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه ، كما قال : ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣ ـ النمل : ٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم : ٥٣ ـ ٥٥] يعني قلبها فأهوىٰ بها منكسة عاليها سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل ، متتابعة ، مسومة مرقومة علىٰ كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه ، من الحاضرين منهم في بلدهم ، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة ، التفتت إلىٰ قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً ، وقالت : واقوماه ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها ، إذ كانت علىٰ دينهم ، وكانت عيناً لهم علىٰ من يكون عند لوط من الضيفان .

كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] أي خانتاهما في الدين فلم تتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا علىٰ فاحشة ـ حاشا وكلا ـ فإن الله لا يقدر علىٰ نبي قط أن تبغي امرأته ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف : ما بغت امرأة نبي قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً .

قال الله تعالىٰ في قصة الإفك ، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، زوج رسول الله ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ، ووعظ وحذر قال فيما قال : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥ ـ ١٦] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة .

وقوله هنا : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم .

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلىٰ أن اللائط يرجم ، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة .

واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

وذهب أبو حنيفة إلىٰ أن اللائط يلقىٰ من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط . **لقوله تعالى** : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها ، لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية علىٰ قدرة الله تعالىٰ وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه وعصىٰ مولاه ، ودليلاً علىٰ رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات ، وإخراجه إياهم من الظلمات إلىٰ النور ، **كما قال تعالى** : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٨ ـ ٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٣ ـ ٧٧] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة ؟ .

كما روىٰ الترمذي وغيره مرفوعاً : « **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** » ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي لبطريق مهيع مسلوك إلىٰ الآن . كمـــا قـــال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ـ ١٣٨] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٥] **وقال تعالى** : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ ـ ٣٧] .

أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشي الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوى ، فانزجر من محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه ، فمن بعض الوجوه ، كما قال بعضهم :

فـإن لـم تكـونـوا قـوم لـوط بعينهـم   فمـا قـوم لـوط منكـم ببعيـد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه ، يمتثل ما أمره الله به عز وجل ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال ، والجواري من السراري ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٣] .

قصة شعيب عليه السلام

قال الله تعالىٰ في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وقال في سورة الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ في الشعراء بعد قصتهم : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ

ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم « **مدين** » التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين عرفت بهم ، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل .

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق .

قال : ويقال له بالسريانية « **يترون** » ، وفي هذا نظر ، ويقال شعيب بن يشخر ابن لاوي بن يعقوب ، ويقال شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ، ويقال شعيب بن صيفور بن كيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، وقيل غير ذلك في نسبه .

وقال ابن عساكر : ويقال جدته ، ويقال أمه ، بنت لوط .

وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق[١] .

وعن وهب بن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجرا معه إلىٰ الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة .

وفي هذا كله نظر . . . والله تعالىٰ أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في « **الاستيعاب** » في ترجمة سلمة بن سعد العنزي : أنه قدم علىٰ رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلىٰ عنزة ، فقال : « **نعم الحي عنزة ، مبغيٌّ عليهم منصورون رهط شعيب وأختان[٢] موسى** » .

فلو صح هذا لدل علىٰ أن شعيباً صهر موسىٰ وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل . . . والله أعلم .

---

(١) وعبارة الطبري : وإنما هو من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام .

(٢) الأختان : أصهار الرجل ، وكل من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها . وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت ، المفرد : خَتَن والأنثىٰ ختنة .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال : « **أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر** » .

وكان بعض السلف يسمي شعيباً « **خطيب الأنبياء** » يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلىٰ الإيمان برسالته .

وقد روىٰ ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال : « **ذاك خطيب الأنبياء** » .

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون « **الأيكة** » ، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .

وكانوا من أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص .

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم ، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، حتىٰ أحل الله بهم البأس الشديد . وهو الولي الحميد .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف : ٨٥] أي دلالة وحجة واضحة . وبرهان قاطع علىٰ صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وهو ما أجرىٰ الله علىٰ يديه من المعجزات التي لم ينقل إلينا تفصيلها ، وإن كان هذا اللفظ قد دلَّ عليها إجمالاً .

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ﴾ .

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعدهم علىٰ خلاف ذلك فقال : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ [الأعراف : ٨٥ ـ ٨٦] أي طريق ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبيل .

قال السدي في تفسيره عن الصحابة : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] أي أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة .

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كانوا قوماً طغاة يجلسون علىٰ الطريق ، يبخسون الناس ، يعني يعشرونهم ، وكانوا أول من سن ذلك .

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦] نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية ، والمعنوية الدينية .

﴿ وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ذكرهم بنعمة الله تعالىٰ عليهم في تكثيرهم بعد القلة ، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه . كما قال لهم في القصة الأخرى : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود : ٨٤] اي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم .

وهذا مضاف إلىٰ عذاب الآخرة ، ومن جمع له هذا وهذا ، فقد باء بالصفقة الخاسرة ! .

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف ، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في أخراهم ، وعنفهم أشد تعنيف .

ثم قال لهم آمراً بعدما كان من صده زاجراً : ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٥ ـ ٨٦] .

قال ابن عباس والحسن البصري : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن جرير : ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ، خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال : وقد روي هذا عن ابن عباس .

وهذا الذي قاله وحكاه حسن ، وهو شبيه بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام ممحوق وإن كثر ، كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلىٰ قل » .

رواه أحمد . أي إلىٰ قلة[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »[٢] .

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدي وإن كثر . ولهذا قال نبي الله شعيب : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٦] أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيري .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] يقولون هذا علىٰ سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم : أصلاتك هذه التي تصليها ، هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو أن لا نتعامل إلا علىٰ الوجه الذي ترتضيه أنت ، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ؟ .

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير : يقول ذلك أعداء الله علىٰ سبيل الاستهزاء : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ

---

(١) المسند (١/ ٣٩٥ و٤٢٤) .

(٢) البخاري (٢/ ١١ و١٢ و١٨ و١٩ ، ومسلم (٥/ ١٠) ، وأبو داود رقم (٣٤٥٩) ، والنسائي (٢/ ٢١٢) ، والترمذي (١/ ٢٣٥) ، والدارمي (٢/ ٢٥٠) ، والشافعي (١٥٢٩) ، والطحاوي (٢/ ٢٠٢) ، والبيهقي (٥/ ٣٦٩) وغيرهم .

﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

هذا تلطف معهم في العبارة ، ودعوة لهم إلىٰ الحق بأبين أشارة..

يقول لهم : أرأيتم أيها المكذبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي علىٰ أمر بين من الله تعالىٰ أنه أرسلني إليكم ، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعني النبوة والرسالة ، يعني وعُمّي عليكم معرفتها ، فأي حيلة لي فيكم ؟

وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء .

وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه .

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة ، وضدها هي المردودة الذميمة ، كما تلبّس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون . **قال الله تعالى :** ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **يؤتىٰ بالرجل فيلقىٰ في النار فتندلق أقتاب بطنه ـ أي تخرج أمعاؤه من بطنه ـ فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار فيقولون : يا فلان . . . ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه** » .

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء ، فأما السادة من النجباء ، والألباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، فحالهم كما قال نبي الله شعيب : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [هود : ٨٨] أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أي في جميع أحوالي ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور ، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري . وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلىٰ نوع من الترهيب فقال : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ .

أي لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به علىٰ الاستمرار علىٰ ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم ، فيحل الله بكم من العذاب والنكال ، نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم ، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ قيل : معناه : في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ، مما قد بلغكم ما أحل بهم علىٰ كفرهم وعتوهم . وقيل معناه : وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان . وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات ، من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن : فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات .

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال : ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود : ٩٠] . أي أقلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلىٰ ربكم الرحيم الودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالدة بولدها ، ﴿ وَدُودٞ ﴾ وهو الحبيب ولو بعد التوبة علىٰ عبده ، ولو من الموبقات العظام .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ ﴾ [هود : ٩١] .

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا : كان ضرير البصر .

وقد روي في حديث مرفوع أنه بكىٰ من حب الله حتىٰ عميَ فرد الله عليه بصره وقال : يا شعيب أتبكي خوفاً من النار أو من شوقك إلىٰ الجنة . . . ؟ قال : بل من محبتك . فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي ، فأوحىٰ الله إليه : هنيئاً لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسىٰ بن عمران كليمي . .

وقولهم : ﴿ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود : ٩١] هذا من كفرهم البليغ ، وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : ﴿ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود :

٩١ أي ما نفهمه ولا نعقله لأنا لا نحبه ولا نريده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه .

وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ ﴾ أي مضطهداً مهجوراً . ﴿ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ ﴾ أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعونني بسببهم ، ولا تخافون عذاب الله ؟ ولا تراعوني لأني رسول الله ؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ ﴾ أي جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [هود : ٩٢] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه ، محيط بذلك كله ، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ .

هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد ، بأن يستمروا علىٰ طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ ﴾ [هود : ٣٩] أي في هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٩] أي في الأخرىٰ ﴿ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر .

﴿ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ ﴾ هذا كقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٧ ـ ٨٩] .

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلىٰ ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن

قومه فقال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنما يعودون إليكم إن عادوا ، اضطراراً مكرهين ، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه .

ولهذا قال : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾ أي فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا .

ثم استفتح بالله علىٰ قومه ، واستنصر به عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ أي الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه علىٰ الذين جحدوه وكفروه ، ورسوله خالفوه .

ومع هذا صمموا علىٰ ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠] .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسامهم ، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ، لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

ولكنه تعالىٰ أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ، في سياق قصة الأعراف أرجفوا بنبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودون في ملتهم راجعين . فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ،

وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله علىٰ سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧]فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء : فذكر أنهم أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريباً إلىٰ ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١٨٥ ـ ١٨٨] .

قال الله تعالىٰ وهو السميع العليم : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرىٰ غير أهل مدين ، فقوله ضعيف .

وإنما عمدتهم شيئان : أحدهما أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ [الشعراء : ١٧٦ ـ ١٧٧] ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف : ٨٥ ـ هود : ٨٤ ـ العنكبوت : ٣٦] .

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا .

ولما نسبهم إلىٰ القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم .

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلاً بمجرده علىٰ أن هؤلاء أمة أخرى ،

فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً علىٰ أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن .

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام » .

فإنه حديث غريب . وفي رجاله من تُكُلم فيه . والأشبه أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل . . . والله تعالىٰ أعلم .

ثم قد ذكر الله تعالىٰ عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل علىٰ أنهم أمة واحدة ، وأهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم في الأسراب ، فهربوا من محلتهم إلىٰ البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح .

﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ونجىٰ الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٩٤ ـ ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٠ ـ ٩٢] وهذا في مقابل

قولهم : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ .

ثم ذكر تعالىٰ عن نبيهم : أنه نعاهم إلىٰ أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

أي أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ ﴾ . أي قد أديت ما كان واجباً علي من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرصت علىٰ هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة .

ولهذا قال : ﴿ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ ﴾ أي أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ أي لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع ، ولا محيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص منه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس : أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه : أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم .

باب
ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم ، وما آل إليه أمره عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام .

وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط ، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام ، لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة ، فذكر تعالىٰ بعد قصة قوم لوط ، قصة مدين ، وهم أصحاب الأيكة علىٰ الصحيح كما قدمنا ، فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم .

ثم نشرع الآن في الكلام علىٰ تفضيل ذرية إبراهيم عليه السلام ، لأن الله جعل

في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي أرسل بعده فمن ولده .

ذكر إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان ، أسنهما وأجلهما : الذي هو الذبيح علىٰ الصحيح ـ إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل .

ومن قال : إن الذبيح هو إسحاق ، فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل ، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل ، فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر ، وفي رواية : الوحيد .

وأياً ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ، ففي نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مئة سنة من عمر الخليل ، فإسماعيل هو البكر لا محالة ، وهو الوحيد صورة ومعنىٰ علىٰ كل حالة .

أما في الصورة ، فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة ، وأما أنه وحيد في المعنى ، فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر ، وكان صغيراً رضيعاً ـ فيما قيل ـ فوضعهما في وهاد جبال فاران ، وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل ، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل ، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه . فحاطهما الله تعالىٰ بعنايته وكفايته فنِعْم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل .

فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى . ولكن أين من يتفطن لهذا السر ؟ وأين من يحل بهذا المحل ؟ والمعنىٰ لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل ! ! .

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد ، والمحافظة علىٰ الصلاة ، والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب ، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠١ ـ ١٠٢] فطاوع أباه علىٰ ما إليه دعاه ، ووعده بأنه سيصبر ، فوفىٰ بذلك وصبر علىٰ ذلك .

وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ ـ ٤٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية .

وقال تعالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى ،

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة : ١٤٠] الآية .

فذكر الله عنه كل صفة جميلة ، وجعله نبيه ورسوله ، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون ، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون .

وذكر علماء النسب وأيام الناس : أنه أول من ركب الخيل ، وكانت من قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها . وقد قال سعيد بن يحيىٰ الأموي في مغازيه : حدثنا شيخ من قريش ، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخيل واعتقبوها[1] فإنها ميراث أبيكم إسماعيل » .

وكانت هذه العراب وحوشاً فدعا لها بدعوته التي كان أعطي فأجابته ، وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن ، من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموي : حدثنا علي بن المغيرة ، حدثنا أبو عبيدة ، مسمع بن مالك ، عن

---

(١) أي توارثوها .

محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة » فقال له يونس : صدقت يا أبا سيار ، هكذا أبو جُرَيّ حدثني .

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امرأة من العماليق ، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها . قال الأموي : هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي . ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها ، فاستمر بها ، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وقيل هذه ثالثة ، فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً ، وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم : نابت ، وقيذر ، وإزبل ، وميشى ، ومسمع ، وماش ، ودوصا ، وأرر ، ويطور ، ونبش ، وطيما ، وقيذما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم ، المتقدم ذكرهم وكذبوا في تأويلهم ذلك .

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلىٰ أهل تلك الناحية وما والاها ، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، صلوات الله وسلامه عليه . ولما حضرته الوفاة أوصىٰ إلىٰ أخيه إسحاق ، وزوج ابنته « نسمة » من ابن أخيه « العيص » بن إسحاق ، فولدت له الروم ، ويقال لهم بنو الأصفر ، لصفرة كانت في العيص . وولدت له اليونان في أحد الأقوال . ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً . وتوقف ابن جرير رحمه الله .

ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر ، وكان عمره يوم مات مئة وسبعاً وثلاثين سنة .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيل عليه السلام إلىٰ ربه عز وجل حر مكة ، فأوحىٰ الله إليه : إني سأفتح لك باباً من الجنة إلىٰ الموضع الذي تدفن فيه . يجري عليك روحها إلىٰ يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلىٰ ولديه : نابت ، وقيذار .

* * *

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والسلام

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مئة سنة ، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة . وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ـ ١١٣] .

وقد ذكره الله تعالىٰ بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز .

وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[١] .

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوابيل في حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولهما اسمه « عيصو » وهو الذي تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم . والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر ، فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهىٰ علىٰ ابنه العيص طعاماً وأمره أن يذهب ويصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك ، فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت علىٰ ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك ، فلما جاء به وقربه إليه قال : من أنت ؟ قال : ولدك ، فضمه إليه وقال : أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجسد والثياب فالعيص ، فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً وكلمته عليهم وعلىٰ الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده . فلما خرج من عنده

---

(١) أحمد في المسند (٤/ ١٠١) .

جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له : ما هذا يا بني ؟ قال : هذا الطعام الذي اشتهيته فقال : أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ ! . . فقال : لا والله وعرف أن أخاه قد سبقه إلىٰ ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً ، وذكروا أنه توعّده بالقتل إذا مات أبوهما ، فسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلىٰ أخيها « لابان » الذي بأرض حران ، وأن يكون عنده إلىٰ حين يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ، ففعل .

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء في موضع فنام فيه ، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأىٰ في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلىٰ الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالىٰ يخاطبه ، ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لله لئن رجع إلىٰ أهله سالماً ليبنينَّ في هذا الموضع معبداً لله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره .

ثم عمد إلىٰ ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به ، وسمىٰ ذلك الموضع : « بيت إيل » أي بيت الله ، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي[١] .

قالوا : فلما قدم يعقوب علىٰ خاله أرض حران ، إذا له ابنتان : اسم الكبرى : « ليا » واسم الصغرى : « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما ، فطلب يعقوب منه أن يزوجه راحيل فأجابه إلىٰ ذلك بشرط أن يرعىٰ غنمه سبع سنين . فلما مضت المدة علىٰ خاله « لابان » صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلاً ابنته الكبرىٰ « ليا » وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هي « ليا » فقال لخاله : غدرت بي ؟ وأنا إنما خطبت إليك راحيل . فقال : إنه ليس

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٢٤) .

من سنتنا أن نزوج الصغرىٰ قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرىٰ وأزوجكها .

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان سائغاً في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف علىٰ وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل علىٰ جواز هذا وإباحته ، لأنه معصوم . ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب لـ « ليا » جارية اسمها « زلفى » ووهب لـ « راحيل » جارية اسمها « بلهى »[1] .

وجبر الله تعالىٰ ضعف « ليا » بأن وهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب ، روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوي ، ثم يهوذا . فغارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحمل ، فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت ، وولدت له غلاماً سمته « دان » وحملت وولدت غلاماً آخر فسمته « نيفتالي » فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » من يعقوب عليه السلام فولدت له : جاد ، وأشير ، غلامين ذكرين ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته « ايساخر » ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته « زابلون » . ثم حملت وولدت بنتاً سمتها « دينا » فصار لها سبعة من يعقوب .

ثم دعت الله تعالىٰ « راحيل » وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها ، فحملت من نبي الله يعقوب ، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته « يوسف » .

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران ، وهو يرعىٰ علىٰ خاله غنمه بعد دخوله علىٰ البنتين ست سنين أخرى ، فصارت مدة مقامه عشرين سنة .

فطلب يعقوب من خاله « لابان » أن يسرحه ليمر إلىٰ أهله ، فقال له خاله : إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت . فقال : تعطيني كل حمل يولد من

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٢٥) وقال : فجمع يعقوب بينهما فذلك قوله تعالى : ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .

غنمك هذه السنة أبقع[1] ، وكل حمل ملمع أبيض بسواد ، وكل أملح[2] ببياض ، وكل أجلح[3] أبيض من المعز . فقال : نعم .

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان علىٰ هذه الصفات من التيوس ، لئلا يولد شيء من الحملان علىٰ هذه الصفات . وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم .

قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلىٰ قضبان رطبة بيض من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقاً ، وينصبها في مساقي الغنم من المياه ، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك .

وهذا يكون من باب خوارق العادات ، وينتظم في سلك المعجزات .

فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ يعقوب أن يرجع إلىٰ بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه ، فعرض ذلك علىٰ أهله فأجابوه مبادرين إلىٰ طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت راحيل أصنام أبيها .

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم ، لحقهم « لابان » وقومه ، فلما اجتمع « لابان » بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه ، فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول ، وحتىٰ يودع بناته وأولادهن ، وسأله ولِمَ أخذوا أصنامه معهم ؟ .

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن في برذعة الجمل وهي تحتها ، فلم تقم ، واعتذرت بأنها طامث . فلم يقدر عليهن .

فعند ذلك تواثقوا علىٰ رابية هناك يقال لها « جلعاد » علىٰ أنه لا يهين بناته ، ولا يتزوج عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية إلىٰ بلاد الآخرين ، لا لابان ولا يعقوب ،

---

(١) الأبقع : ما خالط لونه لون آخر .

(٢) الأملح : ما خالط بياضه سواد .

(٣) الأجلح : حيوان لا قرن له .

وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر . وتفارقوا راجعين إلىٰ بلادهم .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساهير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلىٰ أخيه العيص يترفق له ويتواضع له . فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليه في أربعمئة راجل .

فخشي يعقوب من ذلك ، ودعا الله عز وجل وصلىٰ له ، وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذي وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص . وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي : مئتا شاة ، وعشرون تيساً ، ومئتا نعجة ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لقحة[1] ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتاناً ، وعشرة من الحمر . وأمر عبيده أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدي العيص ، وليقل الذي بعده كذلك ، وكذلك الذي بعده ، وكذا الذي بعده ، ويقول كل منهم : وهو قادم بعدنا .

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكُلّ بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً . ! .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمئة راجل ، فتقدم أمام أهله . فلما رأىٰ أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان . وكان مشروعاً لهم ، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه كما سيأتي .

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ونظر إلىٰ النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له . ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له . ودنت

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، والجمع لقاح .

« راحيل » وابنها يوسف فخرّا سُجّداً له . وعرض عليه أن يتقبل هديته وألح عليه فقبلها .

ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال « ساعير » .

فلما مر بساحور ابتنىٰ له بيتاً ، ولدوابّه ظلالاً ، ثم مر علىٰ أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية ، واشترىٰ مزرعة شخيم بن جمور بمئة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابتنىٰ ثَمَّ مذبحاً فسماه « ايل » وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليوم ، الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام . وهو مكان الصخرة التي علمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك ، كما ذكرنا أولاً .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها علىٰ نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها ، فقال إخوتها : إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً ، فأجابوهم إلىٰ ذلك واختتنوا كلهم . فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان ، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم ، مضافاً إلىٰ كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو « بنيامين » إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب في « أفراث » وهي بيت لحم ، وصنع يعقوب علىٰ قبرها حجراً وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلىٰ اليوم . وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً . فمن « ليا » روبيل ، وشمعون ، ولاوي ، ويهوذا ، وايساخر ، وزابلون . ومن « راحيل » يوسف وبنيامين . ومن أمة « راحيل » دان ، ونفتالي ، ومن أمة « ليا » : جاد ، وأشير[1] .

وجاء يعقوب إلىٰ أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث

---

(١) قارن تاريخ الطبري (١/ ٢٢٥) .

كان يسكن إبراهيم . ثم مرض إسحاق ومات عن مئة وثمانين سنة ودفنه ابناه : العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها[1] كما قدمنا .

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

فمن ذلك

قصة يوسف بن راحيل (عليه السلام)

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ١ ـ ٣] .

وقد تكلمنا علىٰ الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثَمّ ، وتكلمنا علىٰ هذه السورة مستقصىً في موضعها من التفسير . ونحن نذكرها ههنا نبذاً مما هناك علىٰ وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام : أنه تعالىٰ يمدح كتابه العظيم الذي أنزله علىٰ عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح ، بيّن واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي . فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة علىٰ أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه ورده .

وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكماً وأعدل حكماً .

فهو كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

يعني صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي .

---

(١) وردت هذه الأخبار عن يعقوب وأخيه في « العهد القديم » ولم تتعرض المصادر الإسلامية لها .

ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] أي بالنسبة إلىٰ ما أوحي إليك فيه .

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ [طه : ٩٩ ـ ١٠١] .

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي ، مرفوعاً وموقوفاً : « من ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبي ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتىٰ النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه علىٰ النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أتتهوكون[1] فيها يا بن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسىٰ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » . إسناده صحيح[2] .

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه : فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسىٰ ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين »[3] .

---

(١) أي تتحيرون وتتهورون ، والهوك : التهور والاندفاع ، هوك الرجل هوكاً : حمق وفيه بقية من عقل فهو أهوك ، وهوك .
(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٨٧) .
(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٨٧) .

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف ، وفي بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : « أيها الناس . . . إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية لا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » . ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[يوسف : ٤ ـ ٦] .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلىٰ أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي إخوته لم يوح إليهم .

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل علىٰ هذا القول .

ومن استدل علىٰ نبوتهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [آل عمران : ٨٤] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي ، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء . . . والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة ـ أنه ما نص علىٰ واحد من إخوته سواه ، فدل علىٰ ما ذكرناه[١] .

ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم

---

(١) روىٰ بعضهم أن بنيامين كان نبياً . . . والله أعلم .

ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

انفرد به البخاري . فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة بن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنىٰ عن إعادته هنا . . . ولله الحمد والمنة .

قال المفسرون وغيرهم : رأىٰ يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم إشارة إلىٰ بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدوا له ، فهاله ذلك .

فلما استيقظ قصها علىٰ أبيه ، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها . فأمره بكتمانها وأن لا يقصها علىٰ إخوته ، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر .

وهذا يدل علىٰ ما ذكرناه(١) .

ولهذا جاء في بعض الآثار : « استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود »(٢) .

وعند أهل الكتاب أنه قصها علىٰ أبيه وإخوته معاً ، وهو غلط منهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك .

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي بالوحي عليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ أي بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة ، كما أعطاها أباك يعقوب ، وجدك إسحاق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

---

(١) أي أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء .

(٢) الجامع الصغير رقم (٩٨٥) .

ولهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل : أي الناس أكرم ؟ قال : « **يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله** » .

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [**يوسف : ٧ ـ ١٠**] .

ينبه الله تعالىٰ علىٰ ما في هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبينات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له علىٰ محبة أبيه له ولأخيه ـ يعنون شقيقه لأمه بنيامين ـ أكثر منهم ، وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾(١) .

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلىٰ أرض لا يرجع منها ، ليخلوا لهم وجه أبيهم ، أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم ، وأضمروا التوبة بعد ذلك .

فلما أجمعوا أمرهم علىٰ ذلك واتفقوا عليه ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ ﴾ قال مجاهد : هو شمعون ، وقال السدي : هو يهوذا ، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق : هو أكبرهم روبيل : ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم ، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه . فأجمعوا رأيهم علىٰ هذا ، فعند ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدٗا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [**يوسف : ١١ ـ ١٤**] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعىٰ معهم ، وأن يلعب ويفرح ، وقد أضمروا له ما الله به عليم .

---

(١) وقد أخطأ إخوة يوسف لما قالوا هذا القول الشنيع .

فأجابهم الشيخ ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بني . . . يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشىٰ أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه ، فيأتي الذئب فيأكله ، ولا يقدر علىٰ دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه .

﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتىٰ وقع هذا ونحن جماعة ، إنا إذاً لخاسرون ، أي عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسله وراءهم يتبعهم ، فضل عن الطريق حتىٰ أرشده رجل إليهم ، وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب ، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم ، فكيف يبعثه وحده .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٥ ـ ١٨] .

لم يزالوا بابيهم حتىٰ بعثه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ، وأجمعوا علىٰ إلقائه في غيابت الجب ، أي في قعره علىٰ أُرْعُوفَتِهِ ، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها « المائح »(١) وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء ، والذي يرفعها بالحبل يسمىٰ « الماتح » .

فلما ألقوه فيه ، أوحىٰ الله إليه : أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس :

---

(١) ماح محياً : نزل إلى قرار البئر ليملأ الدلو لقلة مائها فهو مائح ، والجمع ماحة قال الشاعر :

يا أيها المائح دلوي دونكا إني رأيت الناس يحمدونكا

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه .

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلىٰ أبيهم عشاء وهم يبكون ، أي علىٰ أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك ! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاء يبكون ، أي في ظلمة الليل ، ليكون أمشىٰ لغدرهم لا لعذرهم .

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا ، وقولهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضَمِنَّا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك ، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفتعل ، لأنهم عمدوا إلىٰ سخلة[1] ذبحوها ، فأخذوا من دمها فوضعوه علىٰ قميصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وآفة الكذب النسيان ! ولما ظهرت علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم علىٰ أبيهم ، فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إياه علىٰ محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره ، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه وجاؤوا وهم يتباكون ، وعلىٰ ما تمالؤوا يتواطؤون . ولهذا ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلىٰ أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء روبيل آخر النهار

---

(١) السخلة : الذكر والأنثىٰ من ولد الضأن والمعز ساعة يولد . والجمع : سخل ، وسخال ، وسخلان .

ليخرج يوسف لم يجده ، فصاح وشق ثيابه ، وعمد أولئك إلىٰ جدي فذبحوه ، ولطخوا من دمه جبة يوسف ، فلما علم يعقوب شق ثيابه ، ولبس مئزراً أسود وحزن علىٰ ابنه أياماً كثيرة .

وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٩ ـ ٢٢] .

يخبر الله تعالىٰ عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة ، أي مسافرون . قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم[(١)] قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلىٰ أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف .

فلما رآه ذلك الرجل ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ ﴾ أي يا بشارتي ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته ، وبما يُسِرّه واجدوه من أنه بضاعة لهم . ومع هذا لا يغيره الله تعالى ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر ، بما يجري الله علىٰ يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه زمام الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم ، بما لا يحد ولا يوصف .

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا : هذا غلامنا أبق

---

(١) البطم : حبة خضراء ، من الفصيلة الفستقية ، شجرتها من أربعة إلىٰ ثمانية أمتار ، تنبت في الأراضي الجبلية ، ثمرتها حسكة مفلطحة خضراء ، تتقشر عن غلاف خشبي يحوي ثمرة واحدة ، تؤكل في بلاد الشام .

منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أي قليل نزر ، وقيل هو الزيف ﴿ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ .

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي :

باعوه بعشرين درهماً ، اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق : أربعون درهماً . . والله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ أي أحسني إليه ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ ، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة .

قالوا : وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها ، والذي الخزائن مسلمة إليه . قال ابن إسحاق : واسمه قطفير بن روحيب . قال : وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال : واسم امرأة العزيز : « راعيل » بنت رمايل . وقال غيره : كان اسمها « زليخا » والظاهر أنه لقبها . وقيل « فكا » بنت ينوس ، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي[١] .

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : كان اسم الذي باعه بمصر ـ يعني الذي جلبه إليها ـ مالك بن زعر بن نويت ابن مديان بن إبراهيم . . . فالله تعالىٰ أعلم .

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ ، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ثم قيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز

---

(١) تفسير الطبري (١٢/٩٩) .

وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك . ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] فدل علىٰ أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد ، وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلىٰ عباده النبيين ، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة ويشهد له قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

يذكر تعالىٰ ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه ، وهي في غاية الجمال والمال . والمنصب والشباب . وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيأت له وتصنعت ، ولبست أحسن ثيابها

وأفخر لباسها ، وهي مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر .

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء ، السبعة الأتقياء ، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه في المسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله** »[1] .

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت علىٰ ذلك أشد الحرص ، فقال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وقد تكلمنا علىٰ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين ها هنا متلقًّى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولىٰ بنا .

والذي يجب أن يُعتقد : أن الله تعالىٰ عصمه وبرَّأه ، ونزَّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ أي هرب منها طالباً الباب ليخرج منه فراراً منها فاتَّبعَتْه في أثره ﴿ وَأَلۡفَيَا ﴾ أي وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي زوجها ﴿ لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ اتهمته

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

وهي المتهمة ، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها . فلهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ، احتاج إلىٰ أن يقول الحق عند الحاجة .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قيل : كان صغيراً في المهد . قاله ابن عباس ، وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك ، واختاره ابن جرير ، وروىٰ فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ، ووقفه غيره عنه[1] .

وقيل كان رجلاً قريباً إلىٰ « قطفير » بعلها ، وقيل قريباً إليها . وممن قال إنه كان رجلاً : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم .

فقال : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتىٰ قدت مُقَدّم قميصه . ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جرىٰ من مكركن ، أنت راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل .

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أي لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلىٰ ربها ، فإن العبد إذا تاب إلىٰ الله تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام ، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال لها بعلها ، وعذرها من بعض الوجوه ، لأنها رأت ما لا صبر لها علىٰ مثله ، إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف : ٢٩] .

---

(١) تفسير الطبري (١٢/١١٦) .

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠ ـ ٣٤] .

يذكر الله تعالىٰ ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن علىٰ امرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوي هذا ، لأنه مولىٰ من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا . ولهذا قلن : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها ، فأظهرن ذماً ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتىٰ ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها ، وأعتدت لهن ضيافةَ مثلِهِنَّ ، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج[1] ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتىٰ اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

---

(١) الأترج : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار ، وهو ذهبي اللون ، ذكي الرائحة ، حامض الماء .

وقد جاء في حديث الإسراء : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان علىٰ النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالىٰ خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فكان في غاية نهايات الحسن البشري . ولهذا يدخل أهل الجنة علىٰ طول آدم وحسنه . ويوسف كان علىٰ النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ، كما أنه لم يكن أنثىٰ بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطىٰ وجهه . ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنىٰ المذكور ، وجرىٰ لهن وعليهن ما جرى ، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته .

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي امتنع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ .

وكان بقية النساء حرَّضْنَه علىٰ السمع والطاعة لسيدته ، فأبىٰ أشد الإباء ، ونأىٰ لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يعني إن وكلتني إلىٰ نفسي ، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني ، وحطتني بحولك وقوتك .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف : ٣٤ ـ ٤١] .

يذكر الله تعالىٰ عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم ، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلىٰ وقت ، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها ، فسجنوه ظلماً وعدواناً .

وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

ومن ها هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي : أن من العصمة أن لا تجد ! .

قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ ﴾ قيل : كان أحدهما ساقيَ الملك واسمه فيما قيل « نبوا » والآخر خبازه ، يعني الذي يلي طعامه ، وهو الذي يقول له الترك « **الجاشنكير** » واسمه فيما قيل « **مجلث** » وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما . فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلىٰ خلقه ، فرأىٰ كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة . أما الساقي فرأىٰ كأن ثلاثة قضبان من حبلة[1] قد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه . ورأىٰ الخباز علىٰ رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضواريَ الطيور تأكل من السل الأعلى .

---

(١) الحبلة : الكرم ، أو القضيب من الكرم ، والجمع : حبل بفتح الحاء والباء .

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ . قيل : معناه إني أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً ، كما قال عيسى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياي ، لأني مؤمن به موحد له متبع ملة آبائي الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ويعقوب . ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أي بأن هدانا لهذا ، ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز ، وفي جبلتهم مغروز ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم دعاهم إلىٰ التوحيد وذم عبادة ما سوىٰ الله عز وجلَّ وصغَّر أمر الأوثان وحقرها ، وضعف أمرها فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي المتصرف في خلقه الفعال لما يريد ، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أي وحده لا شريك له و﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره .

وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال ، لأن نفوسهما معظمة له ، منبعثة علىٰ تلقي ما يقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما إلىٰ ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه .

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلىٰ ما أرشد إليه قال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ قالوا وهو الساقي ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ قالوا وهو الخباز ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه علىٰ كل حالة . ولهذا جاء في الحديث : « **الرؤيا علىٰ رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت** » .

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا : لم نر شيئاً ، فقال لهما : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] .

يخبر الله تعالىٰ أن يوسف قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقي : ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك . وفي هذا دليل علىٰ جواز السعي في الأسباب ، ولا ينافي ذلك التوكل .

وقوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي فأنسىٰ الناجيَ منهما الشيطانُ أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد . وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب .

﴿ فَلَبِثَ ﴾ يوسف ﴿ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ . والبضع : ما بين الثلاث إلىٰ التسع ، وقيل : السبع ، وقيل : الخمس ، وقيل : ما دون العشرة ، حكاها الثعلبي ، ويقال بضع نسوة وبضعة رجال .

ومنه الفراء استعمال البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يقال نيف وقال الله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٤] وهذا رد لقوله .

قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلىٰ التسعين ، ولا يقال : بضع ومئة ، وبضع وألف . وخالف الجوهري فيما زاد علىٰ بضعة عشر ، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلىٰ تسعين . وفي الصحيح : « الإيمان بضع وستون شعبة » ، وفي رواية : « وسبعون شعبة ، وأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق » .

ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد علىٰ يوسف فقد ضُعِّف ما قاله ، وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة .

والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه . تفرد

بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوري المكي وهو متروك[1] ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ، ولا ها هنا بطريق الأولىٰ والأحرى . . . والله تعالىٰ أعلم .

فأما قول ابن حبان في صحيحه ، عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث : أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي . حدثنا مسدد بن مسرهد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما لبث في السجن ما لبث ، ورحم الله لوطاً إن كان لَيأوي إلىٰ ركن شديد ، إذ قال لقومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] قال : فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » .

فإنه حديث منكر من هذا الوجه . ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة . وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذي في الصحيحين يشهد بغلطها . . . والله تعالىٰ أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣ ـ ٤٩] .

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن علىٰ وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة ابن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، رأىٰ هذه الرؤيا .

---

(١) تفسير الطبري (١٢/١٢٣) .

قال أهل الكتاب : رأىٰ كأنه علىٰ حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلهن يرتعن في روضة هناك ، فخرجت سبع بقرات هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً . ثم نام فرأىٰ سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلن السنبلات الخضر ، فاستيقظ مذعوراً .

فلما قصها علىٰ ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها ، بل ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي أخلاط أحلام من الليل ، لعلها لا تعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك . ولهذا قالوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما ، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلىٰ حينه هذا ، وذلك من تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأىٰ عجز الناس عن تعبيرها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ﴾ أي تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مدة من الزمان ، وهو بضع سنين . وقرأ بعضهم كما حكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك : ﴿وادكر بعد أمهٍ﴾ أي بعد نسيان . وقرأها مجاهد : ﴿بعد أَمْهٍ﴾ بإسكان الميم . وهو النسيان أيضاً . يقال أمه الرجل يأمه أَمَهاً وأَمْهاً[1] ، إذا نسي . قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنت لا أنسىٰ حديثاً ... كذاك الدهر يزري بالعقول

فقال لقومه وللملك : ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فأرسلوني إلىٰ يوسف فجاءه فقال : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف : ٤٦] .

وعند أهل الكتاب : إن الملك لما ذكر له الساقي عن يوسف ، استدعاه إلىٰ حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له . وهذا غلط . والصواب ما قصه الله في كتابه

(١) أَمَهاً وأَمْهاً : الأولىٰ بفتح الميم والثانية بتسكينها .

القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران ، من فرىٰ وهذيان .

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعاً ، بل أجابهم إلىٰ ما سألوه ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال علىٰ وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ [يوسف : ٤٩] يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها .

فعبر لهم وعلىٰ الخير دلهم ، وأرشدهم إلىٰ ما يعتمدون في حالتي خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأولىٰ في سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية ، إذ الغالب علىٰ الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل علىٰ كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠ ـ ٥٣] .

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلىٰ حضرته ، ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب أن لا يخرج حتىٰ يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً . ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني الملك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قيل معناه : إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي ، أي فليأمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي ؟ وحثهن لي علىٰ الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد ؟ .

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ .

فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ وهي زليخا ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ظهر وتبين ووضح ، والحق أحق أن يتبع ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي فيما يقوله ، ومن أنه بريء وأنه لم يراودني ، وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف ، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب . وقيل : إنه من تمام كلام زليخا ، أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة .

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوىٰ الأول .

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، قيل إنه من كلام يوسف ، وقيل من كلام زليخا ، وهو مفرع علىٰ القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى . . . والله تعالىٰ أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : ٥٤ ـ ٥٥] .

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أي أجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي ، ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي ذو مكانة وأمانة .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلب أن يولِّيه النظر فيما يتعلق

بالأهراء[1] ، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضي سبع سني الخصب ، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك أنه حفيظ ، أي قوي علىٰ حفظ ما لديه أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء .

وفي هذا دليل علىٰ جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظّم يوسف عليه السلام جداً ، وسلطه علىٰ جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله علىٰ مركبه الثاني ، ونودي بين يديه : أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسي .

قالوا : وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن .

وقيل : إنه لما مات قطفير زوجه الملك امرأته زليخا فوجدها عذراء ، لأن زوجها كان لا يأتي النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرايم ومنسا . قال : واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكي أن يوسف كان يوم دخل علىٰ الملك عمره ثلاثين سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفي كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه . . . والله تعالىٰ أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً .

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن ، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل .

ولهذا قال : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

---

(1) الهري : بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان ، والجمع أهراء .

ويقال : إن قطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا ، فكان وزير صدق .

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر ـ الريان بن الوليد ـ أسلم علىٰ يد يوسف عليه السلام . . . فالله أعلم . وقد قال بعضهم :

وراء مضيق الخوف متسع الأمنِ ... وأول مفروح به غاية الحزنِ
فلا تيأسن ، فالله ملَّك يوسفاً ... خزائنه بعد الخلاص من السجنِ

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[يوسف : ٥٨ ـ ٦٢] .

يخبر الله تعالىٰ عن قدوم يوسف عليه السلام إلىٰ الديار المصرية يمتارون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها علىٰ سائر العباد والبلاد .

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكمَ في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ، وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلاً ، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا . فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم .

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ ؟ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم ، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقريكم بالكلية ، عكس ما أسدىٰ إليهم أولاً .

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن . ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أي وإنا لقادرون علىٰ تحصيله .

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ . قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم ، وقيل خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية ، وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة .

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم علىٰ أقوال سيأتي ذكرها . وعند أهل الكتاب : أنها كانت صرراً من ورق ، وما أشبه . . . والله تعالىٰ أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣ ـ ٦٨] .

يذكر الله تعالىٰ ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلىٰ أبيهم وقولهم له : ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ ﴾ أي شيء نريد قد ردت إلينا بضاعتنا ؟ ﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾ أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ، ﴿ وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلىٰ به عنه ، ويتعوض بسببه منه .

فلهذا قال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ، ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلىٰ الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالىٰ يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل : أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة . قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك .

وقيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله إبراهيم النخعي .

والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلىٰ العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولىٰ وعرضاً آخر .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ

أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩ ـ ٧٩] .

يذكر الله تعالىٰ ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين علىٰ شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم ، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه .

ثم أخذه منهم وتركه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته ، وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام ، عن غرة[1] في متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة[2] علىٰ رده ، حمل بعير ، وضمنه المنادي لهم . فأقبلوا علىٰ من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه[3] فيما قاله لهم ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة .

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلىٰ المسروق منه . ولهذا قالوا : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

---

(١) أي عن غفلة .
(٢) الجعالة : الأجرة .
(٣) أي عابوه .

قال الله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ،ثم قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، لما كان يقدر يوسف علىٰ أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أي في العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوىٰ عزماً وحزماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ، لأنه يترتب علىٰ هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك : من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف ، قيل كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك . فلهذا : ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ وهي كلمته بعدها ، وقوله : ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أجابهم سراً لا جهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء ، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا

فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا
يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٠ ـ ٨٧] .

يقول الله تعالىٰ مخبراً عنهم لما استيئسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لا أزال مقيماً ها هنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ في القدوم عليه ، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ بأن يقدرني علىٰ رد أخي إلىٰ أبيه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

﴿ ٱرْجِعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به ـ من أخذهم أخانا لأنه سرق ـ أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق ، فإنه ليس سجية له ولا خلقه . وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

قال ابن إسحاق وغيره : لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً علىٰ صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ! .

ثم قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيما

يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً . كما قال بعضهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر[1] :

لقد لامني عند القبور على البكى رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوىٰ بين اللوىٰ والدكادك

فقلت له إن الأسىٰ يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ أي من كثرة البكاء . ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلىٰ يوسف .

فلما رأىٰ بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قَالُوا۟ ﴾ له علىٰ وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾ .

يقولون : لا تزال تتذكره حتىٰ ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولىٰ بك .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلىٰ أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكوه إلىٰ الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى . ولهذا قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال لهم محرضاً علىٰ تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا ييأس من روح الله

---

(١) هو متمّم بن نويرة في رثاء أخيه مالك .

وفرجه ، وما يقدره من المخرج في المضايق ، إلا القوم الكافرون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨ ـ ٩٣] .

يخبر الله عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال . ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك .

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ . قيل بقبولها ، قاله السدي . وقيل برد أخينا إلينا ، قاله ابن جريج .

فلما رأىٰ ما هم فيه من الحال ، وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الحال الذي يعرفونه فيه : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ؟

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ . يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . وقوله : ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه علىٰ ما كانوا أضمروا لهما من الحسد ، وعملوا في أمرهما من الاحتيال . ولهذا قال : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده

معاقد عزنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا علىٰ ما كان منكم إلينا ، وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا . ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي فضلك وأعطاك مالم يعطنا . ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ أي فيما أسدينا إليك ، وها نحن بين يديك . ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي لست أعاتبكم علىٰ ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم علىٰ ذلك فقال : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ومن زعم أن الوقف علىٰ قوله : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وابتدأ بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقوله ضعيف والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه علىٰ عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب ، بإذن الله . وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات .

ثم أمرهم أن يتحملوا أهلهم أجمعين إلىٰ ديار مصر ، إلىٰ الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، علىٰ أكمل الوجوه وأعلىٰ الأمور .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[يوسف : ٩٤ ـ ٩٨] .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، سمعت ابن عباس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ قال : لما خرجت العير ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة[1] أيام وكذا رواه الثوري وشعبة عن أبي سنان به .

---

(١) وقيل ثمانية أيام .

وقال الحسن البصري وابن جريج المكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة .

وقوله : ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي تقولون : إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبر السن .

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : ﴿تُفَنِّدُونِ ﴾ تسفهون .
وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهرمون .

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف :٩٥] قال قتادة والسدي : قالوا له كلمة غليظة .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي بمجرد ما جاء البشير ألقىٰ القميص علىٰ وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعدما كان ضريراً .
وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف ، وسيقر عيني به ، وسيريني فيه منه ما يسرني .
فعند ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه ، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل ، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم . فأجابهم أبوهم إلىٰ ما سألوا ، وما عليه عولوا قائلاً : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلىٰ وقت السحر . وكان عمر يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول : « اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي » قال : فاستمع إلىٰ الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلىٰ السحر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ﴾ وقد قال تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران : ١٧] .

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلىٰ سماء

الدنيا فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له » ؟ وقد ورد في حديث : « أن يعقوب أرجأ بنيه إلىٰ ليلة الجمعة » .

عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ يقول : « حتىٰ ليلة الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبنيه » .

وهذا غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفاً علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما[1] .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩ ـ ١٠١] .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة ، التي قيل إنها ثمانون سنة ! وقيل ثلاث وثمانون سنة ، وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة . قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة ، قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة .

وظاهر سياق القصة يرشد إلىٰ تحديد المدة تقريباً ، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة ، فيما قاله غير واحد ، فامتنع . فكان في السجن بضع سنين ، وهي سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي ، جاء إخوته يمتارون في السنة الأولىٰ وحدهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين ، فجاءوا كلهم .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ واجتمع بهما خصوصاً وحدهما

---

(١) تفسير الطبري جـ١٣/ ٤٢ والتاريخ جـ١/ ٢٥٣ .

دون إخوته ، ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ . قيل هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره قال : ادخلوا مصر ، وآوىٰ إليه أبويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور . وقيل بل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، قاله السدي ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلىٰ هذا أيضاً ، وأنه ضمن قوله : ادخلوا ، بمعنىٰ اسكنوا مصر ، أو أقيموا بها ، ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب لما وصل إلىٰ أرض جاشر ، وهي أرض ـ بلبيس ـ خرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه ، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم . وقد ذكر جماعة من المفسرين ، أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ أراد يوسف أن يخرج لتلقيه ، فركب معه الملك وجنوده ، خدمة ليوسف وتعظيماً لنبي الله « إسرائيل » وأنه دعا للملك ، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم . . . والله تعالىٰ أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم ـ فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ـ ثلاثة وستين إنساناً .

وقال موسىٰ بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً .

وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنساناً .

قالوا : وخرجوا مع موسىٰ وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل ، وفي نص أهل الكتاب : أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم بأسمائهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة ، وقال بعض المفسرين أحياها الله تعالى . وقال آخرون بل كانت خالته « ليا » والخالة بمنزلة الأم .

وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلىٰ يومئذ ، فلا يعول علىٰ نقل أهل الكتاب فيما خالفه . وهذا أقوى . . . والله تعالىٰ أعلم .

ورفعهما علىٰ العرش ، أي أجلسهما معه علىٰ سريره ، ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ ﴾ أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر ، تعظيماً وتكريماً ، وكان هذا مشروعاً لهم ، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتىٰ حرم في ملتنا[1] .

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك : من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجدين ، وأمرتني بكتمانها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ أي بعد الهم والضيق ، جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ، ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ أي البادية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ أي فيما كان منهم إليّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد ، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي بجميع الأمور ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

وحكىٰ الثعلبي : أنه كان لا يشبع في تلك السنين ، حتىٰ لا ينسىٰ الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار . قال : فمن ثم اقتدىٰ به الملوك في ذلك .

قلت وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لا يشبع بطنه عام الرمادة حتىٰ ذهب الجدب وأتىٰ الخصب .

قال الشافعي : قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة : لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة !

ثم لما رأىٰ يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع ، عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فانٍ ، وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثنىٰ علىٰ ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه ـ وهو خير المسؤولين ـ أن يتوفاه ، أي حين يتوفاه علىٰ

---

(١) تفسير الطبري جـ١٣/ ٤٣ .

الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « **اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين** » أي حين تتوفانا .

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلىٰ الملأ الأعلىٰ والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين ، كما قال : اللهم في الرفيق الأعلىٰ ثلاثاً . ثم قضى .

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة علىٰ الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم ، كما روىٰ عن ابن عباس أنه قال : ما تمنىٰ نبي قط الموت قبل يوسف .

فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد : « **وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين** » . وفي الحديث الآخر : « **ابن آدم . . . الموت خير لك من الفتنة** » وقالت مريم عليها السلام : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] وتمنىٰ الموت علي بن أبي طالب ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القيل والقال . وتمنىٰ ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **ولا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ،** إما محسناً فلعله يزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : **اللهم أحيني ما كانت** الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت **الوفاة خيراً لي** » والمراد بالضر ها هنا : ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه ، لا في دينه .

والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك ، إما عند احتضاره ، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب : أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفي عليه السلام . وكان قد أوصىٰ إلىٰ يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق . قال السدي : فصبره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه

بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة .

هذا نص كتابهم وهو غلط : إما في النسخة ، أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون الطريقة ها هنا .

وقد قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] يوصي بنيه بالإخلاص ، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أنه أوصىٰ بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب ، وهو عيسىٰ بن مريم . . . والله تعالىٰ أعلم .

وذكروا : أنه لما مات يعقوب بكىٰ عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله ، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها . فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي .

قالوا : ثم رجعوا إلىٰ بلادهم ، وعزىٰ إخوة يوسف يوسف في أبيهم ، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر .

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصىٰ أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه ، فحنطوه ووضعوه في تابوت ، فكان بمصر حتىٰ أخرجه معه موسىٰ عليه السلام ، فدفنه عند آبائه كما سيأتي : قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين .

هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك بن فضالة عن الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصىٰ إلىٰ أخيه يهوذا ، صلوات الله عليه وسلامه[1] .

قصة أيوب عليه السَّلام

قال ابن إسحاق : كان رجلاً من الروم . وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب ، وقيل غير ذلك في نسبه .

وحكىٰ ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السَّلام ، وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السَّلام يوم ألقي في النار فلم تحرقه .

والمشهور الأول ، لأنه من ذرية إبراهيم ، كما قررنا عند قوله تعالى : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ﴾ [الأنعام : ٨٤] الآيات . من أن الصحيح أن الضمير عائد علىٰ إبراهيم دون نوح عليهما السَّلام .

وهو من الأنبياء المنصوص علىٰ الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل : اسمها « ليا » بنت يعقوب ، وقيل « رحمة » بنت أفرائيم ، وقيل « ليا » بنت منسا بن يعقوب . وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا .

ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣

(١) تاريخ الطبري جـ١/٢٥٦ .

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤] ، وقال تعالىٰ في سورة ص : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤١ ـ ٤٤] .

وروىٰ ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال : أول نبي بعث إدريس ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم موسىٰ وهارون ، ثم إلياس ، ثم اليسع ، ثم عرفي[1] بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، ثم يونس بن متىٰ من بني يعقوب ، ثم أيوب بن زراح بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم . وفي بعض هذا الترتيب نظر : فإن هوداً وصالحاً : المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم . . . والله تعالىٰ أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ، من الأنعام والعبيد والمواشي ، والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران . وحكىٰ ابن عساكر : أنها كلها كانت له . وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه ، وابتُلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوىٰ قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما . وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه .

وطال مرضه ، فانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوىٰ زوجته فكانت ترعىٰ له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه علىٰ قضاء حاجته . وتقوم بمصلحته ، وضعف حالها وقل مالها حتىٰ كانت تخدم الناس بالأجر ، لتطعمه وتقوم بأوده ، رضي الله عنها وأرضاها ،

---

(١) وفي نسخة عربي .

وهي صابرة معه علىٰ ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وقال : « يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » .

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السَّلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتىٰ إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا : وقد رُوي عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده والله أعلم بصحته .

وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري وقد اختلفوا في مدة بلواه علىٰ أقوال فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص .

وقال أنس : ابتلي سبع سنين وأشهراً .

وقال حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة .

وقال السدي : تساقط لحمه حتىٰ لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت : يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك ، قال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ، فجزعت من هذا الكلام ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السَّلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها قصّت إحدىٰ ضفائرها فباعتها لإحدىٰ بنات الأشراف بطعام طيب كثير ، فلما قدمته لأيوب أنكره وقال : من أين لك هذا ؟ فقالت : خدمت به أناساً ، فلما كان اليوم الثاني لم تجد عملاً فقصت الضفيرة الأخرىٰ فباعتها بطعام ، فلما أتت به أيوب أنكره أيضاً وحلف أن لا يأكل منه شيئاً حتىٰ تخبره من أين جاءت بهذا الطعام ، فكشفت عن رأسها فرأىٰ شعرها مقصوصاً

فحزن وقال في دعائه : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

وقيل كان لأيوب أخوان فقدما يوماً لزيارته فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً شديداً فقال : (اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني) . فَصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : (اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني) فَصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان ، ثم خر ساجداً وقال : (اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتىٰ تكشف عني) فما رفع رأسه حتىٰ كُشِفَ عنه .

وعن الزهري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ، وكانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وماذاك . . . ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتىٰ ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر علىٰ الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلىٰ بيتي فأكفِّر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق . . . .)[1] .

قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتىٰ يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه . فأوحىٰ الله إلىٰ أيوب في مكانه : أن ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ فوالله القدير علىٰ ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران[2] أندر للقمح وأندر

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير حديث رقم (١٠٥٤) وقال : أخرجه أحمد في مسنده والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد . حديث صحيح .

(٢) الأندر : البيدر .

للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما علىٰ أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتىٰ فاض وأفرغت الأخرىٰ في أندر الشعير الورق حتىٰ فاض »[1] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتنحىٰ أيوب وجلس في ناحية ، فجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : ياعبد الله . . . أين ذهب المبتلىٰ الذي كان ها هنا ؟ ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب ! قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ قال : ويحك أنا أيوب قد رد الله عليّ جسدي .

قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحىٰ الله إليه : « **قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك** » .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **لما عافىٰ الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه فقيل له : يا أيوب أما تشبع . . . ! ! . . . ؟ ؟ قال : يارب ومن يشبع من رحمتك** »[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي[3] في ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا**

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) تفسير الطبري جـ ٢٣/١٠٨ وتاريخ الطبري جـ١/ ٢٢٧ .

(٣) أي يغترف بيديه في ثوبه .

أيوب . . . ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلىٰ يا رب ، ولكن لا غنىٰ لي عن بركتك » .

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به(١) .

وقوله : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي اضرب الأرض برجلك ، فامتثل ما أمر به . فأنبع الله له عيناً باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض ، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً ، حتىٰ صب له من المال صباً ، مطراً عظيماً جراداً من ذهب .

وأخلف الله له أهله ، كما قال الله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] أحياهم الله بأعيانهم ، وقيل آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بهم جميعاً في الدار الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي رفعنا عنه شدته ، وكشفنا ما به من ضر ، رحمة منا به ورأفة وإحساناً . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتىٰ فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هي « رحمة » من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله إليها شبابها وزادها حتىٰ ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم علىٰ دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم .

وقوله تعالى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] . هذه رخصة من الله تعالىٰ لعبده ورسوله أيوب عليه السلام ، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مئة سوط . فقيل حلفه ذلك لبيعها

(١) البخاري جـ ٨/ ١٨٥ كتاب التوحيد .

ضفائرها[1] ، فحلف ليضربنها مئة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة . ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمئة سوط ويبر ولا يحنث .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقىٰ الله وأطاعه ، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصديقة البارة الراشدة ، رضي الله عنها .

ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة[2] في باب الإيمان والنذور ، وتوسع آخرون فيها حتىٰ وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان ، وصدَّروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام ، عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل أنه عاش أكثر من ذلك[3] .

وقد روىٰ ليث عن مجاهد ما معناه : إن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام علىٰ الأغنياء وبيوسف عليه السلام علىٰ الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام علىٰ أهل البلاء .

رواه ابن عساكر بمعناه .

وأنه أوصىٰ إلىٰ ولده « حومل » ، وقام بالأمر بعده ولده « بشر » بن أيوب ، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه « ذو الكفل » والله تعالىٰ أعلم .

ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين .

ونذكر ها هنا قصة ذي الكفل ، إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه هي .

---

(١) وقيل عرض لها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواءً لأيوب فأخبرت أيوب بذلك فعرف أنه الشيطان ، فحلف ليضربها مئة سوط .

(٢) هذا في شرع أيوب أما في شرعنا فلا تجوز هذه الرخصة .

(٣) تاريخ الطبري جـ ١/ ٢٢٨ .

قصة ذي الكفل

قال الله تعالىٰ بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦] .

وقال الله تعالىٰ بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

[ص : ٤٥ ـ ٤٨] .

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي ، عليه الصلاة والسلام . وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك . . . والله تعالىٰ أعلم .

وروىٰ ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً .

وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل .

وروروىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً علىٰ الناس يعمل عليهم في حياتي ، حتىٰ أنظر كيف يعمل . فجمع الناس فقال : من يتقبل مني بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ولا يغضب .

قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم . قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا ، فاستخلفه .

قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك . فقال :

دعوني وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم . قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتىٰ حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال : إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك .

فانطلق وراح فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرىٰ الشيخ فلم يره فقام يتبعه . فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلىٰ القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني ، قال : فانطلق فإذا رحت فأتني .

قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله : لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتىٰ أنام ، فإني قد شق علي النوم ، فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل ، وراءك وراءك ، فقال : قد أتيته أمس وذكرت له أمري . فقال : لا والله ، لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأىٰ كوة في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال : فاستيقظ الرجل ، فقال : يا فلان . . . ألم آمرك ؟ قال : أما من قِبَلي والله فلم تُؤتَ ، فانظر من أين أُتيت ؟ .

قال : فقام إلىٰ الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه ، فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعييتني في كل شيء ففعلت كل ما ترىٰ لأغضبك .

فسماه الله ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفىٰ به[١] .

وقد روىٰ ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق وهكذا روىٰ

---

(١) تفسير الطبري جـ١٧/ ٥٩ .

عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر ، وغيرهم من السلف نحو هذا .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن سعد مولىٰ طلحة ، عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتىٰ عد سبع مرار - لم أحدث به ، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال : « **كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً علىٰ أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني عليه الحاجة . قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ! ثم نزل فقال : اذهبي بالدنانير لك ثم قال : والله لا يعصي اللهَ الكفلُ أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً علىٰ بابه : قد غفر الله للكفل** » .

ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال : حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه علىٰ ابن عمر .

فهو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر ، فإن سعداً هذا قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوىٰ عبد الله بن عبد الله الرازي هذا . . . والله تعالىٰ أعلم .

وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث : الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن . . . والله تعالىٰ أعلم .

* * *

باب
ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] . . . الآية .

كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض ، بعدما أنزلت التوراة علىٰ وجه الأرض ، غير القرية التي مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

ورفعه البزار في رواية له . والأشبه والله تعالىٰ أعلم وقفه . فدل علىٰ أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسىٰ عليه السلام .

فمنهم :

أصحاب الرس[1] :

قال الله تعالىٰ في سورة الفرقان : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨ ـ ٣٩] وقال الله تعالىٰ في سورة ق : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ ـ ١٤] .

وهذا السياق والذي قبله ، يدل علىٰ أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا ، وهو الهلاك .

وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج[2] .

وروىٰ ابن جرير قال : قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرىٰ ثمود .

---

(١) الرس : البئر التي تكون غير مطوية ، والجمع رساس .

(٢) تفسير الطبري جـ١٩/ ١٠ .

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ، عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره ، أن أصحاب الرس كانوا بحَضَوَّر ، فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه . فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها . حتىٰ نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، دمشق وبنىٰ مدينتها ، وسماها جبرون ، وهي إرم ذات العماد . وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد ابن الحلود بن عاد ، إلىٰ عاد يعني أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه ، فأهلكهم الله عزوجل[(١)] .

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة والله أعلم .

وروىٰ ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن ابي عاصم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها[(٢)] .

قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . قال قتادة : فلج من قرىٰ اليمامة .

قلت : فإن كانوا أصحاب « يس » كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعامة ، قال الله تعالىٰ في قصتهم : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ٢٩] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء .

وإن كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضاً وتبروا . وعلىٰ كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ١/ ١٥ .
(٢) تاريخ الطبري جـ٢٥/ ٩٧ .

ترويهم وتكفي أرضهم جميعاً ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال : إني لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم حتىٰ أرىٰ صنيعكم . ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه . فبعث الله فيهم نبياً فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السهيلي : وكان يوحىٰ إليه في النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسود وصوت الضباع .

فأما ما رواه ـ أعني ابن جرير ـ عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن الله تعالىٰ بعث نبياً إلىٰ أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا علىٰ النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب علىٰ ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلىٰ تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلي إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت[1] .

قال : فكان ذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام ، فضرب الله علىٰ أذنه سبع سنين نائماً . ثم إنه هبّ فتمطىٰ فتحول لشقه الاخر ، فاضطجع فضرب الله علىٰ أذنه سبع سنين أخرى ، ثم إنه هبّ واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلىٰ القرية فباع حزمته

---

(١) تفسير الطبري جـ١٩/١١ .

ثم اشترىٰ طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهب إلىٰ الحفيرة ، إلىٰ موضعها الذي كانت فيه ، يلتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه .

قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له : ما ندري ؟ حتىٰ قبض الله النبي عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » .

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي . . . والله تعالىٰ أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه ، وقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء علىٰ أنهم أصحاب « الرس » المذكورون في القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب « الرس » أنه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم . . . والله أعلم .

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف . لما تقدم ، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . . . والله تعالىٰ أعلم(١) .

قصة قوم يس

وهم أصحاب القرية أصحاب « يس » قال الله تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ
ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم
مُّرْسَلُونَ ١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا
يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ
تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُوا۟
مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن

(١) تفسير الطبري جـ ١٩/ ١١ .

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي
ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ .

[يس : ١٣ ـ ٢٩] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روىٰ عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا : وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق ومصدوق وشلوم ، فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل الله عز وجل . وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح . وكذا قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جداً ، لأن أهل إنطاكية لما بَعَث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت . ولهذا كانت إحدىٰ المدن الأربع التي تكون فيها بطارقة النصارى . وهن : أنطاكية ، والقدس ، واسكندرية ، ورومية ، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا ، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن ، بعثوا إلىٰ أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ، فلا يمنع هذا . . . والله تعالىٰ أعلم فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدّم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا ﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾

يعني المدينة ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم ، كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً . فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بما جئتمونا به ، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قيل بالمقال ، وقيل بالفعال . ويؤيد الأول قوله تعالىٰ ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة .

﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي بسبب أنَّا ذكرناكم بالهدىٰ ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي يدعونكم إلىٰ الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة .

ثم دعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه سواه .

ثم قال مخاطباً الرسل : ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ قيل : فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل معناه ، فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة . فعند ذلك قتلوه ، قيل : رجماً ، وقيل : عضاً ، وقيل : وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه .

وحكىٰ ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوه بأرجلهم ، حتىٰ أخرجوا قصبته .

وقد روىٰ الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز : كان اسم هذا الرجل « حبيب بن مري » ثم قيل : كان نجاراً ، وقيل : حياكاً ، وقيل : إسكافاً ، وقيل :

قصاباً ، وقيل : كان يتعبد في غار هناك والله تعالىٰ أعلم .

وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأىٰ فيها من النضرة والسرور ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وكذلك قال قتادة : لا يُلقىٰ المؤمن إلا ناصحاً ، ولا يلقىٰ غاشاً ، لما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنىٰ والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه[1] .

قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي وما احتجنا في الانتقام منهم إلىٰ إنزال جند من السماء عليهم .

هذا معنىٰ ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جنداً ، أي رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى .

قلت : وأقوى ، ولهذا قال ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلىٰ هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾

[يس : ٢٩] .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون ، أي قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف[2] .

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٢/ ١٠٤ .

(٢) تفسير الطبري جـ٢٣/ ٣ .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم . فلهذا قيل : إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالىٰ في سورة يونس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

[يونس : ٩٨] .

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨]

وقال تعالىٰ في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

[الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٨] .

وقال الله تعالىٰ في سورة ن : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[القلم : ٤٨ ـ ٥٠] .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلىٰ أهل « نينوى » من أرض الموصل ، فدعاهم إلىٰ الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا عليه بكفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في

قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا علىٰ ما كان منهم إلىٰ نبيهم ، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا إلىٰ الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكنوا لديه ، وبكىٰ الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات . وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ، فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً .

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته ، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ، ودار علىٰ رؤوسهم كقطع الليل المظلم .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ [يونس : ٩٨] أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها ، فدل علىٰ أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] . وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة ، فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ علىٰ قولين :

الأظهر من السياق : نعم . والله أعلم . كما قال تعالى : ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٤٧ ـ ١٤٨] ، وهذا المتاع إلىٰ حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد كانوا مئة ألف لا محالة . واختلفوا في الزيادة : فعن مكحول عشرة آلاف . وروىٰ الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثني أبي بن كعب ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفاً » فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

وعن ابن عباس : كانوا مئة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه : وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مئة ألف وسبعين ألفاً .

واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ علىٰ ثلاثة أقوال : هي مبسوطة في التفسير[1] .

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجت بهم ، واضطربت وماجت بهم وثقلت مما فيها ، وكادوا يغرقون علىٰ ما ذكره المفسرون .

قالوا : فاشتوروا فيما بينهم علىٰ أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخفّفوا منه .

فلما اقترعوا وقعت القرعة علىٰ نبي الله يونس فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه ، فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقعت عليه أيضاً ، لما يريده الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٢] وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر ، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالىٰ أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها .

قالوا : ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال : يا رب . اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه . فقال مجاهد عن الشعبي : التقمه ضحىٰ ولفظه عشية ، وقال قتادة : مكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق : سبعة أيام . ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت :

وأنت بفضل منك نجيت يونساً   وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك : مكث في جوفه أربعين يوماً . . . والله

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٣/٦٦/٦٧ .

تعالىٰ أعلم كم مقدار ما لبث فيه[1] .

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي[2] ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتىٰ سمع تسبيح الحصىٰ لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى ، فعند ذلك وهنالك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ، الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل علىٰ رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ أي إلىٰ أهله ﴿ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أن نضيق عليه ، وقيل معناه : نُقَدّر من التقدير وهي لغة مشهورة ، قَدَر وقدّر كما قال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ، ما تقدِرْ يكن ، فلك الأمر[3]

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل[4] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ ـ ١٤٤] قيل : معناه فلولا أنه سبح الله هناك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلىٰ يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنىٰ ما روي عن سعيد بن

---

(١) تفسير الطبري جـ١٧/ ٦٣ . سورة الأنبياء .
(٢) الأجاج : الملح .
(٣) تَقْدِر وتقدِّر : الأولىٰ بكسر الدال المخففة والثانية بالفتح مع التشديد .
(٤) وقيل : ابتلع الحوت حوت آخر فصار في ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر .

جبير في إحدىٰ الروايتين عنه[1] .

وقيل معناه : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً .

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام . . . إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وروىٰ ابن جرير في تفسيره ، والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق ، عمن حدثه ، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحىٰ الله إلىٰ الحوت : أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً . فلما انتهىٰ به إلىٰ أسفل البحر سمع يونس حساً ، فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحىٰ الله إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة . . . ! ! قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : يارب ، العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح . . . ؟

قال : نعم : قال : فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ » .

وعن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فأقبلت الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . . . ! ! ، فقال : أما تعرفون ذاك . . . ؟ قالوا : يا رب ومن هو . . . ؟ قال : عبدي يونس ،

---

(١) تفسير الطبري جـ١٧/ ٦٤ .

قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له إليك عمل متقبل ودعوة مجابة . . . ؟ قال : نعم ، قالوا : يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء . . ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ » [الصافات : ١٤٥] .

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره[(١)] : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر ، أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك ، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ يقول : « إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فأمر الحوت فطرحه في العراء » .

ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به .

زاد ابن أبي حاتم : قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث ، أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا : يا أبا هريرة . . وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء[(٢)] ، قال أبو هريرة : وهيأ الله له أروية[(٣)] وحشية تأكل من خشاش الأرض ، أو قال هشاش الأرض ، قال : فتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة . حتىٰ نبت .

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة ... من الله لولا الله أصبح ضاوياً

وقد قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ ﴾ أي ألقيناه ﴿ بِٱلۡعَرَآءِ ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار ، بل هو عار منها ، ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد : كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوش ليس عليه شيء ، ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ

---

(١) تفسير الطبري جـ١٧/ ٦٥ .
(٢) الدباء : القرع .
(٣) الأروية : أنثىٰ الوعل . الجمع : أروى .

﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد : وهو القرع[1] .

قال بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حكم جمة ، منها أن ورقه في غاية النعومة ، وكثير وظليل ، ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلىٰ آخره ، نياً ومطبوخاً ، وبقشره وببذره أيضاً . وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك .

وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالىٰ له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعىٰ في البرية ، وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه . ولهذا قال تعالى ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك ـ وهو ابن أبي وقاص ـ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » قال : فقلت : يا رسول الله . . . هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هي ليونس خاصةً وللمؤمنين عامةً إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] فهو شرط من الله لمن دعاه به[2] » .

عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » . قال أبو سعيد الأشج : يريد به : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد ، عن أبيه سعد

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٣/ ٦٥ .

(٢) تفسير الطبري جـ١٧/ ٦٥ .

ـ وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه ـ قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين . هل حدث في الإسلام شيء ؟ قال : لا . وماذاك ؟ قلت : لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام قال فأرسل عمر إلىٰ عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت علىٰ أخيك السلام ؟ قال : ما فعلتُ . قال سعد : قلت : بلى ، حتىٰ حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط ألا تغشىٰ بصري وقلبي غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئك بها ، أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتىٰ قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلىٰ منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ؟ أبو إسحاق » ؟ قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « مه » ؟ قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء الأعرابي فشغلك . قال : « نعم . . . دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٩] وذكره تعالىٰ في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به[1] .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « وما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ، ونسبه إلىٰ أبيه » .

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوىٰ أربعة أحاديث ، هذا أحدها .

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يونس بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد ان يقول أنا خير من يونس بن متى » . تفرد به أحمد .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لاينبغي لأحد أن يقول : أنا عند الله خير من يونس بن متى » .

إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به .

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفىٰ موسىٰ من العالمين .

قال البخاري في آخره « . . . ولا أقول : إن أحداً أفضل من يونس بن متى » وهذا اللفظ يقوي أحد القولين من المعنى : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » أي ليس لأحد أن يفضل نفسه علىٰ يونس .

---

(١) البخاري أنبياء ٢٤ ، ٣٥ ، وتفسير سورة ٤٥ و٢٦ وسورة ٦/٣٧ ومسلم فضائل ١٦٦ و١٦٧ ، والترمذي صلاة٢٠ .

ذكر قصة موسى الكليم
عليه الصلاة والسلام

وهو موسىٰ بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣] .

وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة . وقد تكلمنا علىٰ ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته ها هنا من ابتدائها إلىٰ آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى .

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦] .

يذكر الله تعالىٰ ملخص القصة ، ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو علىٰ نبيه خبر موسىٰ وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ ، أي تجبر وعتا وطغىٰ وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى . وجعل أهلها شيعاً ، أي قسم رعيته إلىٰ أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ،

يستبعدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكان الحامل له علىٰ هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر علىٰ يديه . وذلك ـ والله أعلم ـ حين كان جرىٰ علىٰ سارة امرأة الخليل إبراهيم من ملك مصر ، من إرادته إياها علىٰ السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلىٰ فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يُغنيَ حذر من قدرٍ .

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأىٰ في منامه ، كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة . وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك أهل مصر علىٰ يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك البنات والنسوة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . وهم بنو إسرائيل ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً . وقد جرىٰ هذا كله لبني إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] الآية وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٧ ـ ٥٩] . وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى ، حتىٰ جعل رجالاً

وقوابل يدورون علىٰ الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته .

وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضعف شوكة بني إسرائيل ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم .

وهذا فيه نظر ، بل هو باطل . وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ ﴾ [غافر : ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى .

هذا ، والقدر يقول : يا أيهذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه : قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره : أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لايعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلىٰ فراشك ، ولا يغذىٰ إلا بطعامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع علىٰ سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك علىٰ يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحيَ إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها!

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا إلىٰ فرعون قلة بني إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشي أن تتفانىٰ الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسىٰ عليه السلام ، ولد في عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ما حملت ، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحمل . فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً ، فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت

ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت ، فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به .

موسى في قصر فرعون

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٧ ـ ٩] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ ﴾ [النحل : ٦٨ ـ ٦٩] الآية . وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلي : واسم أم موسىٰ « أيارخا »[1] ، وقيل « أياذخت » . . المقصود أنها أرشدت إلىٰ هذا الذي ذكرناه ، وألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك . وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر علىٰ دار فرعون ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ قال : بعضهم : هذه « لام » العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه ، وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً . صارت اللام معللة كغيرها . . . والله أعلم . ويقوي هذا التقدير الثاني قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ والتابعين لهما ﴿ كَانُوا۟

---

(١) وقيل بوحانذ أو بوكابد .

خَٰطِـِٔينَ ﴾ ، أي كانوا علىٰ خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن علىٰ فتحه ، حتىٰ وضعنه بين يدي امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف . وقيل إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى . وقيل بل كانت عمته ، حكاه السهيلي . . والله تعالىٰ أعلم[1] .

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران ، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة .

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب ، ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ . فقال لها فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا . أي لا حاجة لي به . والبلاء موكل بالمنطق !

وقولها : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع : أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وذلك أنهما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم ، أن قيضهم لالتقاطه ، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده ؟

وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسىٰ « دربتة » ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم علىٰ كتاب الله عز وجل .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٠/ ٢١ .

﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٠ ـ ١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسىٰ ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي صبرناها وثبتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ وهي ابنتها الكبرىٰ ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره ، واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بعد . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده **ولهذا قال** : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وذلك لأن موسىٰ عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره : واجتهدوا علىٰ تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلىٰ السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته . فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ ؟ قال ابن عباس : لما قلت ذلك ، قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته[1] .

فأطلقوها وذهبوا معها إلىٰ منزلهم ، فأخذته أمه . فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصُّه ويرضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلىٰ « آسية » يعلمها بذلك ، فاستدعتها إلىٰ منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها وقال إن لي بعلاً وأولاداً ، ولست أقدر علىٰ هذا إلا أن ترسليه معي . فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات ، فرجعت به تحوزه إلىٰ رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ

---

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٢٣ .

ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .

وقد امتن علىٰ موسىٰ بهذا ليلة كلمه ، فقال تعالىٰ له فيما قال : ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٧ ـ ٣٩] وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف : أي تطعم وترفه وتغذىٰ بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس بمرأىٰ مني ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري : ﴿ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القصص ١٤ ـ ١٧] .

لما ذكر الله تعالى أنه أنعم علىٰ أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخَلْق والخُلُق[1] ، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ .

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلىٰ أرض مدين وإقامته هنالك ، حتىٰ كمل الأجل وانقضىٰ الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به . كما سيأتي .

---

(١) الخَلْق والخُلُق : الأولىٰ بفتح الخاء وتسكين اللام ومعناها الجسم والعمر والثانية بضم الخاء واللام ومعناها الحكمة وحسن العمل .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشاءين[1] .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي يتضاربان ويتهارشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي قبطي . قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق . ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وذلك أن موسىٰ عليه السلام . كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلىٰ تبني فرعون له وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزُّوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله ـ أي من الرضاعة ـ ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي بموسىٰ عليه السلام علىٰ ذلك القبطي أقبل إليه موسىٰ ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : بعصاً كانت معه ، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها .

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ، ولم يرد موسىٰ قتله بالكلية ، وإنما أراد زجره وردعه . ومع هذا ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

[القصص : ١٥ ـ ١٧] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

[القصص : ١٨ ـ ٢١] .

يخبر الله تعالى أن موسىٰ أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أي من فرعون وملئه ـ أن

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٠/٢٨ .

يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسىٰ في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوىٰ ظنونهم أن موسىٰ منهم ويترتب علىٰ ذلك أمر عظيم .

فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي يتلفت ، فبينما هو كذلك ، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي يصرخ به ويستغيثه علىٰ آخر قد قاتله ، فعنفه موسىٰ ولامه علىٰ كثرة شره ومخاصمته ، قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسىٰ وللإسرائيلي ، فيردعه عنه ويخلصه منه ، فلما عزم علىٰ ذلك وأقبل علىٰ القبطي ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع علىٰ ما كان صنع موسىٰ بالأمس ، وكأنه لما رأىٰ موسىٰ مقبلاً إلىٰ القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لما عنفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس . فذهب القبطي فاستعدىٰ فرعون علىٰ موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأىٰ من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي . فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله علىٰ هذا . . . والله تعالىٰ أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسىٰ هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب . ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أي من هذه لبلدة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي فيما أقول لك .

* * *

خروج موسى من مصر إلى مدين

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ، أي فخرج من مدينة مصر من فوره علىٰ وجهه لا يهتدي إلىٰ طريق ولا يعرفه ، قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ [القصص : ٢١ ـ ٢٤] .

يخبر الله تعالىٰ عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب ، أي يلتفت ، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلىٰ أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي عسىٰ أن تكون هذه الطريق موصلة إلىٰ المقصود . وكذا وقع ، فقد أوصلته إلىٰ مقصود وأي مقصود .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئراً يستقون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسىٰ عليه السلام في أحد قولي العلماء .

ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس .

وعن أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعلهن كن سبعاً ، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن ، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محظوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوىٰ بنتين ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي لا نقدر علىٰ ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالىٰ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا علىٰ فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فتشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسىٰ فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقىٰ لهما وسقىٰ غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان . قال أمير المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقىٰ ذنوباً واحداً فكفاهما .

ثم تولىٰ إلىٰ الظل ، قالوا : وكان ظل شجرة من السمر وروىٰ ابن جرير عن ابن مسعود ، أنه رآها خضراء ترف ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

قال عطاء بن السائب : لما قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

[القصص : ٢٥ ـ ٢٨] .

لما جلس موسىٰ عليه السلام في الظل وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ سمعته الامرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلىٰ أبيهما فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه بما كان من أمر موسىٰ عليه السلام . فأمر إحداهما ، أن تذهب إليه فتدعوه ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ أي مشي الحرائر ، ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ ﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها

ريبة ، وهذا من تمام حيائها وصيانتها . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ ﴾ وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ، ﴿ قَالَ ﴾ له الشيخ : ﴿ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس ، وجاء مصرحاً به في حديث ، ولكن في إسناده نظر .

وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه ، حتىٰ أدركه موسىٰ عليه السلام وتزوج بابنته .

وروىٰ ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري : أن صاحب موسىٰ عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين وقيل : إنه ابن أخي شعيب وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب .

والمقصود : أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشَّره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدىٰ البنتين لأبيها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ أي لرعي غنمك ، ثم مدحته بأنه قوي أمين .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال كوني ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق[1] .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته : أكرمي مثواه وصاحبة موسىٰ حين قالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

---

(١) تفسير الطبري جـ ٢٠/ ٤١ .

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

واستدل أصحاب أحمد علىٰ صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة ، كما جرت به العادة ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجماً عليه في كتابه : « باب استئجار الأجير علىٰ طعام بطنه » حدثنا محمد بن المصفّىٰ الحمصي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن علي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح قال : سمعت عتبة بن الندر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ : طسم ، حتىٰ إذا بلغ قصة موسىٰ قال : « إن موسىٰ عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين ـ أو عشر سنين ـ علىٰ عفة فرجه وطعام بطنه » .

ثم قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ ، يقول : إن موسىٰ قال لصهره : الأمر علىٰ ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان عليَّ والله علىٰ مقالتنا سامع وشاهد ، ووكيل عليّ وعليك ومع هذا فلم يقض موسىٰ إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو عشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضىٰ موسى ؟ فقلت : لا أدري حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضىٰ أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أي الأجلين قضىٰ موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » .

وعن مجاهد مرسلاً : أن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال : « أبرهما وأوفاهما » .

ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب ، أن رسول الله ﷺ سئل : أي الأجلين قضىٰ موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » قال : « وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرىٰ منهما » .

فلما أراد فراق شعيب ـ سأل امرأته أن تسال أباها أن يعطيَها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه ، من ماله لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حساناً، فانطلق موسىٰ عليه السلام إلى عصاً قسمها من طرفها ، ثم وضعها في أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض ، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة ، قال فأتأمت وألبنت ، ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ، ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ، ولا كموش تفوت الكف . قال النبي ﷺ : « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية ».

قال ابن لهيعة : « الفشوش : واسعة الشخب ، والضبوب : طويلة الشرع تجره . والعزوز : ضيقة الشخب ، والثعول : الصغيرة الضرع كالحلمتين ، والكموش : التي لا يحكم الكف علىٰ ضرعها لصغره » .

حدثنا أنس بن مالك قال : « لما دعا نبي الله موسىٰ صاحبه إلىٰ الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت علىٰ غير لونها فلك ولدها ، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام » وهذا إسناد جيد رجاله ثقات . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله « لابان » أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ، ففعل نحو ما ذكر عن موسىٰ عليه السلام . . . والله تعالىٰ أعلم .

تكليم الله تعالى موسى

قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص : ٢٩ ـ ٣٢] .

تقدم أن موسىٰ قضىٰ أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله :

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ وعن مجاهد : أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها .

وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أي من عند صهره ، ذاهباً ـ فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم ـ أنه اشتاق إلىٰ أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف . فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه .

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلىٰ السلوك في الدرب المألوف ، وجعل يوري زناده فلا يوري شيئاً واشتد الظلام والبرد .

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تتأجج في جانب الطور ـ وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه والله تعالىٰ أعلم رآها دونهم ، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل واحد ، ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فدل علىٰ أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة ، لقوله في الآية الأخرى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ ـ ١٠] فدل علىٰ وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع الكل في سورة النمل في وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل : ٧] وقد أتاهم بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نوراً وأي نور ؟ !

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في النمل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٩] .

وقال تعالىٰ في سورة طه : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا

تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه : ١١ ـ ١٦] .

قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ أي أن موسىٰ سمع كلام الله الذي ليس بحرفٍ ولا صوت لأن كلام الله ليس ككلامنا .

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسىٰ إلىٰ تلك النار التي رآها فانتهىٰ إليها ، وجدها تتأجج في شجرة خضراء من العوسج[1] ، وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد . فوقف متعجباً ، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص : ٤٤] . وكان موسىٰ في وادٍ اسمه « طوى » فكان موسىٰ مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده علىٰ وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفاً علىٰ بصره .

ثم خاطبه الله تعالىٰ كما يشاء قائلاً له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص ٣٠] ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التي لا بد من كونها ووجودها ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ أي من خير وشر ، وحضه وحثه علىٰ العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصىٰ مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر علىٰ كل شيء ، الذي يقول للشيء كن فيكون : ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ١٧] أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها ؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ

---

(١) العوسج : الشوك .

أُخۡرَىٰ ﴾ [طه : ١٨] . أي بلىٰ هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ، ﴿ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾ [طه : ١٩] .

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع علىٰ أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهاناً علىٰ صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل : ما هذه التي في يديك . . . ؟ قال : عصاي ، قال : ألقها إلىٰ الأرض ﴿ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾ فهرب موسىٰ أمامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصاً في يده .

وقد قال الله تعالىٰ في الآية الأخرى : ﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ ﴾ [القصص : ٣١] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات يقال له الجان والجنان ، وهو لطيف لكن سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة . فلما عاينها موسىٰ عليه السلام : ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا ﴾ ، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ ﴾ أي ولم يلتفت ، فناداه ربه قائلاً له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ .

فلما رجع أمره الله تعالىٰ أن يمسكها ﴿ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [طه : ٢١] فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده في كم مدرعته ، ثم وضع يده في وسط فمها . وعند أهل الكتاب : أمسك بذنبها ، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصاً ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين !

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال : ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ ﴾ [القصص : ٣٢] . قيل معناه إذا خفت فضع يدك علىٰ فؤادك يسكن جأشك .

وقال تعالىٰ في سورة النمل : ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ

ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ أي هاتان الآيتان وهما : العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص : ٣٢]ومع ذلك سبع آيات أخر . فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة الإسراء ، حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [١٠١ ـ ١٠٢] .

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [١٣٠ ـ ١٣٣] كما سيأتي الكلام علىٰ ذلك في موضعه .

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات ، فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا علىٰ هذا لأنه قد اشتبه أمرها علىٰ بعض الرواة ، فظن أن هذه هي هذه كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما أمر موسىٰ عليه السلام بالذهاب إلىٰ فرعون ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

[القصص : ٣٣ ـ ٣٥] .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسىٰ عليه السلام ، في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلىٰ عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا

﴿ يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي اجعله معي معيناً ورداءاً ووزيراً يساعدني ، ويعينني علىٰ أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً .

قال الله تعالىٰ مجيباً له إلىٰ سؤاله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي برهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ في سورة طه : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه : ٢٤ ـ ٢٨] قيل إنه أصابه في لسانه عقدة صغيرة ، بسبب تلك الجمرة التي وضعها علىٰ لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه آسية وقالت : إنه طفل ، فاختبره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ الثمرة فصرف الملك يده إلىٰ الجمرة ، فأخذها فوضعها علىٰ لسانه فأصابه عقدة صغيرة بسببها . فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية ، قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية .

ولهذا قال فرعون ، قبحه الله ، فيما زعم أنه يعيب به الكليم : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] أي يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده .

ثم قال موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٢٩ ـ ٣٦] .

أي قد أجبناك إلىٰ جميع ما سألت ، وأعطيناك الذي طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحيَ الله إلىٰ أخيه فأوحىٰ إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أي أخ أَمَنُّ علىٰ أخيه ؟ فسكت القوم ، فقال عائشة لمن حول هودجها :

هو موسىٰ بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحي إليه . قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

موسى يقابل فرعون بالحجة

وقال الله تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١) [١٠ ـ ٢١] .

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارىٰ بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه .

فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى ، ونظر إلىٰ موسىٰ بعين الازدراء والتنقص قائلاً له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا ؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟

وهذا يدل علىٰ أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب : من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين ، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر .

وقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] أي وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منا وجحدت نعمتنا .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء : ٢٠] أي قبل أن يوحىٰ إلي

---

(١) عندما خرج سيدنا موسىٰ من مصر لم يخرج جبناً لأن الأنبياء يستحيل عليهم أن يكونوا جبناء .

وينزل عليَّ ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١] .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] أي وهذه النعمة التي ذكرت ، من أنك أحسنت إلي وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨] .

يذكر الله تعالى ما كان بين فرعون وموسىٰ من المقاولة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم علىٰ فرعون اللئيم ، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية .

وذلك أن فرعون ـ قبحه الله ـ أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٤] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور ، الإله الحق كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] .

ولهذا قال لموسىٰ عليه السلام علىٰ سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثَمَّ[1] رب أرسله : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] لأنهما قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦] فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟

فأجابه موسىٰ قائلاً : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ يعني

---

(١) ثم بمعنىٰ هناك ، أي ليس هناك رب أرسل موسى .

رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيونات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه ، علىٰ سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسىٰ عليه السلام : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعني كلام هذا قال موسىٰ مخاطباً له ولهم ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة في الآباد ، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران في **قوله تعالى** : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [**فصلت : ٥٣**] .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته ، بل استمر علىٰ طغيانه وعناده وكفرانه : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفي فلك يسبحون ، ويتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون . فهو تعالىٰ الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج علىٰ فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوىٰ العناد ، عدل إلىٰ استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ .

[**الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣**] .

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم ، الذي بهر به العقول والأبصار ، حين ألقىٰ عصاه فإذا هي ثعبان

مبين ، أي عظيم الشكل ، بديع في الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتىٰ قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد وخوف عظيم ، حيث إنه حصل له إسهال أكثر من أربعين مرة في اليوم وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسىٰ عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلىٰ جيبه واستخرجها رجعت إلىٰ صفتها الأولى .

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون ـ لعنه الله ـ بشي من ذلك ، بل استمر علىٰ ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر ، وأراد معارضته بالسحرة . فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة علىٰ فرعون وملئه ، وأهل دولته وملّته . . ولله الحمد والمنة .

وقال الله تعالىٰ في سورة طه : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ .
[٤١ ـ ٤٦] .

يقول تعالى مخاطباً لموسىٰ فيما كلمه به ليلة أوحىٰ إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلّمه منه إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلىٰ أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري ، فلبث فيها سنين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أي مني لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي .

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ يعني ولا تفترا في ذكري إذا قدمتا عليه ووفدتما إليه ، فإن ذلك عون لكما علىٰ مخاطبته ومجاوبته ، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي

يذكرني وهو ملاقٍ قرنه » .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٣ ـ ٤٤] . وهذا من حلمه تعالىٰ وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردىٰ خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه بألطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى .

كما قال لرسوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] . قال الحسن البصري : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ اعذرا إليه ، قولا له : إن لك رباً ولنا معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إني إلىٰ العفو والمغفرة أقرب مني إلىٰ الغضب والعقوبة .

قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية : يامن يتحبب إلىٰ من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ ، وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً ، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر فثبتهما الله تعالىٰ وهو العلي الأعلىٰ فقال تعالى : ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥] .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

[طه : ٤٧ ـ ٤٨] . يذكر الله تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلىٰ فرعون فيدعواه إلىٰ الله تعالى ، أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم . ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد ، ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ تقييد مفيد بليغ عظيم ، ثم تهدداه وتوعداه علىٰ التكذيب فقالا : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي كذب بالحق بقلبه ، وتولىٰ عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره : أنه لما قدم من بلاد مدين ، دخل علىٰ أمه وأخيه هارون ، وهما يتعشيان من طعام فيه « الطفشيل » وهو اللفت ، فأكل معهما . ثم قال : يا هارون . . إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلىٰ عبادته ، فقم معي . فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق . فقال موسىٰ للبوابين والحجبة : أعلموه أن رسول الله بالباب . فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل . وقال محمد بن إسحاق : أذن لهما بعد سنتين ، لأنه لم يك أحد يتجاسر علىٰ الاستئذان لهما . . . والله تعالىٰ أعلم . ويقال إن موسىٰ تقدم إلىٰ الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهم فوقفا بين يديه فدعواه إلىٰ الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسىٰ عليه السلام : إن هارون اللاوي ، يعني من نسل لاوي بن يعقوب سيخرج ويتلقاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلىٰ فرعون وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات ، وقال له : إني سأقسّي قلبه فلا يرسل الشعب[١] ، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر ، وأوحىٰ الله إلىٰ هارون أن يخرج إلىٰ أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب ، فلما تلقاه أخبره موسىٰ بما أمره به ربه ، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلىٰ فرعون ، فلما بلغاه رسالة الله قال : من هو الله . . . لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل .

---

(١) يريد بالشعب : بني إسرائيل .

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ ـ ٥٥] .

قال الله تعالىٰ مخبراً عن فرعون: إنه أنكر إثبات الصانع تعالىٰ قائلاً : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما قدره له ، فطابق عمله فيهم علىٰ الوجه الذي قدره وعلمه ، لكمال علمه وقدرته وقدره . **وهذه الآية كقوله تعالى**: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [**الأعلى : ١ ـ ٣**]أي قدر قدراً وهدىٰ الخلائق إليه .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره ؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ؟ فهلا اهتدىٰ إلىٰ ما ذكرته القرون الأولى ؟ ﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل علىٰ خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك ، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم علىٰ ذلك ربي عز وجل ، ولا يظلم ربي أحداً مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسىٰ ربي شيئاً .

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته علىٰ خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، **كما قال تعالى** ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالىٰ الخالق الرازق ، **وكما قال تعالى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ

تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١ ـ ٢٢] .

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به علىٰ المعاد فقال : ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الأرض ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

النِّزال

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٦ ـ ٥٩] .

يخبر الله تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى . إن هذا الذي جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله . ثم طلب من موسىٰ أن يواعده إلىٰ وقت معلوم ومكان معلوم .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسىٰ عليه السلام : أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس : ولهذا ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام ، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة ، لأنه علىٰ بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٠ ـ ٦٤] .

يخبر الله تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت

بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير ، فقيل كانوا سبعين : وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وروىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروىٰ عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلىٰ العرفاء فيتعلموا السحر . ولهذا قالوا : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ [طه : ٧٣]وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادىٰ فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء : ٤٠] .

وتقدم موسىٰ عليه السلام إلىٰ السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ .

قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر . . والله تعالىٰ أعلم . وأسروا التناجيَ بهذا وغيره .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ يقولون : إن هذا وأخاه هارون ، ساحران عليمان مطبقان ومتقنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا علىٰ الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمر عليكم بهذه الصناعة .

﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ وإنما قال الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنىٰ يعارض البهتان ، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان ، علىٰ يدي عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان !

وقولهم ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾ أي جملة

واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً علىٰ التقدم في هذا المقام ، لأن فرعون كان وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٥ ـ ٦٩] .

إسلام السحرة

لما اصطف السحرة ووقف موسىٰ وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تُلقيَ قبلنا ، وإما أن نلقيَ قبلك ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلىٰ حبال وعصيّ ، فأودعوها الزئبق وغيره ، من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] . وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي خاف علىٰ الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يُلْقِيَ ما في يده ، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر ، فأوحىٰ الله إليه في الساعة الراهنة : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ . فعند ذلك ألقىٰ موسىٰ عصاه وقال : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨١ ـ ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٧ ـ ١٢٢].

وذلك أن موسىٰ عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة ذات قوائم ، فيما

ذكره غير واحد من علماء السلف ، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج ، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً ، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي علىٰ ما ألقوه من الحبال والعصي ، فجعلت تلقفه واحداً فواحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا علىٰ أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا حيلة ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق . وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدىٰ وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلىٰ ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوىٰ ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٠ ـ ٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهيَّأُ لهم وتُزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلىٰ تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، ذلك أن فرعون لما رأىٰ هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسىٰ وهارون في الناس علىٰ هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأىٰ أمراً بهره ، وأعمىٰ بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع ، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ؟ ! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد . وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إِنَّهُۥ

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

[الأعراف : ١٢٣]

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروج مثله علىٰ الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسىٰ لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتىٰ كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، ووادٍ سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالىٰ في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [١٠٣ ـ ١٢٦] .

قال الله تعالىٰ في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [٧٥ ـ ٨٢] .

وقال الله تعالىٰ في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

[الشعراء : ٢٩ ـ ٥١] .

والمقصود أن فرعون كذب وافترىٰ وكفر غاية الكفر في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وأتىٰ ببهتان يعلمه العالِمُون بل العالَمُون في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف١٢٣] وقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ يعني يقطع اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ وعكسه ، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي ليجعلنهم مثلةً ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته

وأهل ملته . ولهذا قال : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] أي على جذوع النخل ، لأنها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ يعني في الدنيا .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه : ٧٢] أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قيل معطوف ، وقيل قسم ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ٧٣] أي ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي وأدوم من هذه الدار الفانية . وفي الآية الأخرى : ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] يقولون له : فإياك أن تكون منهم . فكان منهم . ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه : ٧٥] أي المنازل العالية ، ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٦] فاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك مشيئة الله التي لا تغالب ولا تمانع ، وحكم العلي العظيم بأن فرعون ـ لعنه الله ـ من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم . ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون ـ لعنه الله ـ صلبهم وعذبهم رضي الله

عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخر شهداء بررة !

ويؤيد هذا قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

فصل

ولما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق .

قال الله تعالىٰ بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

يخبر الله تعالى عن الملأ من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرضوا ملكهم فرعون علىٰ أذية نبي الله موسىٰ عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى .

قالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾ يعنون ـ قبحهم الله ـ أن دعوته إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلىٰ اعتقاد القبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم « **ويذرك وآلهتك** »[1] أي وعبادتك . ويحمل شيئين : أحدهما : ويذر دينك ، وتقويه القراءة الأخرى . والثاني : ويذر أن يعبدك ، فإنه كان يزعم أنه إله ، لعنه الله .

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ أي غالبون .

---

(١) يبدو أن القراءة هنا هي ﴿ويذرك وإلاهتك﴾ أي وعبادتك .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا علىٰ بليتكم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [**يونس : ٨٤ ـ ٨٦**]

وقولهم : ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : في سورة حم المؤمن : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ .

[**غافر : ٢٣ ـ ٢٤**]

وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان علىٰ دين فرعون وملئه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [**غافر : ٢٥**] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسىٰ إنما كان علىٰ وجه الإهانة والإذلال ، والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون علىٰ القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [**غافر : ٢٦**] . ولهذا يقول الناس علىٰ سبيل التهكم : « **صار فرعون مذكراً** » وهذا منه ، فإن فرعون في زعمه خاف علىٰ الناس أن يضلهم موسىٰ عليه السلام !

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ٢٧] أي عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بجنابه ، من أن يسطو فرعون وغيره علي بسوء . وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٨ ـ ٢٩] .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، كان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم علىٰ نفسه . وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى . . . والله تعالىٰ أعلم(١) .

قال ابن جريج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسىٰ إلا هذا ، والذي جاء من أقصىٰ المدينة ، وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم .

وقال الدارقطني : لا يعرف من اسمه « شمعان » بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . حكاه السهيلي .

وفي تاريخ الطبري : أن اسمه « خير » . . والله تعالىٰ أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلما هم فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل موسىٰ عليه السلام ، وعزم علىٰ ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن علىٰ موسى . فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال ما قال علىٰ وجه المشورة والرأي .

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أفضل الجهاد كلمة عدل**

---

(١) ويه قال الطبري جـ٢٣/ ٣٨ .

عند سلطان جائر »[1] وهذا من أعلىٰ مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ! لأن فيه عصمة نبي ، ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه . . . والأول أظهر . . والله تعالىٰ أعلم .

قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام .

يعني لأنه ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] أي بالخوارق التي دلت علىٰ صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة ، لأنه : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ [غافر : ٢٨] ولا يضركم ذلك ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا المقام ، من أعلىٰ مقامات التلطُّف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا المُلك العزيز ، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم !

وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسىٰ به حتىٰ أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور ، والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلىٰ البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلىٰ أسفل السافلين .

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق ، البار الراشد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي عالين علىٰ الناس حاكمين عليهم ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ ؟ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي في جوابه هذا كله : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

---

(١) أبو داود حديث رقم ٤٣٤٤ ملاحم ، والترمذي رقم ٤٧١٢ فتن ، ومسند أحمد ٣/ ١٩ .

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسىٰ من عند الله لا محالة . وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً .

قال الله تعالىٰ إخباراً عن موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢ ـ ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٣ ـ ١٤] .

وأما قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن علىٰ رشاد من الأمر ، بل كان علىٰ سفه وضلال وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلىٰ أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال ، في دعواه أنه رب ، تعالىٰ الله ذو الجلال !

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٠ ـ ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٦ ـ ٩٩] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر : ٣٠ ـ ٣٥] .

يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسىٰ أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم ، من النقمات والمثلات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلىٰ زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج علىٰ أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجىٰ الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التناد ، أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا علىٰ ذلك ، ولا يجدون إلىٰ ذلك سبيلاً ﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠ ـ ١٢] وقال تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٦] .

وقرأ بعضهم : ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ بتشديد الدال ، أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس . فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ .

[الأنبياء : ١٢ ـ ١٣] .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلىٰ الخلق في دنياهم وأخراهم . وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلىٰ توحيد الله

وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل . ولهذا قال : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أي وكذبتم في هذا . ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده ، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أي يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ قرىء بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ـ ولا تخالفه إلا بلا برهان ـ فإن الله يطبع عليها ، أي يختم عليها بما فيها .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧] .

كذب فرعون موسىٰ عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص : ٣٨] .

وقال ها هنا : ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ ويحتمل هذا معنيين : أحدهما : وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم رباً غيري . والثاني : في دعواه أن الله أرسله . والأول : أشبه بظاهر حال فرعون ، فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع والثاني : أقرب إلىٰ اللفظ حيث قال : ﴿ أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أي فأسأله هل أرسله أم لا . . . ؟ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أي في دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسىٰ عليه السلام ، وأن يحثهم علىٰ تكذيبه . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وقرىء :

﴿وَصَدَّ عن السبيل﴾[1] ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلا في خسار ، أي باطل ، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه ، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلىٰ نيل السماء أبداً ـ أعني السماء الدنيا ـ فكيف بما بعدها من السموات العلى ؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل ؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلىٰ منه ، وأنه كان مبنياً من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرون في ضرب اللبن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون علىٰ شيء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية . ولهذا قالوا لموسى : ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعـراف : ١٢٩] . فوعدهم بأن العاقبة لهم علىٰ القبط ، وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلىٰ نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه . قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٤٠] .

يدعوهم رضي الله عنه إلىٰ طريق الرشاد الحق ، وهي متابعة نبي الله موسىٰ وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ، ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير

---

(١) بفتح الصاد وتشديد الدال مع الفتح .

الذي ملكوت كل شيء بيديه . الذي يعطي علىٰ القليل كثيراً ، ومن عدله لا يجازي علىٰ السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ، التي من وافاها ـ مؤمناً قد عمل الصالحات • فله الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد ، والخير الذي كل ما لهم في مزيد .

ثم شرع في إبطال ماهم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

[غافر : ٤١ ـ ٤٦] .

كان يدعوهم إلىٰ عبادة رب السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعونه إلىٰ عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون !

ولهذا قال لهم علىٰ سبيل الإنكار ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ [غافر : ٤١ ـ ٤٢] .

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوىٰ الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار ، فقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار ؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم ، فيدخل طائعهم الجنة ، وعاصيهم إلىٰ النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا علىٰ العناد بقوله : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أي بإنكاره فسلم مما أصابهم من العقوبة علىٰ كفرهم بالله ، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله ، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات ، التي ألبسوا بها علىٰ عوامهم وطغامهم ، ولهذا قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي أحاط ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً علىٰ النار . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ وقد تكلمنا علىٰ دلالة هذه الآية علىٰ عذاب القبر في التفسير ، ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، بالترهيب تارةً والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٣] .

يخبر الله تعالى أنه ابتلىٰ آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع . وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا علىٰ كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ والخصب ونحوه ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي هذا الذي نستحقه ، وهذا الذي يليق بنا ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً دعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي الله يجزيهم علىٰ هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي مهما جئتنا

به من الآيات ـ وهي الخوارق للعادات ـ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية . وهكذا أخبر الله تعالىٰ عنهم في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

[يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك عن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت . وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون علىٰ كل حال ، وعن ابن عباس : أمر طاف بهم .

وأما الجراد فمعروف ، وقد روىٰ أبو داود عن أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن الجراد ، فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه »[1] . وترك النبي ﷺ أكله إنما هو علىٰ وجه التقذر له ، كما وترك أكل الضب ، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكرات ، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا علىٰ ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً[2] . وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد ابن جبير والحسن : هو دواب سود صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل هي البراغيث . وحكىٰ ابن جرير عن أهل العربية : أنهما الحمنان ، وهو صغار القردان فوق القمامة ، فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل

---

(١) أبو داود أطعمة حديث رقم (٣٨١٣) و(٣٨١٤) والنسائي صيد ٢٢٦ وابن ماجه صيد ٣٢١٩.

(٢) يقال : « ماله سبد ولبد » ، أي : ماله قليل ولا كثير .

المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

وأما الضفادع فمعروفة ، لبستهم حتىٰ كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم ، حتىٰ إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً[1] ، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ، والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسىٰ عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل ، وفي هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم أبىٰ إلا الإقامة علىٰ الكفر والتماديَ في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض علىٰ وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون علىٰ أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتىٰ جهدوا جوعاً .

فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] .

فدعا موسىٰ ربه فكشفه عنهم . فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغني ، حتىٰ إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتىٰ تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا . فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي أن موسىٰ عليه السلام ، أُمر أن يمشيَ إلىٰ كثيب حتىٰ يضربه بعصاه فمشىٰ إلىٰ كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً ، حتىٰ غلب علىٰ البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له

---

(١) أي دماً طرياً ، والجمع : عبط ، وعباط .

بشيء مما قالوا ، فأسل الله عليهم الضفادع ، ملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا . فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلاّ عاد دماً عبيطاً ، قال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف ، رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ **[الأعراف : ١٣٤ ـ ١٣٦]** .

يخبر الله تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم علىٰ الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عياناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً .

وكلما شاهدوا آية وعاينوها ، وجهدهم وأضنكهم ، حلفوا وعاهدوا موسىٰ لئن كشف عنهم هذه ليؤمنُنَّ به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلىٰ شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آيةً أخرىٰ هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون ويكذبون ويعدون ولا يفون : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلىٰ جهلهم العريض الطويل هذا ، والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم . ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ، أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين .

كما قال تبارك وتعالىٰ وهو أصدق القائلين ، في سورة حم والكتاب المبين :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ .

[الزخرف : ٤٦ ـ ٥٦] .

يذكر الله تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلىٰ فرعون الخسيس اللئيم ، وأنه تعالىٰ أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلىٰ الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يصدون وعن الحق ينصرفون . فأرسل الله عليهم آيات تترىٰ يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله .

﴿ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ، لهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ .

ثم أخبر الله تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها ، وتخرق الأنهار فيها ، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ يتنقص رسول الله موسىٰ عليه السلام ، ويزدريه . بكونه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك العقدة الصغيرة ، التي هي شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالىٰ وأوحىٰ إليه ، وأنزل

بعد ذلك التوراة عليه .

وتنقصه فرعون ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور في يديه ، ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً ، وأتم معرفة ، وأعلىٰ همةً وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى ؟

وقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ لا يحتاج الأمر إلىٰ ذلك ، فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسىٰ عليه السلام بكثير ، كما جاء في الحديث : « **إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع** » ، فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسىٰ الكليم عليه السلام والتسليم والتكريم ! ؟

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ، ولمن قصد إلىٰ الحق والصواب ،ويعمىٰ عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلىٰ القشور ، وترك لب اللباب ، كما هو حال فرعون العمي الكذاب .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلىٰ حال إلىٰ أن صدقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبحهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي بالغرق والإهانة ويسلب العز ، والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك .

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي لمن اتعظ بهم : خاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى

﴿لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ .

[**القصص** : ٣٦ ـ ٤٢] .

يخبر الله تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعىٰ ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كلٌّ قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادىٰ قبط مصر علىٰ كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسىٰ بن عمران عليه السلام أقام الله علىٰ أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ، ولا ينزعون ولا يرجعون .

ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون ـ ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ـ ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ـ والرجل الناصح الذي جاء يسعىٰ من أقصىٰ المدينة ، فقال : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [**القصص** : ٢٠] .

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة ، فإنهم كانوا من القبط .

وقيل بل آمن به طائفةً من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل . **ويدل علىٰ هذا قوله تعالى** : ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [**يونس** : ٨٣] .

فالضمير في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ عائد علىٰ فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل علىٰ موسىٰ لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملئهم أن يِنمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم .

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفىٰ بالله شهيداً : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جبار عنيد مستعلٍ بغير الحق ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي في جميع أموره وشؤونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انجعافها[(١)] وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٤ ـ ٨٦] فأمرهم بالتوكل علىٰ الله والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا علىٰ أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعضٍ . وقوله : ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قيلَ مساجد ، وقيلَ معناه كثرة الصلاة فيها .

قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم .

ومعناه علىٰ هذا : الاستعانة علىٰ ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صَلى .

---

(١) أي الاقتلاع والاستئصال .

وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون علىٰ إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضىٰ حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه ، والمعنىٰ الأول أقوىٰ لقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي متقابلة .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٨ ـ ٨٩] .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسىٰ علىٰ عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ، لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده ، واستمراره علىٰ الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي ، والبرهان القطعي ، فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾ يعني قومه من القبط ، ومن كان علىٰ ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي وهذا يغترّ به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شيء ، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنيّة ، والدور الأنيقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين ، والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة ، وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال أيضاً : صارت أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم ائتني بكيس ، فجاء بكيس ، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة !

رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالىٰ ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالىٰ لها ، وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦ ـ ٢٧] ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسىٰ حين دعا علىٰ فرعون وملئه ، وأمَّن أخوه هارون علىٰ دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلىٰ عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم . وأمرهم الله تعالىٰ فيما ذكر أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً .

فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام . فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق ، واشتد غضبه عليهم ، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[الشعراء : ٥٢ ـ ٦٨] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرموم ، حتىٰ قيل كان في خيوله مئة ألف فحل أدهم ، وكانت

عدة جنوده تزيد علىٰ ألف ألف وستمئة الف ، والله تعالىٰ أعلم . وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمئة ألف . وكان بين خروجهم من مصر بصحبة موسىٰ عليه السلام ودخولهم إليها بصحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وست وعشرون سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءىٰ الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة . فعندها قال أصحاب موسىٰ وهم خائفون : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلىٰ البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا ما لايستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعُدده[1] ، وهم منه في غاية الخوف والذعر ، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر .

فشكوا إلىٰ نبي الله ماهم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه . فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وكان في الساقة ، فتقدم إلىٰ المقدمة ، ونظر إلىٰ البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه ، وهو يقول : ها هنا أمرت . ومعه أخوه هارون ، ويوشع بن نون ، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار ، وقد أوحىٰ الله إليه وجعله نبياً بعد موسىٰ وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف ، ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر ، هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن ، ويقول لموسىٰ عليه السلام : يا نبي الله . . . ها هنا أمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم ، وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب

---

(١) عدده وعدده : الأولىٰ بفتح العين والثانية بضمها .

الحناجر ، عند ذلك أوحىٰ الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلىٰ موسىٰ الكليم : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ . فلما ضربه ، يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله ويقال إنه كناه بأبي خالد والله تعالىٰ أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يسيرون فيه ، حتىٰ قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرىٰ بعضهم بعضاً ! وفي هذا نظر ، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه .

وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال[1] البحر فأذهبته ، حتىٰ صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه ٧٧ ـ ٧٩] .

والمقصود أنه لما آل البحر إلىٰ هذه الحال ، بإذن الرب العظيم الشديد المحال ، أمر موسىٰ عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين . فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه ، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه .

فأراد موسىٰ عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه ، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر علىٰ هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى

---

(١) أي الطين الأسود .

فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٣٣] .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي ساكناً علىٰ هيئته ، لا تغيره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

فلما تركه علىٰ هيئته وحالته وانتهىٰ فرعون ، فرأىٰ ما رأىٰ وعاين ما عاين ، هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه علىٰ خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة علىٰ أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلىٰ باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين علىٰ طاعتي وبلدي ؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهيهات ، ويقدم تارةً ويحجم تارات !

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب علىٰ رمكة حائل[1] فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله ، فحمحم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر ، واستبق الجواد وقد أجاد ، فبادر مسرعاً ، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين ، حتىٰ هم أولهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالىٰ كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منه إنسان .

---

(١) الفرس التي لم تلقح .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٦٥ ـ ٦٨] .

أي في إنجائه عباده فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد ، آية عظيمة ، وبرهان قاطع علىٰ قدرته تعالىٰ العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

[يونس : ٩٠ ـ ٩٢] .

يخبر الله تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارةً وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلىٰ جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل ، وأشفىٰ لنفوسهم . فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت أناب حينئذٍ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ـ ٩٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ـ ٨٥] .

وهكذا دعا موسىٰ علىٰ فرعون وملئه ، أن يطمس علىٰ أموالهم ، ويشدد علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم ، أي حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالىٰ لهما ـ أي لموسىٰ وهارون ـ حين دعوا بهذا : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٩] فهذا من إجابة الله تعالىٰ دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام . ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن

عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذت من حالِّ البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حالِّ البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة »[1] .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ . قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحالَّ بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه) .

ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به[2] .

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس ، وفي بعض الروايات أن جبريل قال : « ما بغضت أحداً بغضي لفرعون » حين قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3] [النازعات : ٢٤] . ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكار ، ونص علىٰ عدم قبوله تعالىٰ منه ذلك ، لأنه ـ والله تعالىٰ أعلم ـ لو رد إلىٰ الدنيا كما كان لعاد إلىٰ ما كان عليه ، كما أخبر الله تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧] قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[4] [الأنعام : ٢٨] وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ .

---

(١) رواه أبو داود وابن جرير والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) صحيح البخاري جـ٣ ـ ٦٣ باب صوم يوم عاشوراء الحديث رقم (١١١) وتاريخ الطبري جـ١/٢٩٧ .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني إسرئيل في موت فرعون ، حتىٰ قال بعضهم إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه علىٰ مرتفع ، قيل علىٰ وجه الماء ، وقيل علىٰ نجوة من الأرض ، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه . ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . لهذا قال : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي مصاحباً درعك المعروف بك ، ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أي أنت آية ﴿ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ﴾ أي من بني إسرائيل ، ودليلاً علىٰ قدرة الله الذي أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : « لتكون لمن خلقك آيةً »[١] . ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك مصاحباً درعك ، لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل علىٰ معرفتك وأنك هلكت . . . والله تعالىٰ أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء .

كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومون » ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسىٰ علىٰ فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسىٰ منهم فصوموا »[٢] .

وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما . . . والله تعالىٰ أعلم .

* * * * *

---

(١) قوله تعالى : ﴿لمن خلقك آية ﴾ بالقاف : أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته ، وبالفاء وقبلها خاء ولام مفتوحتان ليكون المعنى : لتكون لمن جاء بعدك آية وعظة وعبرة .

(٢) البخاري : التفسير ٤٦٨٠ ، ومسلم : الصيام ١١٣٠ .

فصل

فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٦ ـ ١٤١] .

يذكر الله تعالى ماكان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم ، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم ، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] وقال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] وقال ها هنا : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

أي أهلك ذلك جميعه ، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا ، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ، ولم يبق ببلد مصر سوىٰ العامة والرعايا .

لما خرج بنو إسرائيل من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا علىٰ طريق بحر سوف ، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور ، وبالليل أمامهم عمود نار ، فانتهىٰ بهم الطريق إلىٰ ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده علىٰ شاطىء اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتىٰ قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية ،

وقال موسىٰ عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلىٰ بلدهم بعد هذا ، قالوا : وأمر الله موسىٰ عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس ، وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر الله موسىٰ فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم ، لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح ، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم . . . والله أعلم .

قالوا : ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبَّح موسىٰ وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا : (نسبح الرب البهي الذي قهر الجنود ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود) وهو تسبيح طويل ، قالوا : وأخذت مريم النبية أخت هارون دفاً بيدها ، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول ، وجعلت مريم ترتل لهن وتقول : سبحان الرب القهار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر . . . هكذا ورد في كتبهم ، ولعل هذا من الذي حمل محمد بن كعب القرظي علىٰ زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسىٰ هي أخت هارون وموسىٰ مع قوله : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾[1] وقد بينا غلطه في ذلك وأن هذا لا يمكن أن يقال ، ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسىٰ وهارون عليهما السلام ووافقتها أم عيسىٰ عليهما السلام في الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله : يا أخت هارون فلم يدر ما يقول لهم حتىٰ سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : أما علمت أنهم كانوا يُسَمون بأسماء أنبيائهم . . .)[2] .

وقولهم : النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ، ومن بيت الإمرة أميرة ، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحىٰ

---

(١) الآية ٢٨ من سورة مريم .

(٢) رواه مسلم .

إليها ، وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل علىٰ أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب بالدف في العيد ، وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف في أيام منىٰ ورسول الله ﷺ مضطجع مولٍّ ظهره إليهن ووجهه إلىٰ الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا .

وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه والله أعلم .

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلىٰ بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء ، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء أجاجاً لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسىٰ فأخذ خشبة فوضعها فيه فذهبت ملوحته وساغ شربه ، وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً ووصاه وصايا كثيرة .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن علىٰ ما عداه ، من الكتب : ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩] قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ، ما دلهم علىٰ صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا علىٰ قوم يعبدون أصناماً ، قيل كانت علىٰ صور البقر ، فكأنهم سألوهم . لم يعبدونها ؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهةً ، فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم ، في تفضيله إياهم علىٰ عالمي زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذي بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم

ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون ، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد علىٰ الجنس في قوله : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] أي قال بعضهم كما في قوله : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٨] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

روىٰ الإمام أحمد بسنده عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي ﷺ : « الله أكبر . . . ! ! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سنن الذين قبلكم[1] » .

وفي رواية أخرىٰ من حديث أبي واقد الليثي : خرجوا مع رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ خيبر قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعقلون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال : فقلنا يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ؟ قال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

والمقصود أن موسىٰ عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم .

فأمرهم موسىٰ عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم عن بيت

---

(١) رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال : حسن صحيح .

المقدس ، فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه علىٰ لسان إبراهيم الخليل وموسىٰ الكليم الجلي ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف . وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون . في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

[المائدة : ٢٠ ـ ٢٦] .

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أي تنكصوا علىٰ أعقابكم ، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أي فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أي عتاه كفرة متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً . وهذا يدل علىٰ أنهم ملومون في هذه المقالة ، ومذمومون علىٰ هذه الحالة ، من الذلة عن مصاولة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشقياء .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله وقرأ بعضهم : « يُخَافون »[1]

---

(١) بضم الياء وفتح الخاء .

أي يُهابون ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إذا توكلتم علىٰ الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه ، نصركم علىٰ عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فصمم ملؤهم علىٰ النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير .

فيقال إن يوشع بن نون وكالب بن يوقنا لما سمعا هذا الكلام غضبا وشقا ثيابهما وإن موسىٰ وهارون عليهما السلام سجداً إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم . ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ عوقبوا علىٰ نكالهم بالتيهان في الأرض ، يسيرون إلىٰ غير مقصد . ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً . ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلا ذراريهم ، سوىٰ يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسىٰ لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب إلىٰ النفير تكلم الصديق فأحسن ، وتكلم غيره من المهاجرين .

ثم جعل يقول ﷺ : « أشيروا عليّ » حتىٰ قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا علىٰ بركة الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق ـ هو ابن شهاب ـ أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر :

يا رسول الله . . . إنا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه ، أحب إليَّ مما عدل به . أتىٰ رسول الله ﷺ وهو يدعو علىٰ المشركين فقال : والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ لكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك . فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك .

رواه البخاري في التفسير ، والمغازي من طرق عن مخارق به .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا علي بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما سار إلىٰ بدر ، استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار . . . إياكم يريد رسول الله ﷺ ، قالوا : إذن لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ، والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلىٰ برك الغماد[1] لاتبعناك .

* * * * *

(١) موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، وقيل : أقصىٰ معمور الأرض . رواه الإمام أحمد .

فصل
في دخول بني إسرائيل التيه

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلىٰ أربعين سنة .

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين لكن عندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله فلم يفهموا منه شيئاً حتىٰ فهَّمهم موسى ، وجعلوا يقولون لموسى : بلِّغْنا أنت عن الرب عز وجل فإنا نخاف أن نموت ، فبلغهم عنه فقال : هذه العشر الكلمات ، وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذباً ، والأمر بالمحافظة علىٰ السبت ، ومعناه تفرغ يوماً من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت ، ومنها : أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد علىٰ صاحبك شهادة زور ، لا تمد عينك إلىٰ بيت صاحبك ، ولا تشتهِ امرأة صاحبك ، ولا عبده ولا أمته ولا شيئاً من الذي لصاحبك ، ومعناه النهي عن الحسد . وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن الكريم ، وهما قوله تعالىٰ في سورة الأنعام :

﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

[الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣] .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ،

وعمل بها حيناً من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها ، ثم بعد ذلك كله سُلِبُوها[1] فصارت منسوخة مبدلة ، بعدما كانت مشروعة مكملة .

فلله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو الذي يحكم ما يشاء ، ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٠ ـ ٨٢] .

يذكر الله تعالى منّته وإحسانه إلىٰ بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلىٰ جانب الطور الأيمن أي منهم ، لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالىٰ أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع ، منّاً من السماء ، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلىٰ مثله من الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبر ، وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى ، فيقتنصون منها بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام ، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر ، كما قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

إلىٰ أن قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ

---

(١) بضم السين .

أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٩ ـ ٥٧] .

إلىٰ أن قال تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَاشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٦٠ ـ ٦١] .

فذكر الله تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بما يسر لهم من المن والسلوى ، طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه ، بل ينزل الله المن باكراً ، ويرسل عليهم طير السلوىٰ عشياً ، وأنبع الماء لهم ، بضرب موسىٰ عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط عين منه تنبجس ، ثم تفجر ماء زلالاً فيستقون فيشربون ويسقون دوابّهم ، ويدخرون كفايتهم ، وظلل عليهم الغمام من الحر .

وهذه نعم من الله عظيمة ، وعطيات جسيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها . ثمّ ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ، مماتنبت الأرض من بقلها وقثائها وعدسها وبصلها .

فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم إليها ، أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها ـ تجدون بها ما تشتهون وما ترومون ممّا ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ، ولكن لست أجيبكم إلىٰ سؤال ذلك ها هنا ، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى .

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم ، تدل علىٰ أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار .

ولكنه تعالىٰ مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر علىٰ متابعة الشيطان المريد ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

سؤال الرؤية

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا

غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢ ـ ١٤٧] .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة . فعلىٰ هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ،وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه .

والمقصود أن موسىٰ عليه السلام لما استكمل الميقات ، كان فيه صائماً يقال إنه لم يستطعم الطعام . فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة ، ولهذا ثبت في الحديث : أن « **خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » .

فلما عزم علىٰ الذهاب استخلف علىٰ شعب بني إسرائيل أخاه هارون ، المحبب المبجل الجليل ، وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره في الدعوة إلىٰ مصطفيه ، فوصاه ، وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة .

قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ فناداه وناجاه ، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه في الدنيا والأخرى .

*** موسىٰ سمع كلام الله الذي ليس بحرفٍ ولا صوت . ولا لغة .**

ولما أعطي هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية ، وسمع الخطاب ، سأل رفع الحجاب ، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ثم بين تعالىٰ أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوىٰ وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان ، لا يثبت عند التجلي من الرحمن ، ولهذا قال : ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالىٰ قال له : يا موسىٰ إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا

يابس إلا تدهده[1] .

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجابه النور » وفي رواية : النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلىٰ لشيء لا يقوم له شيء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ فنظر إلىٰ الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك علىٰ أوله ، ورأىٰ موسىٰ ما يصنع الجبل فخر صعقاً .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي ، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت ، زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال هكذا بإصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام علىٰ المفصل الأعلىٰ من الخنصر فساخ الجبل . . . لفظ ابن جرير .

وعن عكرمة عن ابن عباس : ما تجلىٰ يعني من العظمة إلا قَدْرُ الخنصر فجعل الجبل دكاً ، قال : تراباً (وخر موسىٰ صعقاً) أي مغشياً عليه : وقال قتادة : ميتاً ، والصحيح الأول . لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ، ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيىٰ بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري ، عن أبيه عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ « لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس سصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا

---

(١) تدهده : تدحرج .

بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزيِ بصعقة الطور » ؟ .

لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال : لا والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر . فقال رسول الله : « لا تخيروني من بين الأنبياء » .

وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه . وفيه : « لا تخيروني علىٰ موسى » وذكر تمامه .

وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء علىٰ وجه الغضب والعصبية ، أو : ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس ينال هذا بمجرد الرأي ، بل بالتوقيف .

ومن قال : إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نسخ باطلاعه علىٰ أفضليته عليهم كلهم ، ففي قوله نظر لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً ، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا . . . والله تعالىٰ أعلم .

ولا شك أنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أفضل البشر بل الخليقة ، قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وما كملوا إلاّ بشرف نبيهم .

وثبت بالتواتر عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتىٰ أولو العزم الأكملون : نوح ـ وإبراهيم ـ وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم .

وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسىٰ باطشاً بقائمة العرش ـ أي آخذاً بها ـ فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » دليل علىٰ أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة : حين يتجلىٰ الرب لفصل القضاء بين عباده

فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال : فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ، ومصطفىٰ رب الأرض والسماء علىٰ سائر الأنبياء ، فيجد موسىٰ باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : « فلا أدري أصعق فأفاق قبلي » ؟ أي وكانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق« أو جوزي لصعقة الطور » ؟ يعني فلم يصعق بالكلية .

وهذا فيه شرف كبير لموسىٰ عليه السلام من هذه الحيثية ، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه . ولهذا نبه رسول الله ﷺ علىٰ شرفه وفضيلته بهذه الصفة . لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : لا ، والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر ، قد يحصل في نفوس المشاهدين ، لذلك هضم بجناب موسىٰ عليه السلام فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ أي في ذلك الزمان ، لا ما قبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضل منه ، وكما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ، ولا ما بعده ، لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء علىٰ جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق حتىٰ إبراهيم » .

وقوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين علىٰ ذلك .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ كانت الألواح من جوهر نفيس ، ففي الصحيحين : أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام .

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي بعزم ونية صادقة قوية ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أن يضعوها علىٰ أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي ، المخالفين لأمري ، المكذبين لرسلي .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ﴾ أي عن فهمها وتدبرها ، وتعقل معناها الذي أريد منها ، ودل عليه مقتضاها ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا

يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾ أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات ، لا ينقادون لاتباعها ، ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ أي لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها ، وترك العمل بمقتضاها . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

قصة عبادتهم العجل

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ
أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ
وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى
ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا
تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا
فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ
وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا
وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ
وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨ ـ ١٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ
إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ
قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ
أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا
وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا
لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ
لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ
فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ

إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي
خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ
سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن
تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه : ٨٣ ـ ٩٨] .

يذكر الله تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل ، حين ذهب موسىٰ عليه السلام إلىٰ ميقات ربه فمكث علىٰ الطور يناجيه ربه ويساله موسىٰ عليه السلام عن أشياء كثيرة . وهو تعالىٰ يجيب عنها فعمد رجل منهم يقال له موسىٰ السامري ، فأخذ من الحلي ، فصاغ منه عجلاً وألقىٰ فيه قبضة من التراب ، كان أخذها من أثر فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون علىٰ يديه . فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي ، وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون .

﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أي فنسي ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو ها هنا ! تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهباته .

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ؟ وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلىٰ رشد ، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا علىٰ ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٩] .

ولما رجع موسىٰ عليه السلام إليهم ، ورأىٰ ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ، ألقاها من غير استخفاف وعلىٰ مكان طاهر .

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه ، بما ليس بصحيح ، قالوا ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ تحرجوا من تملك حلي آل فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار ، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار !

ثم أقبل علىٰ أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له : ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا فقال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١]وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي ، وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ ﴾ أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي لا هذا ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أي فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨]أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه .

ثم أقبل موسىٰ علىٰ السامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ أي ما حملك علىٰ ما صنعت ؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم ، أنه رآه ، وكلما وطئت بحوافرها علىٰ موضع اخضَر وأَعْشبَ ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاها في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان . ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى

﴿ ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً ، معاقبة له علىٰ مسه ما لم يكن له مسه ، هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعده في الأخرىٰ فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ ﴾ وقرىء : « لن نخلفه »[1] ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ قال : فعمد موسىٰ عليه السلام إلىٰ هذا العجل ، فحرقه ، قيل : بالنار ، كما قاله قتادة وغيره[2] . وقيل : ثم ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه علق في شفاههم من ذلك الرماد ما يدل عليه[3] .

ثم قال الله تعالىٰ إخباراً عن موسىٰ أنه قال لهم : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٢] وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلىٰ يوم القيامة .

ثم أخبر الله تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه علىٰ عبيده في قبوله توبة من تاب إليه ، بتوبته عليه ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] . فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف ، وألقىٰ الله عليهم ضباباً حتىٰ لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا علىٰ عابديه فقتلوهم وحصدوهم ، فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً !

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى

---

(١) بالنون : أي لن نخلفه نحن .

(٢) وقيل : يرده بالمبارد كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم ، وهو نص أهل الكتاب .

(٣) تاريخ الطبري جـ١/٢٩٨ ـ ٣٠٠.

وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٤]استدل بعضهم بقوله: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ على أنها تكسرت ، وفي هذا الاستدلال نظر ، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت . . . والله تعالى أعلم .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[الأعراف ١٥٥ ـ ١٥٧].

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ، ومعهم موسىٰ وهارون ويوشع وناذاب وأبيهو ، ذهبوا مع موسىٰ عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل . وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسىٰ الجبل .

فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] .

وليس هذا بلازم ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي مبلغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسىٰ عليه السلام .

وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥ ـ ٥٦] . وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ .

قال محمد ابن إسحاق : اختار موسىٰ من بني إسرائيل سبعين رجلاً . الخير الخير ، وقال انطلقوا إلىٰ الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم .

فخرج بهم إلىٰ طور سيناء ، لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم .

فلما دنا موسىٰ من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتىٰ تغشىٰ الجبل كله . ودنا موسىٰ فدخل في الغمام وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسىٰ إذا كلمه الله وقع علىٰ جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتىٰ إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسىٰ يأمره وينهاه ، افعل ولا تفعل ، فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسىٰ الغمام أقبل إليهم فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعاً ، فقام موسىٰ يناشد ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برآء مما عملوا[١] .

وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، يعني أنت الذي قدرت هذا ، وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما ﴿ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه : ٩٠] أي اختبرتم .

---

(١) تفسير الطبري جـ٩/ ٥٢ . وقيل إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وابن جريج .

ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديته ، لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت .

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد . وهو كذلك في اللغة .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي ، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الآية : ١٥٦ من سورة الأعراف] أي فسأوحيها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الآية ١٥٧ سورة الأعراف] .

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته لموسىٰ عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا علىٰ هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة .

وقال قتادة : قال موسىٰ يا رب أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتي . . . ؟ قال : تلك أمة محمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتي . . . ؟ قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قبلهم يقرؤون كتبهم نظراً حتىٰ إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب اجعلهم

أمتي . . . ؟ قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فضّول الضلالة حتىٰ يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي . . . ؟ قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن ردَّتْ عليه تركت فتأكلها السباع والطير . وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم ، قال : رب فاجعلهم أمتي . . . ؟

قال : تلك أمة حمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمةً إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشْر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف ، قال : رب اجعلهم أمتي . . . ؟

قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المُشَفَّعون المشفوعُ لهم فاجعلهم أمتي . . . ؟ قال : تلك أمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن موسىٰ عليه السلام نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد . . . ؟

ورویٰ ابن حبان في صحيحه بسنده عن الشعبي يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول علىٰ المنبر عن النبي ﷺ أن موسىٰ عليه السلام سأل ربه عز وجل : أي أهل الجنة أدنىٰ منزلة . . . ؟ فقال : رجل يجيء بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم فيقال له : أترضىٰ أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا . . . ؟ فيقول : أي رب رضيت ، فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، وسأل ربه : أي أهل الجنة أرفع منزلة . . . ؟ قال : سأحدثك عنهم ، غرست كرامتهم بيدي وختمْتُ عليها ، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب

بشر[1] . ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . [الآية ١٧ من سورة السجدة] . ولفظ مسلم : (فيقال له : أترضىٰ أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا . . . ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة . . . ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر علىٰ قلب بشر ، قال : ومصداقه من كتاب الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الآية ١٧ من سورة السجدة] . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال ابن حبان : (ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (سأل موسىٰ ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسىٰ يحبها :

قال : رب أيُّ عبادك أتقى . . . ؟ قال : الذي يذكر ولا ينسى .

قال : فأيُّ عبادك أهدى . . . ؟ قال : الذي يتبع الهدى .

قال : فأيُّ عبادك أحكم . . . ؟ قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه .

قال : فأيُّ عبادك أعلمُ . . . ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلىٰ علمه .

قال : فأيُّ عبادك أعزُّ . . . ؟ قال : الذي إذا قدر غفر .

قال : فأيُّ عبادك أغنى . . . ؟ قال : الذي يرضىٰ بما يؤتى .

قال : فأيُّ عبادك أفقرُ . . . ؟ قال : صاحب منقوص .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنىٰ عن ظهر إنما الغنىٰ غنىٰ النفس ، وإذا أراد الله

---

(١) رواه مسلم والترمذي .

بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه » .

قال ابن حبان : قوله (صاحب منقوص) يريد به : منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل[1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيىٰ بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال :« إن موسىٰ قال : أي رب عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا . . . ! ! قال : ففُتِحَ له باب من الجنة فنظر إليها ، فقال : يا موسىٰ هذا ما أعددت له ، فقال موسى : يا رب وعزتك وجلالك ، لو كان مُقَطَّعَ اليدين والرجلين يُسحَبُ علىٰ وجهه منذ يوم خلقتهُ إلىٰ يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط ، قال : ثم قال : أي رب عبدك الظافر موسع عليه في الدنيا ، قال : ففتح له باب إلىٰ النار ، فقال : يا موسى ، هذا ما أعددت له . فقال موسى : أي رب وعزك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ خلقته إلىٰ يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال :« قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . . . ؟

قال : قل يا موسىٰ لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقول هذا . . . ! ! ، قال : قل لا إله إلا الله : قال إنما أريد شيئاً تخصني به ، قال : يا موسىٰ لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله[2]» .

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة ، وأقرب شيء إلىٰ معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ما قلت أنا

---

(١) الفضل : الزيادة .

(٢) رواه ابن حبان .

والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير » .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك . . . ؟ قال : اتقوا الله ! فناداه ربه عز وجل : يا موسىٰ سألوك : هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ، ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلثه نَعسَ فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما حتىٰ إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : يا موسىٰ لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك ، قال : وأنزل الله علىٰ رسوله آية الكرسي(١) .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسىٰ عليه السلام علىٰ المنبر قال : (وقع في نفس موسىٰ عليه السلام هل ينام الله عز وجل . . . ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرّقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما ، قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما علىٰ الأخرى ، ثم نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان : قال : فضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض(٢)) .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [البقرة : ٦٣ ـ ٦٤] وقال تعالى : ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسىٰ بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم . فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها

---

(١) رواه ابن حاتم .

(٢) تفسير الطبري .

ونواهيها سهلة قبلناها . فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مراراً ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل علىٰ رؤوسهم حتىٰ صار كأنه ظلة ـ أي غمامة ـ علىٰ رؤوسهم ، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلىٰ الجبل بشق وجوههم .

وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق علىٰ وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلاّ اهتز .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم . ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

[البقرة : ٦٧ ـ ٧٣ .

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي ، وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بنو أخ ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ، ويقال علىٰ باب رجل منهم .

فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلّم فقالوا :

ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله ؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلىٰ رسول الله موسىٰ ﷺ . فقال موسىٰ عليه السلام : « أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به » فلم يكن عند أحد منهم علم منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل .

فسأل ربه عز وجل في ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة . فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول لنا هذا ؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحي إليّ ، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلىٰ أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ، ولكن شددوا فشُدد عليهم[1] .

وقد ورد فيه حديث مرفوع ، وفي إسناده ضعف .

فسألوا عن صفتها ، ثم عن لونها ، ثم عن سنها ، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم .

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان ، وهي الوسط النصف بين الفارض وهي الكبيرة ، والبكر وهي الصغيرة . قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا علىٰ أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأمروا بصفراء فاقع لونها ، أي مشرب بحمرة ، تسر الناظرين ، وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضاً ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم ، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول ، وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية ،

---

(١) تفسير الطبري جـ١/ ٢٦٧ .

مسلمة ، وهي الصحيحة التي لا عيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة . وقوله : ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هي مسلمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها . فلما حددها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه[1] ، فطلبوها منه فأبىٰ عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتىٰ أعطوه ، فيما ذكر السدي ، بوزنها ذهباً فأبىٰ عليهم ، حتىٰ أعطوه بوزنها عشر مرات ، فباعها لهم .

فأمرهم نبي الله بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي وهم يترددون في أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل : بلحم فخذها ، وقيل : بالعظم الذي يلي الغضروف وقيل بالبضعة التي بين الكتفين ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو تشخب أوداجه ، فسأله نبي الله موسى : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي وعرّفهُ . ثم عاد ميتاً كما كان .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ، كذلك أمره في سائر الموتى ، إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ

(١) الحقيقة أنه كان باراً بأمه .

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠ ـ ٨٢] .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسىٰ هذا الذي رحل إلىٰ الخضر هو موسىٰ بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وتابعهم علىٰ ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف البكالي .

والصحيح الذي دل عليه سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسىٰ بن عمران صاحب بني إسرائيل .

قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، قال أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالي يزعم أن موسىٰ صاحب الخضر ليس هو صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسىٰ قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحىٰ الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب . .

فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتىٰ إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر ، واتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما .

حتىٰ إذا كان من الغد قال موسىٰ لفتاه : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ قال : ولم يجد موسىٰ النصب حتىٰ جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسىٰ ولفتاه عجباً فقال له موسى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

قال : فرجعا يقصان آثارهما حتىٰ انتهيا إلىٰ الصخرة ، فإذا رجل مسجىٰ بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنىٰ بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى : قال موسىٰ بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ، ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يا موسىٰ إني علىٰ علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت علىٰ علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ .

فقال له الخضر : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان علىٰ ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول[1] فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ .

---

(١) أي بغير أجر .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « فكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً . قال وجاء عصفور فوقع علىٰ حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر !

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان علىٰ الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولىٰ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال : مائل . فقام الخضر ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٧ ـ ٧٨] .

قال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسىٰ كان صبر حتىٰ يقص الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين »[(١)] .

ثم رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناد نحوه . وفيه : « فخرج موسىٰ ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتىٰ انتهيا إلىٰ الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسىٰ رأسه فنام » .

قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسىٰ لفتاه : ﴿ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا ﴾ الآية . وساق الحديث .

---

(١) الحديث بطوله : في صحيح البخاري جـ٦/ ١٦٤ ـ ١٦٦ كتاب التفسير . باب : إذ قال موسىٰ لفتاه حديث رقم (٢٤٦) .

وقال : ووقع عصفور علىٰ حرف السفينة فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره . . . وذكر تمام الحديث[1] .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جريج أخبرهم ، قال : أخبرني يعلىٰ بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني ، فقلت : أي أبا عباس ـ جعلني الله فداك ـ بالكوفة رجل قاصّ يقال له نوف ، يزعم أنه ليس بموسىٰ بني إسرائيل . أما عمرو فقال لي قال : قد كذب عدو الله . وأما يعلىٰ فقال لي : قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « موسىٰ رسول الله . قال : ذكَّر الناس يوماً حتىٰ إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولَّى ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ! هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلىٰ الله ، قيل : بلى . قال : أي رب فأين ؟ قال : بمجمع البحرين ، قال : أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به . قال لي عمرو : قال : حيث يفارقك الحوت ، وقال لي يعلى : قال : خذ نوناً[2] ميتاً حيث ينفخ فيه الروح .

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيراً ، فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ يوشع بن نون ، ليست عن سعيد بن جبير ، قال : فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان[3] إذ تضرَّب[4] الحوت وموسىٰ نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه ، حتىٰ إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضَرب الحوت حتىٰ دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتىٰ كأن أثره في حجر ، قال لي عمرو : هكذا ، كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما .

---

(١) صحيح البخاري جـ٦/ ١٦٩ ـ ١٧٠ .
(٢) نوناً : أي حوتاً .
(٣) أي أرض الندية .
(٤) أي تحرك .

﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ قال : قد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد . أخبره فرجعا فوجدا خضراً ـ قال لي عثمان بن أبي سليمان ـ علىٰ طنفسة خضراء علىٰ كبد البحر ، قال سعيد بن جبير : مسجىً بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ فقال : أنا موسى ، قال موسىٰ بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك لتعلمني مما علمت رشدا .

قال : أما يكفيك أن التوراة بيدك ، وأن الوحي يأتيك. . .!!. . .؟؟ يا موسىٰ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وجد معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلىٰ أهل هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح . قال : فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال : نعم . لا نحمله بأجر ، فخرقها ووتد فيها وتداً ﴿قَالَ﴾ موسى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قال مجاهد : منكراً . ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ كانت الأولىٰ نسياناً . والوسطىٰ شرطاً ، والثالثة عمداً ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ قال يعلىٰ قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لم تعمل بالخبث . وكان ابن عباس قرأها : زكية زاكية مسلمة . كقولك : غلاماً زكياً .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف : ٧٧] قال سعيد بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام . قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسحه بيده فاستقام : ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قال سعيد : أجراً نأكله .

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عباس : أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه « هدد بن بدد » والغلام المقتول اسمه يزعمون « جيسور » ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول : سدوها بقارورة، ومنهم من يقول بالقار .

﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [الكهف : ٨٠] وكان كافراً ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملها حبه علىٰ أن يتابعاه علىٰ دينه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ لقوله : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ ، ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل الخضر .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قال السهيلي : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل : كان ذهباً ، قاله عكرمة . وقيل علماً قاله ابن عباس : والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن ابن حجيرة ، عن أبي ذر رفعه قال : « إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب ؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهكذا روي عن الحسن البصري وعمر مولىٰ غفرة وجعفر الصادق نحو هذا .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ ، قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر ، وعلىٰ كل تقدير : فيه دلالة علىٰ أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته . . والله المستعان .

وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليل علىٰ أنه كان نبياً ، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي ، وقيل : رسول ، وقيل : ولي ، وأغرب من هذا من قال : إنه كان مَلكاً . قلت : وقد أغرب جداً من قال : هو ابن فرعون ، وقيل : إنه ابن الضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة .

وقيل : إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم ، وهاجر معه من أرض بابل . وقيل : اسمه « ملكان » وقيل : « أرميا بن حلقيا » قيل : كان نبياً في زمن سباسب ابن بهراسب .

قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب ، قال ابن جرير : والصحيح أنه كان في زمن أفريدون ، واستمر حياً إلىٰ أن أدركه موسىٰ عليه السلام . وكانت نبوة موسىٰ في زمن « منوشهر » الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً . وهو أول من خندق الخنادق ، وأول من جعل في كل قريه دهقاناً(١) ، وكانت مدة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة . ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم .

وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ، ويحير السامع ، وهذا يدل علىٰ أنه من سلالة الخليل . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] .

فأخذ الله ميثاق كل نبي علىٰ أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق علىٰ كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره فلو كان الخضر حياً في زمانه ، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان من جملة من جاهد تحت لوائه يوم بدر ، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة .

وقصارىٰ الخضر عليه السلام أن يكون نبياً ، وهو الحق ، أو رسولاً كما قيل ، أو ملكاً فيما ذكر . وأيا ماكان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسىٰ أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ؟ فأولىٰ أن يدخل في عموم البعثة وأحرىٰ ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلىٰ رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه ، فإسناده ضعيف . . والله أعلم . وسنفرد للخضر ترجمة علىٰ حدة بعد هذا .

---

(١) الدهقان : رئيس القرية أو الإقليم والجمع دهاقنة ودهاقين .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

[القصص : ٧٦ ـ ٨٣] .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج ، وزاد فقال : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسىٰ بن عمران بن قاهث . قال ابن جرير : وهذا قول أكثر أهل العلم : إنه كان ابن عم موسى ، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمىٰ المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً علىٰ قومه .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه؛ حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً، فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال، ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضدَّ ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وَهْبك، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه، وأني أهلٌ له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى رداً عليه فيما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً؛ فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً من كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:

٥٥ ـ ٥٦] وهذا الرد عليه يدل علىٰ صحة ما ذهبنا إليه من معنىٰ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ .

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال ، فليس بصحيح ، لأن الكيمياء تخييل وصنعة لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق . والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر ربه ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا علىٰ التقدير ، ولا يبقىٰ بين الكلامين تلازم .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم ، من ملابس ومراكب وخدم وحشم ، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ، ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقىٰ وأجل وأعلى . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أي وما يلقىٰ هذه النصيحة وهذه المقالة ، وهذه المهمة السامية إلىٰ الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلىٰ زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدىٰ الله قلبه وثبت فؤاده ، وأيد لبه وحقق مراده .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾ .

لما ذكر الله تعالى خروجه في زينته واختياله فيها ، وفخره علىٰ قومه بها قال : ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ كما روىٰ البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلىٰ يوم القيامة » .

ثم روىٰ البخاري من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد ذكر عن ابن عباس والسدي : أن قارون أعطىٰ امرأة بغياً مالاً علىٰ أن تقول لموسىٰ عليه السلام وهو في ملأ من الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال إنها قالت له ذلك . فأرعد من الفرق وصلىٰ ركعتين ، ثم أقبل عليها

فاستحلفها من دلّكِ علىٰ ذلك ، وما حملك عليه ، فذكرت أن قارون هو الذي حملها علىٰ ذلك واستغفرت الله وتابت إليه ، فعند ذلك خر موسىٰ لله ساجداً ، ودعا الله علىٰ قارون ، فأوحىٰ الله إليه : إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسىٰ الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك . . . والله تعالىٰ أعلم[1] .

وقد قيل إن قارون لما خرج علىٰ قومه في زينته مر بحاشيته ومرافقيه علىٰ مجلس موسىٰ عليه السلام وهو يُذَكّر قومه بأيام الله فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه فدعاه موسىٰ فقال له : ما حملك علىٰ هذا . . . ؟ فقال : يا موسىٰ أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعوَنَّ علي ولأدعوَنَّ عليك ، فخرج موسىٰ وخرج قارون فقال له موسى : تدعو أو أدعو . . . ؟ قال : أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يجب في موسى ، فقام موسىٰ يدعو عليه فقال : اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم ، فأوحىٰ الله إليه : إني قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلىٰ أقدامهم ، ثم قال : ياأرض خذيهم ، فأخذتهم إلىٰ ركبهم ثم إلىٰ مناكبهم ، ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتىٰ نظروا إليها ، ثم أشار موسىٰ بيده فقال : اذهبوا بني لاوي ، فاستوت بهم الأرض .

وقد روي عن قتادة أنه قال : يخسف بهم كل يوم قامة إلىٰ يوم القيامة .وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم الأرض إلىٰ الأرض السابعة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره ، كما قال : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] .

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم من كان تمنىٰ مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى ، الذي يدبر

(١) يروىٰ أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ فقال له يا موسىٰ استجارك مرات فلم تجره فوعزتي لو استجار بي مرة واحدة لأجرته . . . ! !

عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . . . والله تعالىٰ أعلم .

ثم أخبر تعالى : أن ﴿ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾ وهي دار القرار ، وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويغزّىٰ من حرمها إنما هي معدة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر .

والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية ، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التيه ، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام ، كما قال عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

والله تعالىٰ أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٩ ـ ٤٠] .

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم ، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن

عيسىٰ بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف » .

انفرد به أحمد رحمه الله[1] .

باب
ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥١ ـ ٥٣]

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني علىٰ موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسىٰ باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ؟ أم جوزي بصعقة الطور » ؟

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] إلىٰ أن قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] .

(١) مسند أحمد جـ٢/١٢٩

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن روح بن عبادة ، عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسىٰ كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرىٰ من جلده شيء استحياء منه . فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما أدرة[1] ، وإما آفة . وان الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه علىٰ الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل علىٰ ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسىٰ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبرأه الله مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً » . فذلك قوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شفيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به . وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به . ورواه مسلم من حديث عبد الله ابن شقيق العقيلي عنه[2] .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلىٰ سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً ، كما قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن الأعمش قال : سمعت أبا وائل ، قال : سمعت عبد الله ، قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب ، حتىٰ رأيت

---

(١) أي انتفاخ الخصية .

(٢) البخاري أنبياء ٢٨ والترمذي تفسير سورة الأحزاب حديث رقم٣٢٢١ .

الغضب في وجهه ، ثم قال : « يرحم الله موسىٰ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به(١) .

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بموسىٰ وهو قائم يصلي في قبره ، ورواه مسلم عن أنس .

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسىٰ في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى ، فسلم عليه . قال : « فسلمت عليه فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكىٰ قيل له : ما يبكيك . . . ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي » .

وذكر إبراهيم في السماء السابعة ، وهذا هو المحفوظ .

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة وموسىٰ في السابعة ـ بتفضيل كلام الله ـ فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذي عليه الجادة : أن موسىٰ في السادسة وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسند ظهره إلىٰ البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

واتفقت الروايات كلها علىٰ أن الله تعالىٰ لما فرض علىٰ محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة مر بموسى ، فقال : ارجع إلىٰ ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، فلم يزل يتردد بين موسىٰ وبين الله عز وجل ، ويخفف عنه في كل مرة ، حتىٰ صارت إلىٰ خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون . أي بالمضاعفة ، فجزىٰ الله عنا محمداً ﷺ خيراً ، وجزىٰ الله عنا موسىٰ عليه السلام خيراً .

حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه

---

(١) البخاري خمس ١٩ ، وأنبياء ٢٧ ومغازي ٧٦ ، ومسلم زكاة١٤٠ و١٤١ ، والترمذي مناقب ٦٣ .

الرهط والنبي معه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فقلت : هذه أمتي ، فقيل : هذا موسىٰ وقومه ولكن انظر إلىٰ الأفق ، فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلىٰ هذا الجانب ، فإذا سواد عظيم ، فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » .

ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل ، فخاض القوم في ذلك ، فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ . وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط ، وذكروا أشياء .

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه » فأخبروه بمقالتهم فقال : « هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون » ، فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « أنت منهم » ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة » .

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو في الصحاح والحسان وغيرها وقد أوردناها في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقد ذكر الله تعالى موسىٰ عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثنىٰ عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً ، وكررها كثيراً ، مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنىٰ عليه ثناء بليغاً .

وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه ، كما قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٤] .

وقال الله تعالىٰ في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [٩١ ـ ٩٢] .

فأثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً .

وقال الله تعالىٰ في آخرها : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٤ ـ ١٥٥] .

وقال الله تعالىٰ في سورة المائدة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [٤٤] . إلىٰ أن قال تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾ [المائدة : ٤٧ ـ ٤٨] . . . الآية .

فجعل القرآن حاكماً علىٰ سائر الكتب غيره ، وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع من التحريف والتبديل ، فإن أهل الكتاب استحفظوا علىٰ ما بأيديهم من الكتب ، فلم يقدروا علىٰ حفظها ولا علىٰ ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم ، لسوء فهمهم وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتابعة إلىٰ يوم القيامة ـ ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين علىٰ الله وعلىٰ رسوله ـ ما لا يحد ولا يوصف ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال الله تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ

﴿ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [٤٨ ـ ٥٠] .

وقال الله تعالىٰ في سورة القصص : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [٤٨ ـ ٤٩] .

فأثنىٰ الله علىٰ الكتابين وعلىٰ الرسولين عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ . [الأحقاف : ٣٠] .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ من أول الوحي وتلا عليه بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

قال : سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل علىٰ موسىٰ بن عمران .

وبالجملة فشريعة موسىٰ عليه السلام كانت شريعة عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء ، وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء ، وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا ، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومنهم مسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها . ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن اراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر حجه عليه السلام إلى البيت العتيق ، وصفته

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : « أي وادٍ هذا » ؟ قالوا : وادي الأزرق ، قال : « وكأني أنظر إلىٰ موسىٰ وهو هابط من الثنية ، وله جؤار إلىٰ الله عز وجل بالتلبية » ، حتىٰ أتىٰ علىٰ ثنية هرشاء فقال : « أي ثنية هذه » ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء ، قال : « كأني أنظر إلىٰ يونس بن متَّىٰ علىٰ ناقة حمراء ، عليه جبة

من صوف ، خطام ناقته خلبة » ـ قال هشيم : يعني ليفا ـ « وهو يلبي » .

أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به .

وروىٰ الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « أن موسىٰ حج علىٰ ثور أحمر » وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه « ك ف ر » قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون مكتوب بين عينيه « ك ف ر » فقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ولكن قال : « أما إبراهيم فانظروا إلىٰ صاحبكم وأما موسىٰ فرجل آدم جعد الشعر علىٰ جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي » قال هشيم : الخلبة : الليف .

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرىٰ بي موسىٰ بن عمران رجلاً طوالاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسىٰ بن مريم مربوع(١) الخلق إلىٰ الحمرة والبياض ، سبط(٢) الرأس »(٣) .

وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر قال الزهري : وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أسري به : « لقيت موسى ، قال فنعته : فإذا رجل مضطربٌ رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسىٰ ـ فنعته رسول الله ﷺ فقال : ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس ـ يعني الحمام ـ قال : ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث .

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

---

(١) أي الوسط بين الطويل والقصير .

(٢) أي المسترسل الشعر .

(٣) المسند جـ ١/ ٢٢ و٨٣ .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه : « وفاة موسىٰ عليه السلام » حدثنا يحيىٰ بن موسى ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام ، فلما جاءه صكه[1] فرجع إلىٰ ربه عز وجل ، فقال : أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده علىٰ متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال أي رب . . . ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن .

قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلىٰ جانب الطريق عند الكثيب الأحمر »[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا لهيعة ، حدثنا أبو يونس - يعني سليم بن جبير - عن أبي هريرة ، قال : الإمام أحمد لم يرفعه ، قال : « جاء ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام ، فقال : أجب ربك ، فلطم موسىٰ عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلىٰ الله فقال : إنك بعثتني إلىٰ عبد لك لا يريد الموت ، قال : وقد فقأ عيني ، قال : فرد الله عينه ، وقال : ارجع إلىٰ عبدي فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك علىٰ متن ثور ، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت قال : فالآن يا رب من قريب »

تفرد به أحمد ، وهو موقوف بهذا اللفظ .

ثم استشكله ابن حبان ، وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه ، لمجيئه له علىٰ غير صورة يعرفها موسىٰ عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة علىٰ إبراهيم ولوط في صورة شباب ، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أوّلاً . وكذلك موسىٰ لم يعرفه ، لذلك لطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذن .

---

(١) أي دفعه بقوة وضربه .

(٢) صحيح البخاري جـ٢/ ١٩١ كتاب الجنائز . باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة .

وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقْء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن .

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلىٰ موسىٰ ليقبض روحه ، قال له أجب ربك ، فلطم موسىٰ عين ملك الموت ففقأ عينه » . وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري[1] .

ثم تأوله علىٰ أنه لما رفع يده ليلطمه ، قال له : أجب ربك ، وهذا التأويل لا يتمشىٰ علىٰ ما ورد به اللفظ ، من تعقيب قوله : أجب ربك فلطمه ، ولو استمر علىٰ الجواب الأول لتمشىٰ له ، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة . ولم يحمل قوله هذا علىٰ أنه مطابق ، إذ لم يتحقق في تلك الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته ، من خروجهم من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة ، وكان قد سبق في قدر الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

ومما يدل علىٰ ذلك قوله لما اختار الموت : « رب أدنني إلىٰ الأرض المقدسة رمية حجر » ، ولو كان قد دخلها لم يسألْ ذلك . ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلىٰ الأرض التي هاجر إليها ، وحث قومه عليها ، ولكن حال بينهم وبينها القدر ، رمية بحجر .

ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله ﷺ إلىٰ أهل الوبر والمدر : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسري بي مررت بموسىٰ وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر » .

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

---

(١) مسلم (٧/ ١٠٠) موسىٰ ـ عليه السلام ـ لما ضرب عزرائيل لم يكن يعلم أنه ملك الموت بل ظنه شخصاً مهاجماً .

وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ إني متوفٍّ هارون فائت به جبل كذا وكذا .

فانطلق موسىٰ وهارون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تُرَ شجرة مثلها ، وإذا هم ببيت مبني ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة . فلما نظر هارون إلىٰ ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال : يا موسى . . إني أحب أن أنام علىٰ هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه ، قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب علي ، قال له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال : يا موسى . . بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارون الموت . فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلىٰ السماء .

فلما رجع موسىٰ إلىٰ قومه وليس معه هارون قالوا : إن موسىٰ قتل هارون وحسده علىٰ حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكفَّ عنهم وألين لهم من موسى ، فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم ! كان أخي ، أفتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلىٰ ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتىٰ نظروا إليه بين السماء والأرض ثم إن موسىٰ عليه السلام بينما هو يمشي ومعه فتاه يوشع ابن نون إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة ، فالتزم موسىٰ وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم نبيَّ الله موسى ، فاستلَّ موسىٰ عليه السلام من تحت القميص وتُرِكَ القميص في يدي يوشع ، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله فقال : لا ، والله ما قتلته ولكنه استُلَّ مني ، فلم يصدقوه وهموا بقتله فقال : إذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، ففعلوا ، فدعا الله تعالىٰ فأخبروا في المنام أن يوشع ابن نون لم يقتل موسىٰ وإنا قد رفعناه فتركوه .

ولم يبق أحد ممن أبىٰ أن يدخل قرية الجبارين مع موسىٰ إلا مات ولم يشهد الفتح .

وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة . . . والله تعالىٰ اعلم .

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى ، سوىٰ يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا ، وهو زوج مريم أخت موسىٰ وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا علىٰ ملإ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه : أن موسىٰ عليه السلام مر بملإ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج ، فقال : يا ملائكة الله . . . لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلىٰ ربك ، وتنفس أسهل تنفس ، ففعل ذلك ، فمات صلوات الله وسلامه عليه ، فصلت عليه الملائكة ودفنوه .

وذكر أهل الكتاب ، وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس ، قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عمار ابن أبي عمار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال يونس : رفع هذا الحديث إلىٰ النبي ﷺ قال : « كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، قال : فأتىٰ موسىٰ عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتىٰ ربه فقال : يا رب . . . عبدك موسىٰ فقأ عيني ، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه ، وقال يونس : لشققت عليه ، فقال له : اذهب إلىٰ عبدي فقل له فليضع يده علىٰ جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له : فقال : ما بعد هذا . . . ؟ قال : الموت ، قال : فالآن ، فشمه شمة فقبض روحه » .

قال يونس : فرد الله عليه عينه[1] ، وكان يأتي الناس خفية ، وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به ، فرفعه أيضاً[2] .

* * * * *

---

(١) الحقيقة أن موسى عليه السلام إنما فقأ عين الصورة التي ظهر بها ملك الموت ولم يفقأ عينه حقيقة.
(٢) تاريخ الطبري جـ ١/ ٣٠٥.

ذكر نبوة يوشع
وقيامه بأعباء بني إسرائيل
بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وأهل الكتاب يقولون : يوشع ابن عم هود .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ ﴾ [الكهف : ٦٠] ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ﴾ [الكهف : ٦٢] . وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ : من أنه يوشع بن نون .

وهو متفق علىٰ نبوته عند أهل الكتاب ، فإن طائفة منهم وهم السامرة ، لا يقرون بنبوة أحد بعد موسىٰ إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرح به في التوراة ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتابعة إلىٰ يوم القيامة !

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق : من أن النبوة حولت من موسىٰ إلىٰ يوشع في آخر عمر موسى ، فكان موسىٰ يلقىٰ يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي ، حتىٰ قال له : يا كليم الله . إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتىٰ تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك . فعند ذلك كره موسىٰ الحياة وأحب الموت . ففي هذا كذب ، لأن موسىٰ عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله ، حتىٰ توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززاً مكرماً مدللاً وجيهاً عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده علىٰ جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ قال : الموت ، قال : فالآن يارب . وسأل الله أن يدنيه إلىٰ بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلىٰ ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة : أن الوحي لم يزل ينزل علىٰ موسىٰ في كل حين يحتاجون إليه إلىٰ آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان .

وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسىٰ وهارون أن يخرجا ببني إسرائيل لقتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة ، وكان موسىٰ عليه السلام يرجو أن يقع ذلك في حياته ، ولكن قدر الله تعالىٰ أن يكون في زمن فتاه يوشع بن نون ، وكان أمر الله قد صدر لموسىٰ أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء ، وهم أمراء الجيوش كما قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ١٢] يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال ، كما نكلتم أول مرة لأجعلن ثواب هذا مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك كما قال تعالىٰ لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الآية ١٦ سورة الفتح] .

وهكذا قال تعالىٰ لبني إسرائيل ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] .

قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسىٰ وهارون في التيه ، وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسىٰ عليه السلام وإنما

كان يوشع علىٰ مقدمته وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعور الذي سيأتي الحديث عنه قريباً .

ولعل هذه قصة أخرىٰ كانت في خلال سيرهم في التيه فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس كما صرح به السدي . . . والله أعلم ، وعلىٰ كل تقدير فالذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل أخيه موسىٰ بنحو من سنتين ، وتوفي موسىٰ بعده بالتيه أيضاً كما قدمنا فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام .

دخول يوشع بن نون بيت المقدس

وقد ذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهىٰ إلىٰ أريحا وكانت من أحصن المدن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً فحاصرها ستة أشهر ثم كبر جيشه تكبيرة رجل واحد وضربوا بالأبواق فتفسخ سورها وسقطت منه ثلمة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثني عشراً ألفاً من عدوهم من الرجال والنساء ، ويروىٰ أن يوشع بن نون ظهر علىٰ أكثر من ثلاثين ملكاً من ملوك الشام ، وذكروا أن حصاره لبيت المقدس انتهىٰ يوم الجمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسْها علي ، فحبسها الله عليه حتىٰ تمكن من فتح البلد . . . والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلىٰ بيت المقدس** . . . » انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو علىٰ شرط البخاري ، وفيه دلالة علىٰ أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسىٰ وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا ، وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل علىٰ ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتىٰ صلىٰ علي بن أبي طالب صلاة العصر بعدما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ علىٰ ركبته فسأل رسول الله ﷺ أن يردها عليه حتىٰ يصلي العصر

فرجعت ، وقد صححه علي بن صالح المصري ، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعي علىٰ نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها . . . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولمّا يبن ، ولا آخر قد بنىٰ بنياناً ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترىٰ غنماً أو خلفات[1] وهو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صَلىٰ العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليَّ شيئاً ، فحُبِسَتْ عليه حتىٰ فتح الله عليه ، فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه[2] ، فقال : فيكم غلول[3] فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل منهم بيده ، فقال : فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة ، فقال فيكم الغلول أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال[4] فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا[5] ، ذلك بأن الله رأىٰ ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا » . انفرد به مسلم من هذا الوجه .

ذكر طرف من مخالفات بني إسرائيل

والمقصود أن يوشع بن نون لما دخل بهم باب المدينة أُمروا أن يدخلوها سجداً ، أي ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل علىٰ ما منَّ به عليهم من الفتح

---

(١) خلفات : جمع خلفة وهي الناقة .

(٢) لقد كان في شريعتهم أن الغنائم إذا كانت حلالاً مقبولة نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإن أبت أن تأكلها فهو دليل علىٰ عدم قبولها من الله تعالى .

(٣) الغلول : السرقة من مال الغنيمة .

(٤) المراد بالمال : مال الغنيمة .

(٥) يؤيده ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي . . . » الحديث .

العظيم الذي كان الله وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخولهم : ﴿ حِطَّةٌ ﴾ أي حُطَّ عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته متواضعاً حامداً شاكراً حتىٰ إن طرف لحيته ليمس مورك رحله : فلما دخلها اغتسل وصلىٰ ثماني ركعات وهي صلاة الشكر علىٰ النصر العظيم ، وقيل إنها صلاة الضحى ، وما حمل هذا القائل علىٰ قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى . وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً ودخلوا الباب يزحفون علىٰ أستاههم[1] يقولون : حبة في شعره ، وفي رواية : حنطة في شعرة ، وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤوا به كما قال الله تعالىٰ حاكياً عنهم في سورة الأعراف ، وهي مكية : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

[الآيتان : ١٦١ ـ ١٦٢ الأعراف] .

وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الآيتان ٥٨ ـ ٥٩ سورة البقرة .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ادخلوا الباب سجداً ، قال : ركعاً من باب صغير .

وعن ابن إسحاق عن البراء قال مجاهد والسدي والضحاك : والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس . قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أُمِروا به ، وهذا لا ينافي قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون علىٰ أستاههم .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجداً في حال قولكم حطة .

---

(١) هي جمع است ، وهي الألية .

قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أُمروا أن يستغفروا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداًوقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون علىٰ أستاههم وقالوا : حبة في شعرة »[1] .

وقال محمد بن إسحاق : كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولىٰ التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون علىٰ أستاههم وهم يقولون : حنطة في شعيرة »[2] .

وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قال : قالوا (هطي سقانا أزمة مزيا) فهي في العربية (حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء) .

وقد ذكر الله تعالىٰ أنه عاقبهم علىٰ هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري أن رسول الله ﷺ قال : (إن هذا الوجع ، أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم)[3] .

وروىٰ النسائي وابن حاتم بسنده عن أسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال : (الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم)[4] .

وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب ، وقيل هو الغضب وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد .

وقال سعيد بن جبير : هو الطاعون .

* * * * *

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد .

(٤) رواه النسائي وابن أبي حاتم من حديث الثوري .

وفاة يوشع بن نون

ولما استقرت يد بني إسرائيل علىٰ بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتىٰ قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكان مدة حياته بعد موسىٰ سبعاً وعشرين سنة . . . والله تعالىٰ أعلم .

قصة بلعام بن باعور[1]

وهو الذي قال الله تبارك وتعالىٰ فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ . الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ من سورة الأعراف

وقد ذكرنا قصته في التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو علىٰ موسىٰ وقومه فامتنع عليهم ، فلما ألحوا عليه ركب حمارة له ومضىٰ نحو معسكر بني إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت حمارته فضربها حتىٰ قامت ، فسار غير بعيد ثم ربضت ، فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له : يا بلعام أين تذهب أما ترىٰ الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا . . . ؟

أتذهب إلىٰ نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم . . ! ! . . . ؟ ؟

فلم ينزع عنها فضربها حتىٰ سارت به حتىٰ أشرف عليهم من رأس جبل حسبان ، فنظر إلىٰ معسكر موسىٰ وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسىٰ وقومه ويدعو علىٰ قوم نفسه فلاموه علىٰ ذلك ، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري علىٰ لسانه إلا هذا واندلع لسانه حتىٰ وقع علىٰ صدره ، فقال لقومه : ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والخديعة ، ثم أمر قومه

---

(١) ويقال : ابن باعوراء ، وكان عالماً كبيراً ، وكان تقياً مجاب الدعوة .

أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة إلىٰ معسكر بني إسرائيل يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يفتنون بهن ويقعون في الزنا ، فإنه متىٰ زنىٰ رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوا بهن إلىٰ المعسكر ، فمرت امرأة منهن اسمها كسبتىٰ بزعيم من زعماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم وكان من رأس سبط بني شمعون ابن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون علىٰ بني إسرائيل حتىٰ فشا فيهم ، فلما بلغ الخبر إلىٰ فنحاص بن العزار بن هارون أخذ حربته ودخل عليهما القبة فانتظمهما بها ثم خرج بهما علىٰ الناس وقد رفعهما إلىٰ السماء وهو يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك فرفع الله عنهم الطاعون ، فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً والمقلل يقول : كانوا عشرين ألفاً ، وكان فنحاص بكر أبيه العزار بن هارون ، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللبة والذراع واللحى ، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم وأنفسها .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف ، لكن لعله لما أراد موسىٰ دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ، ولعله مراد ابن إسحاق : ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم .

قصة الخضر

أما الخضر فقد تقدم أن موسىٰ عليه السلام رحل إليه في طلب مالديه من العلم اللدني وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف وذكرنا في تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكرالخضر عليه السلام وأن الذي رحل إليه هو موسىٰ بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة .

اسم الخضر ونسبه

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلىٰ الآن علىٰ أقوال : وسأذكرها لك ههنا إن شاء الله تعالىٰ وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه وعن

الضحاك عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسىء[1] له في أجله حتىٰ يكذب الدجال ، وهذا منقطع وغريب[2] .

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم .

وذكر ابن إسحاق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة وأن يدفنوه في مكان عينه لهم ، فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا إلىٰ الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى ، فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم علىٰ ذلك ، وقال : إن آدم دعا لمن يلي[3] دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلىٰ ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتىٰ كان الخضر هو الذي تولىٰ دفنه ، وأنجز الله ما وعده فهو يحيا ما شاء الله له أن يحيا .

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر يليا بن ملكان بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وقال إسماعيل بن أبي أويس : اسم الخضر ـ فيما بلغنا والله أعلم ـ المعمر بن مالك بن عبد الله ابن نضر بن لازد .

وقال غيره : هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

وقيل : إنه ابن مالك وهو أخو إلياس ، قاله السدي .

وقيل : إنه كان علىٰ مقدمة جيش ذي القرنين .

---

(١) نسىء : أخر له في أجله

(٢) رواه الدارقطني .

(٣) يلي دفنه : يتولاه ويباشره .

وقيل : كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه .

وقيل : كان نبياً في زمن بشتاسب بن بهراسب .

قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون بن أثفيان حتىٰ أدركه موسىٰ عليهما السلام .

وروىٰ الحافظ ابن عساكر أن الخضر أمه رومية وأبوه فارسي وقد ورد ما يدل علىٰ أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً ، قال أبو زرعة في دلائل النبوة ، ثم ساق الحديث بسنده إلىٰ ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة . . . ؟ قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنها وزوجها ، قال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل وكان ممره براهب في صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام ، فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها ، ثم زوجه أبوه امرأة أخرى ، فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ، ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرىٰ فانطلق هارباً حتىٰ أتىٰ جزيرة في البحر فأقبل رجلان يحتطبان فشاهداه فكتم أحدهما وأفشىٰ عليه الآخر وقال : قد رأيت الفرقيل[1] ، فقيل له : ومن رآه معك ؟ قال : فلان ، فسئل فكتم عنه وكان من دينهم أنه من كذب قتل ، فقتلوه وكان الكاتم قد تزوج المرأة الكاتمة ، قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت : تعس فرعون : فأخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا فقال : إني قاتلكما ، فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد ، فقتلهما وجعلهما في قبر واحد فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة : وقد تقدمت قصة ماشطة بنت فرعون وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبي ابن كعب أو عبد الله بن عباس . . . والله أعلم .

---

(١) يريد : رأيت الخضر .

وقال بعضهم : كنيته أبو العباس ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن الخضر لقب غلب عليه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس علىٰ فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء »[١] .

قال عبد الرزاق : الفروة : الحشيش الأبيض وما أشبهه ، يعني الهشيم اليابس .

وقال الخطابي : وقال أبو عمر : الفروة : الأرض البيضاء التي لا نبات فيها .

وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر ، كما قال الراعي :

ولقد ترىٰ الحبشيَّ حول بيوتنا ... جَذِلاً إذا ما نال يوماً مأكلا

جَعِداً أصكَّ كأنَّ فروةَ رأسِه ... بُذِرت فأنبت جانباه فلفلا[٢]

قال الخطابي : إنما سمّي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه .

قلت : هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما فما ثبت في الصحيح أولىٰ وأقوىٰ بل لا يلتفت إلىٰ ما عداه .

حدثنا عثمان وأبو جزي وهمام بن يحيىٰ عن قتادة ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلىٰ علىٰ فروة بيضاء فاهتزت خضراء » .

وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلىٰ اخضر ما حوله .

وتقدم أن موسىٰ ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر ، وجداه علىٰ طنفسة خضراء علىٰ كبد البحر ، وهو مسجىٰ بثوب قد جَعَل طرفيه من تحت رأسه

---

(١) تفرد به البخاري .

(٢) جعد الشعر جعودة إذا كان فيه التواء وتقبض ، وذلك خلاف المسترسل . والأصك : من اصطكت ركبتاه ، والذكر أصك والأنثىٰ صكاء .

وقدميه ، فسلم موسىٰ عليه السلام فكشف عن وجهه فردّ ، وقال : أنىٰ بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : نبي بني إسرائيل ؟ قال : نعم . فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة علىٰ نبوته من وجوه :

أحدهما : قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] .

الثاني: قول موسىٰ له : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٦٦ ـ ٧٠].

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة ، ولم يرد علىٰ موسىٰ هذا الرد ، بل موسىٰ إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه ، فلو كان غير نبي ، لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسىٰ ـ وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة ـ كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة ، ولما عزم علىٰ الذهاب إليه والتفتيش عنه ، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان ، قيل : ثمانين سنة . ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه فدل علىٰ أنه نبي مثله يُوحىٰ إليه كما يُوحىٰ إلىٰ موسى ، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسىٰ الكليم ، نبي بني إسرائيل الكريم ، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني علىٰ نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أَقْدم علىٰ قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل علىٰ نبوته ، وبرهان ظاهر علىٰ عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام علىٰ قتل النفوس بمجرد ما يلقىٰ في خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ، ولما أقدم الخضر علىٰ قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه علىٰ الكفر لشدة محبتهما فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو علىٰ بقاء مهجته ،

صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دل ذلك علىٰ نبوته ، وأنه مؤيد من الله بعصمته .

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج علىٰ نبوة الخضر وصححه . وحكىٰ الاحتجاج عليه عن الرماني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسىٰ ووضح له عن حقيقة أمره وجلىٰ قال بعد ذلك كله : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾
[الآية ٨٢ من سورة الكهف] .

يعني ما فعلته من تلقاء نفسي بل أُمرت به وأوحي إلي فيه : فدلت هذه الوجوه علىٰ نبوته ، ولا ينافي ذلك حصول ولا يته بل ولا رسالته كما قاله آخرون .

وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً .

وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع علىٰ حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه .

هل الخضر حي أم ميت ... ؟

وأما الخلاف في وجوده إلىٰ زماننا هذا ، فالجمهور علىٰ أنه باق إلىٰ اليوم ، قيل : لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة .

وقيل : لأنه شرب من ماء عين الحياة فعاش طويلاً .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها علىٰ بقائه إلىٰ الآن وسنوردها إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقة .

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر . . . » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب[1] فقال له : تصدق علي بارك الله فيك ،

(١) المكاتب : الرجل الرقيق الذي كاتب سيده علىٰ مبلغ معين من المال في فترة معينة متىٰ سدده إليه صار حراً .

فقال الخضر : آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون عندي من شيء أعطيكه ، فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت علي ، فإني نظرت إلىٰ السماء في وجهك ورجوت البركة عندك ، فقال الخضر : آمنت بالله ما عندي من شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا . . . ؟ قال : نعم ، الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي ، بعني . قال : فقدمه إلىٰ السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء ، فقال له : إنك ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل قال : أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف ، قال : ليس يشق عليَّ قال : فانقل هذه الحجارة : وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجاته ، ثم رجع وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال له : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه ، ثم عرض للرجل سفر فقال : إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة ، قال : فأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك ، قال : ليس تشق علي ، قال : فاضرب من اللبن لبيتي حتىٰ أقدم عليك ، فمضىٰ الرجل لسفره ثم رجع وقد شُيد بناؤه ، فقال : أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك . . . ؟ فقال : سألتني بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية . سأخبرك من أنا ، أنا الخضر الذي سمعت به ، سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي فباعني ، وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع ، فقال الرجل : آمنت بالله شققت عليك يا نبيَّ الله ولم أعلم ، فقال : لا بأس أحسنت وأبقيت ، فقال الرجل : بأبي وأمي يا نبيَّ الله احكم في أهلي ومالي بما أراك الله أو أخيرك فأخلي سبيلك . ؟ فقال : أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي ، فخلىٰ سبيله ، فقال الخضر : الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها[1] .

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر بإسناده إلىٰ السدي أن الخضر وإلياس كانا أخوين وكان أبوهما ملكاً فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك فلو أنك

---

(١) رواه الحافظ أبو نعيم .

زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر فقال لها الخضر : إنه لا حاجة له في النساء فإن شئت أطلقت سراحك وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عليّ سري فقالت : نعم ، وأقامت معه سنة ، فلما مضت السنة دعاها الملك فقال لها : إنك شابة وابني شاب فأين الولد . . . ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن ، فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرىٰ ثيباً قد ولد لها ، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها فأجابته إلىٰ الإقامة معه ، فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء ، فطلبه أبوه فهرب فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه فيقال : إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره فهرب من أجل ذلك وأطلق سراح الأخرىٰ فأقامت تعبد الله في بعض نواحي المدينة فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول : بسم الله فقالت له أنىٰ لك هذا الاسم . . . ؟ فقال : إني من أصحاب الخضر فتزوجته فولدت له أولاداً ، ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها ، فقالت : بسم الله ، فقالت ابنة فرعون : أبي . . . ؟

قالت : لا ، ربي وربك ورب أبيك الله فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها فألقيت فيها ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها فقال لها ابن لها صغير : يا أماه اصبري فإنك علىٰ الحق ، فألقت نفسها في النار فماتت رحمها الله تعالى .

وعن محمد بن يحيىٰ قال : بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلطه السائلون ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال : فقال له علي : يا عبد الله أعد دعاءك هذا ، قال : أوقد سمعته . . . ؟ قال : نعم ، قال : فادع به في دبر كل صلاة فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين .

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا نحو هذا ثم قال : وهذا

إسناد مجهول منقطع وليس فيه ما يدل علىٰ أن الرجل الخضر .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « **يلتقي الخضر وإلياس في كلِّ عام في الموسم فيحلق كل منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هؤلاء الكمات : بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله لا يصرف الشر إلا الله ، ما شاء الله ما كان من نعمةٍ فمن الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله** » . قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق ، قال : وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب[1] ، ومن حديث الشيخين عن أبي سعيد قال حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال ، وقال فيما يحدثنا : « **يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خير الناس فيقول : أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أرايتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر . . . ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن ، قال : فيريد قتله الثانية فلا يسلَّطُ عليه** »

قال معمر[2] : بلغني أنه يُجعَلُ علىٰ حلقه صفيحة من نحاس وبلغني أنه الخضر الذي يقتلِه الدجال ثم يحييه[3] .

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة منها : فيأتي شاب ممتلىء شباباً فيقتله .

وقد تصدىٰ الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلىٰ أنه قد مات ، فمنهم البخاري وأبو الحسين بن المنادي

---

(١) رواه ابن عساكر .

(٢) معمر : هو أحد رجال سند الحديث .

(٣) رواه الشيخان عن حديث الزهري .

وأبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً سماه (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) واحتج لهم بأشياء كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الآية ٣٤ من سورة الأنبياء].

فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح والأصل عدمه حتىٰ يثبت ولم يذكر فيه دليل علىٰ التخصيص من معصوم يجب قبوله .

ومنها : ان الله تعالىٰ قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

[الآية ٨١ من سورة آل عمران] .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ علىٰ أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، ذكره البخاري ، فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل إليه أحد من الأعداء ، لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبياً فموسىٰ أفضل منه ، وقد روىٰ الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسىٰ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة : أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعاً له وتحت أوامره وفي عموم شرعه ، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم ولما هبطوا معه إلىٰ بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلىٰ بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم ، فدل علىٰ أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من

جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك .

هذا عيسىٰ بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل ، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد ، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل واستنصره واستفتحه علىٰ من كفره : (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض) وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة حتىٰ جبريل عليه السلام ، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وببئر بَدر إذ يردُّ وجوهَهم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته .

قال أبو يعلىٰ محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات . . . ؟ فقال : نعم .

قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر الغباري قال : وكان يحتج بأنه لو كان حياً لجاء إلىٰ رسول الله ﷺ ، نقله ابن الجوزي في العجالة .

فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه . . . ؟

فالجواب : أن الأصل عدم هذه الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات ، ثم ماالحامل له علىٰ هذا الاحتفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلىٰ في مرتبته وأظهر لمعجزته ، ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الأدلة والأحكام أفضل مما يقال عنه من

كونه في الأمصار وجوبه الفيافي والأقطار ، واجتماعه بعباد لا يُعرَفُ أحوالُ كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم ، وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم .

ومن ذٰلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ صلىٰ ليلةً العشاء ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإنه إلىٰ مائة سنة لا يبقىٰ ممن هو علىٰ وجه الأرض اليوم أحد » . . . وفي رواية : عين تطرف .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : فوهِلَ الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ هذه وإنما أراد انخرام قرنه .

وعن ابن عمر أيضاً قال : صلىٰ رسول الله ﷺ ليلة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أرأيتم ليلتكم هذه فإن علىٰ رأس مائة سنة لا يبقىٰ ممن علىٰ ظهر الأرض أحدٌ » .

أخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما من نفس منفوسة ، أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية » .

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله ، أقسم بالله ما علىٰ الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة »[1] .

قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوىٰ حياة الخضر .

قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقىٰ في القوة إلىٰ القطع فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقضي أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لأنه داخل في هذا العموم

(١) رواه أحمد .

والأصل عدم المخصص له حتىٰ يثبت بدليل صحيح يجب قبوله . . . والله أعلم .

وقد حكىٰ الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والإعلام) عن البخاري وشيخه أبي بكر بن العربي أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث ، وفي كون البخاري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول بهذا وأنه بقي إلىٰ زمان النبي ﷺ نظر .

ورجح السهيلي بقاءه وحكاه عن الأكثرين ، قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح ، ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها والله تعالىٰ أعلم .

قصة إلياس عليه السلام

قال الله تعالىٰ بعد قصة موسىٰ وهارون من سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣ ـ ١٣٢] .

قال علماء النسب هو : إلياس النشبي ، ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيراز بن هارون(١) . وقيل إلياس بن العازر بن هارون بن عمران(٢) .

قالوا وكان إرساله إلىٰ أهل بعلبك غربي دمشق ، فدعاهم إلىٰ الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بعلاً » ، وقيل : كانت امرأة اسمها « بعل » والله تعالىٰ أعلم(٣) .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

---

(١) تاريخ الطبري جـ٢/ ٢٢٥ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ١/ ٩٨ .
(٣) ابن قتيبة / ٥١ .

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه اختفىٰ عنهم ، قال أبو يعقوب الأذرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفىٰ من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين ، حتىٰ أهلك الله الملك وولىٰ غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام ، فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام في كهف جبل عشرين ليلة ـ أو قال أربعين ليلة ـ تأتيه الغربان برزقه .

ولقد ورد حول قصة إلياس عليه السلام أقوال كثيرة وأكثرها لا يصح ومن أحسنها ما قاله أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر بن معاذ حدثنا حماد بن واقد عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطاً[1] أصلي فيه ركعتين فافتتحت ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [الآيات : ١ ـ ٣ من سورة غافر] .

فإذا رجل من خلفي علىٰ بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لي : إذا قلت غافر الذنب ، فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت : قابل التوب ، فقل : يا قابل التوب اقبل توبتي ، وإذا قلت : شديد العقاب ، فقل يا شديد العقاب لا تعاقبني ، وإذا قلت : ذي الطول ، فقل : يا ذا الطول تطوّل علي برحمة ، فالتفت فإذا لا أحد ، فخرجت فسألت . هل مر بكم رجل علىٰ بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية . . . ؟

فقالوا : ما مر بنا أحد ، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي للعذاب إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة والأول أظهر علىٰ ما ذكره المفسرون والمؤرخون .

---

(١) الحائط : البستان .

وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلا من آمن منهم .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : (سلام علىٰ إلياسين) أي سلام علىٰ إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين .

ومن قرأ : سلام علىٰ آل ياسين ، أي علىٰ آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : سلام علىٰ إدراسين ، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم . . . والله أعلم .

* * * * *

بابـ

ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داوود عليه السلام وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام

قال ابن جرير في تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع : كالب بن يوفنا ، يعني أحد أصحاب موسىٰ عليه السلام وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] .

قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل[1] بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . . . انتهى .

قصة حزقيل عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي ، وهو ابن العجوز ، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا .

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ قال ابن إسحاق : فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ، فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟

---

(١) وعند أهل الكتاب : حرقيال بن بوذي .

فقال : نعم . فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد[1] .

وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون ، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل ، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتىٰ نزلوا ذلك المكان وهو وادٍ أفيح ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه : أن موتوا . فماتوا حتىٰ إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مرّ بهم نبي يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه ، فأوحىٰ الله إليه : تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم ، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد . فنادى : يا أيتها العظام . . إن الله يأمرك أن تجتمعي . . فجعلت العظام يطير بعضها إلىٰ بعض ، حتىٰ كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحىٰ الله إليه ، أن ناد . يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً ، فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له : ناد . فنادى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي . . فقاموا .

قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » فرجعوا إلىٰ قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، سحنة الموت علىٰ وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً ، حتىٰ ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم . . والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) تفسير الطبري جـ٢/ ٣٦٥ . عن وهب .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبي صالح تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً[1] .

وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات .

وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل . يعني أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حذر من قدر !

وقول الجمهور أقوىٰ أن هذا وقع .

وقد روىٰ الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس ، أن عمر بن الخطاب خرج إلىٰ الشام حتىٰ إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام . فذكر الحديث . يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » . فحمد الله عمر ثم انصرف[2] .

وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفتي قالا : حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري ، عن سالم ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ء أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . قال : فرجع عمر من الشام .

وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه .

---

(١) تفسير الطبري جـ٢/ ٣٦٥ .

(٢) الترمذي كتاب الجنائز حديث رقم ١٠٦٥ وقال : في الباب عن سعد وخزيمة بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وجابر وعائشة .
وأخرجه البخاري : كتاب الطب ٧٦ وباب ما يذكر في الطاعون حديث رقم ١٦٣١ .
وأخرجه مسلم في كتاب السلام حديث رقم ٩٢ .

قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ثم إن الله قبضه إليه ، فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له « بعل »، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .

قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يقرنان في الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسىٰ في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك . . . والله تعالىٰ أعلم .

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام .

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٨٦] وقال تعالىٰ في سورة ص : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨]. قال ابن إسحاق : حدثنا بشر أبو حذيفة ، أنبأنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلىٰ الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتىٰ قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف « الياء »من تاريخه : اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما مات إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده .

ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، قال وقال غيره : وكان الأسباط ببانياس .

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف والتشديد ومن قرأ والليسع وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء .

قلت : قد قدمنا قصة ذي الكفل بعد قصة أيوب عليه السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب . والله تعالىٰ أعلم .

فصل

قال ابن جرير وغيره : ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان فيه قبة الزمان . فكانوا يُنصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسىٰ وآل هارون .

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم علىٰ أخذه فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً .

وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتىٰ بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شمويل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلىٰ أن بعث الله عز وجل شمويل ابن بالي أربعمائة سنة وستون سنة ، ثم ذكر تفصيلها بعدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً[1] .

* * * * *

(١) تاريخ الطبري جـ١/٣٢٨ .

قصة شمويل عليه السلام وفيها بدء أمر داود عليه السلام

هو شمويل ـ ويقال أشمويل ـ بن بالي بن علقمة بن يرخام بن أليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا . . . والله تعالىٰ أعلم .

حكىٰ السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان علىٰ بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوي ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ، ومعناه بالعبرانية إسماعيل ، أي سمع الله دعائي[(١)] .

فلما ترعرع ، بعثته إلىٰ المسجد عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته ، فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتني ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم . . نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلىٰ قومك . فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه .

قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ

---

(١) تاريخ الطبري جـ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥١] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل شمعون وقيل هما واحد . وقيل يوشع ، وهذا بعيد لما ذكره الإمام جعفر بن جرير في تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة وستين سنة . . والله تعالىٰ أعلم(١) .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ ﴾ . يقولون نحن محاربون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل

---

(١) تفسير الطبري جـ٢/ ٣٧٣ .

والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ قال الثعلبي : وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدي : كان سقاء وقال وهب بن منبه : كان دباغاً . وقيل غير ذلك . . والله تعالىٰ أعلم[1] .

ولهذا ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ ولقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا نحن أحق بالملك منه وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكاً .

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ . قيل : كان الله قد أوحىٰ إلىٰ شمويل أن أي فتىٰ من بني إسرائيل كان طوله علىٰ طول هذه العصا وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم . فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم علىٰ طولها سوىٰ طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه للملك عليهم وقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ قيل : في أمر الحروب وقيل : بل مطلقاً ﴿ وَٱلْجِسْمِ ﴾ قيل الطول وقيل الجمال ، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح

---

(١) تفسير الطبري جـ٢/ ٣٧٩ .

عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سُلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقدكانوا ينصرون علىٰ أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وقيل السكينة مثل الريح الخجوج ، وقيل صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ قيل كان فيه رضاض الألواح وشيء من المن والذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية الله عليكم وحجة باهرة علىٰ صدق ما أقوله لكم وعلىٰ صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقيل : إنه لما غلب العمالقة علىٰ هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة وقيل : كان فيه التوراة أيضاً فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت علىٰ رأس الصنم فوضعوه تحته فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم فلمّا تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالىٰ فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما ، فيقال إن الملائكة ساقتها حتىٰ جاءوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك ، والله تعالىٰ أعلم علىٰ أي صفة جاءت به الملائكة ، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله تعالىٰ أعلم ، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثره .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾[البقرة : ٢٤٩] .

قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمىٰ بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً : أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغزوة ، ولا يصحبني إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده .

قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ .

وقد روىٰ البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثوري ، عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن . . والله تعالىٰ أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ أي استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلىٰ قلتهم وكثرة عدد عدوهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يعني ثبتهم الشجعان منهم والفرسان أهل الإيمان واليقين الصابرون علىٰ الجلاد والجدال والطعان .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ طلبوا من الله أن يفرغ علهم الصبر أي يغمرهم به فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغىٰ والدعاء إلىٰ النزال فسألوا التثبيت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر علىٰ أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته ، وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلىٰ ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا .

ولهذا قال : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بحول الله وقوته لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ فيه دلالة علىٰ شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان علىٰ الأوثان ويدال لأولياء الله علىٰ أعدائه ، ويظهر الدين الحق علىٰ الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل علىٰ قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته في ملكي وكان داود عليه السلام يرمي بالمقلاع رمياً عظيماً ، فبينما هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر : أن خذني فإن بي تقتل جالوت ، فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك ، فأخذ الثلاثة في مخلاته ، فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلىٰ نفسه فتقدم إليه داود فقال له : ارجع فإني أكره قتلك فقال داود : لكني أحب قتلك ، ثم أخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في المقلاع ثم أداره فصارت الثلاثة حجراً واحداً ثم رمىٰ بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً ، فوفىٰ له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرىٰ حكمه في ملكه ، وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال علىٰ ذلك فلم يصل إليه ، وسوف يمر معنا مزيد توضيح لملك داود عليه السلام في ترجمته .

قصة داود عليه السلام

هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فرص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين ، قليل الشعر ، طاهر القلب ونقيه .

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر ، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلىٰ ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلىٰ داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعافي داود هذا .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . أي لولا إقامة الملوك حكاماً علىٰ الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إليّ وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت[1] .

ذكر ملكه

قال وهب بن منبه : فمال الناس إلىٰ داود حتىٰ لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود .

وقيل : إن ذلك عن أمر شمويل حتىٰ قال بعضهم : إنه ولاه قبل الوقعة ، قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت. . . والله أعلم.

وروىٰ ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية ، والله تعالىٰ أعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [سبأ : ١٠ ـ ١١] . وقال الله تعالى : ﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ـ ٨٠] .

أعانه الله علىٰ عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلىٰ صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ ﴾ أي لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم . قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتىٰ كان يفتله بيده لا يحتاج إلىٰ نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم .

---

(١) تاريخ الطبري جـ١/ ٣٣٧ .

وقد ثبت في الحديث « **أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده** » .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص : ١٧ ـ ٢٠] .

قال ابن عباس ومجاهد : الأيد القوة في الطاعة . يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر(١) .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلىٰ الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى** »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ أي سبحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ أي عند آخر النهار وأوله ، وذلك أنه كان الله تعالىٰ قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله بن عامر قال : أعطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط ، حتىٰ إنه كان الطير والوحش ينعكف حوله حتىٰ يموت عطشاً وجوعاً وحتىٰ إن الأنهار لتقف ! وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس

---

(١) تفسير الطبري جـ٢٣/٨٦ .

(٢) صحيح البخاري جـ٢/٤١ باب التهجير بالليل ، ومسلم : جـ٣/١٦٥ باب أفضل الصيام صيام داود .

والطير والدواب علىٰ صوته . حتىٰ يهلك بعضها جوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسىٰ الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أوتي أبو موسىٰ من مزامير آل داود » .

وهذا علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعطي أبو موسىٰ من مزامير داود »(٢) .

علىٰ شرط مسلم(٣) .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « خفف علىٰ داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » . وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به . ولفظه : « خفف علىٰ داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يديه » .

والمراد بالقرآن ها هنا الزبور الذي أنزله الله عليه وأوحاه إليه ، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به علىٰ وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] والزبور كتاب

---

(١) البخاري فضائل القرآن ٣١ ومسلم مسافرين ٢٣٥ و٢٣٦ والترمذي مناقب ٥٥ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ٣٦٩ و٤٥٠ جـ٥/ ٣٤٩ و٣٥١ و٣٥٩ .

(٣) مسند أحمد جـ ٦/ ٣٧ و١٦٧ .

مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان ، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً .

روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلىٰ داود عليه السلام في بقر ادعىٰ أحدهما علىٰ الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدعىٰ عليه ، فأرجأ أمرهما إلىٰ الليل ، فلما كان الليل أوحىٰ الله إليه أن يقتل المدعي ، فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحىٰ إلي أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته علىٰ هذا . . . ؟ قال : والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيته عليه ، ولكني كنت قتلت أباه قبل هذا ، فأمر داود بقتله فقتل ، فعظم أمره في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً ، قال ابن عباس : وهو في قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم : فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك : « البينة علىٰ المدعي واليمين علىٰ من أنكر » وقال مجاهد والسدي : هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم . واختاره ابن جرير[(١)] .

قال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطي داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء إلىٰ صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتىٰ أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعي ، فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلىٰ العكاز فأعطاه ا لمدعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أني دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها علىٰ بني إسرائيل ، ثم رفعت سريعاً من

---

(١) تفسير الطبري جـ ٣/٨٨ .

بينهم . . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس ابن سنان عن وهب بمعناه .

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٢١ ـ ٢٥]

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً علىٰ مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم . والذي نريد أن نصل إليه هو أن بعض المفسرين أورد في تفسير هذه الآيات في قصة الخصمين مع نبي الله داود عليه السلام قصصاً إسرائيليات لا تليقُ بنبي الله داود الذي خصهُ الله بنبوته وأكرمه برسالته ، لأن الأنبياء جميعهم تجب لهم العصمةُ من الكفر والكبائر والرذائل والأمراض المنفرة وصغائر الذنوب التي فيها خسة ودناءة لذلك لا يجوزُ اعتقاد مثل هذه القصص المنسوبة كذباً وبهتاناً للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لأنها تنافي العصمة الواجبة لهم ، والصحيح في قصة الخصمين مع داود عليه السلام كما هو ظاهر من سياق الآيات فقد جاء في تفسيرها أن الخصمين كانا في الحقيقة من البشر من بني آدم بلا شك وأنهما كانا مشتركين في نعاج من الغنم علىٰ الحقيقة ، وأنهُ بغىٰ أحدهما علىٰ الآخر وظلمهُ . وقد تسور هذان الخصمان محراب داود عليه السلام وهو أشرف مكان في داره ، وكان داود مستغرقاً في عبادة ربه في ذلك المحراب فلم يشعر داود عليه السلام بالشخصين إلاّ وهما أمامه فلما قال من أدخلكما عليّ ؟ ، طمأناهُ وقالا له : لا تخف ، ثم سألاه أن يحكم في قضيتهما التي نص الله تعالىٰ عليها في القرآن .

ويبدو أن الرجلين اختفيا عند هذه المرحلة ، فقد كانا ملكين جاءا لامتحان داود

عليه السلام وليلفتا نظره إلىٰ عدم التسرع بإصدار الحكم من طرف واحد ، وليظهر له الحق جلياً واضحاً قبل أن يقضي في المسألة ، هنا تنبه داود عليه السلام وعلم أنه فتن ، وأن الرجلين كانا ملكين جاءا للابتلاء ، من أجل هذا استغفر ربه وخر راكعاً وأناب .

وقيل لما قضىٰ داود بينهما نظر أحدهما إلىٰ صاحبه فضحك فلم يفطن داود فأحبا أن يعرفهما فصعدا إلىٰ السماء وهو ينظر إليهما فعلم أن الله ابتلاه بذلك ونبهه علىٰ ما ابتلاه ، ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ومن القصص المفتراة علىٰ نبي الله داود عليه السلام زوراً وبهتاناً وهي من الإسرائيليات المدسوسة علىٰ الأنبياء أن داود عليه السلام كان يوماً في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب ، فأراد أن يأخذها فطارت فذهب ليأخذها فرأىٰ امرأة تغتسل فوقع في حبها وعشقها وكانت زوجة أحد قواده ويُسمىٰ (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليأخذ زوجتهُ فأرسله في أحد الحروب وحمله الراية وأمره بالتقدم وكان قد أوعز إلىٰ جنوده أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء حتىٰ قتل ذلك القائد ويزيد بعضهم كفراً فيقول : إن داود زنىٰ بهذه المرأة قبل قتل زوجها ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وقد قال العلماء المعتبرون : إن هذه الروايات لا تصح من طريق النقل ولا تجوزُ من حيث المعنىٰ لأن الأنبياء منزهون عن مثل هذه الأمور كلها وقالوا : لا يُلتفَتُ إلىٰ ما سطره بعض المفسرين والقصصيين عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ولم يكن اعتقادهم بداود أنهُ رسول بل ملك من الملوك وهذا الذي حكاه بعض المفسرين من قتل الزوج طمعاً بالزوجة لا يليق بالأنبياء بل لو وصف به أفسق الملوك لكان منكراً .

حكم سجدة ص

لقد اختلف الأئمة في سجدة سورة ص هل هي من عزائم السجود أم أنها سجدة شكر علىٰ قولين : قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال : سألت ابن عباس

من أين سجدت . . . ؟ قال : أو ما تقرأ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٨ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠] .

فكان داود ممن أُمِرَ نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام ، فسجدها رسول الله ﷺ ، وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل هو ابن عطية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد في ص وقال : « سجدها داود توبة ونسجدها شكراً » تفرد به أحمد ورجاله ثقات[١] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس ، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال : (إنما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشرفتم فنزل وسجد) تفرد به أبو داود وإسناده علىٰ شرط الصحيحين . وعن أبي سعيد الخدري أنه رأىٰ رؤيا أنه يكتب سورة ص فلما بلغ السجدة رأىٰ الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً ، قال : فقصها علىٰ النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها[٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني رأيت فيما يرىٰ النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ،

---

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه الإمام أحمد .

واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود »[١] . وقال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعته يقول كما حكىٰ الرجل من كلام الشجرة ، قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

قال الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي إن له يوم القيامة لزلفى ، وهي القربىٰ التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث « المقسطون علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهلهم وحكمهم وماولوا »[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحب الناس إلىٰ الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلىٰ الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر »[٣] .

وعن مالك بن دينار أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا ، فيقول يا رب كيف وقد سلبته مني . . . !! . . . ؟؟ فيقول : إني أرده عليك اليوم ، قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان[٤] .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] هذا خطاب من الله تعالىٰ مع داود ، والمراد ولاة الأمور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله ، لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدىٰ به في

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة .

(٣) رواه أحمد والترمذي .

(٤) رواه ابن أبي حاتم .

ذلك الزمان في العدل ، وكثرة العبادة ، وأنواع القربات ، حتىٰ إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] . عن أبي الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلىٰ شكرك إلا بنعمتك . . ! ! . . ؟ ؟ قال : فأتاه الوحي : « أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني . . . ؟ قال : بلىٰ يارب ، قال : فإني أرضىٰ بذلك منك »[١] .

وعن ابن شهاب قال : قال داود عليه السلام « الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه ، وعز جلاله ، فأوحىٰ الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود »[٢] .

من كلامه في الحكمة والموعظة

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب « الزهد » : أنبأنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود : حق علىٰ العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلىٰ إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون علىٰ هذه الساعات وإجمام للقلوب ، وحق علىٰ العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل علىٰ شأنه ، وحق علىٰ العاقل ألا يظعن إلا في إحدىٰ ثلاث : زاد لمعاده ومرمة[٣] لمعاشه ، ولذة في غير محرم .

وقد أورد ، الحافظ ابن عساكر في ترجمة (داود عليه السلام) أشياء كثيرة مليحة منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .

وروي بسند غريب مرفوعاً قال داود : يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها .

---

(١) رواه أبو بكر بن أبي الدنيا .

(٢) رواه البيهقي .

(٣) مرمة : إصلاح .

وعن داود عليه السلام أنه قال: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت. وقال أيضًا: ما أقبح الفقر بعد الغنى، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى. وقال: انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت.

وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له، فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر الواقدي، حدثني هشام بن سعد، عن عمر مولى عفرة، قال: قالت يهود، لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام، ولا والله ماله همة إلا إلى النساء، حسدوه لكثرة نسائه، وعابوه بذلك فقالوا: لو كان نبيًا ما رغب في النساء. وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني بالناس رسول الله ﷺ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] يعني ما أتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة. سبعمائة مهرية وثلاثمائة سرية، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ. وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة، منهن ثلاثمائة سرية.

وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي، عن أبي هريرة الحمصي، عن صدقة الدمشقي، أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث[1] مخزونًا. إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صوامًا قوامًا وكان شجاعًا لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقال رسول الله ﷺ: أفضل الصيام صيام داود. وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتًا يكون فيها، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهموم والمحموم.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن

(١) هو المعدن يبحث فيه عن الذهب والفضة. لسان العرب مادة (بحث)

وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام .

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسىٰ بن مريم ، فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صف بين قدميه وقام يصلي حتىٰ يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ، فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين .

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول : إن ذلك صوم الدهر .

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأىٰ فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأىٰ فيهم رجلاً يزهر[1] فقال : أي رب . . . من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب . . . كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رب . . زد في عمره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً فلما انقضىٰ عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة .

رواه أحمد عن ابن عباس ، والترمذي وصححه عن أبي هريرة ، وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم : علىٰ شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم[2] .

---

(١) يزهر : يضيء .
(٢) تاريخ الطبري جـ ١/٣٤٣ .

قال ابن جرير : وقد زعم أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة . قلت : هذا غلط مردود عليهم ، قالوا : وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل علىٰ أهله أحد حتىٰ يرجع . قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلىٰ الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ، والله لنفضحن بداود . فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت مرحباً بأمر الله . ثم مكث حتىٰ قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلي علىٰ داود . فأظلته الطير حتىٰ أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : اقبضي جناحاً » قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقَبَض رسول الله ﷺ بيده ، غلبت عليه يومئذ المضرحية .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات ، ومعنىٰ قوله : « وغلبت عليه يومئذٍ المضرحية » أي غلبت علىٰ التظليل عليه المضرحية وهي الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحي ، فقال الجوهري : هو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدي عن أبي مالك ، عن ابن مالك ، عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت . وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً ، عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة . وقال ابو

السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

رواه ابن عساكر .

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعني أنزل أو أصعد ، فقال : يا نبي الله . . . قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق . قال : فخر ساجداً علىٰ مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شيع جنازته يومئذٍ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوىٰ غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسىٰ وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم علىٰ داود : قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادىٰ الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس ، فتراص بعضها إلىٰ بعض من كل وجه ، حتىٰ استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً فصاحوا إلىٰ سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادىٰ الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح . ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر : وهو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عميناه أداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله بن نبي الله[١] . جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق ، قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر .

---

(١) تهذيب ابن عساكر جـ٥/ ١٩٠ ذكر من اسمه داوود .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] . أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » وفي لفظ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث »[1] فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم علىٰ الفقراء والمحاويج لايخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ١٦] يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : انبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا علي بن حشاد ، حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قدامة ، حدثنا أبو جعفر الأسواني يعني محمد بن عبد الرحمن : عن أبي يعقوب العمي ، حدثنا أبو مالك ، قال : مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها إلىٰ نفسه ويقول زوجيني نفسك أسكنك أي غرف دمشق شئت ! قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد .

رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر ، عن البيهقي به .

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل علىٰ هذا قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من

---

(١) البخاري : جـ٤/ ٤٩ باب فرض الخمس وجـ/ ١٨١ النفقات جـ٨/ ١٣٨ الاعتصام وجـ٥/ ٢٢ و٧٧ المغازي .

الناطفات والصامتات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٨ ـ ١٩] .

يخبر الله تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلىٰ كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة ـ أي نقباء ـ يردون أوله علىٰ آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

في هذا السياق دليل علىٰ أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك علىٰ البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء ، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك علىٰ وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتىٰ أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم مقالها مزية علىٰ غيره إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾ [النمل : ١٩] اي

ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر علىٰ ما أنعم به عليه وعلىٰ ما خصه به من المزية علىٰ غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالىٰ له .

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه ، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « قالت أم سليمان بن داود يا بني . . لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » .

رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأىٰ نملة قائمة رافعة إحدىٰ قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها .

قال ابن عساكر : وقد روىٰ مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلىٰ السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة » .

وقال السدي : أصاب الناس قحط علىٰ عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة علىٰ رجليها باسطة يديها وهي تقول : « اللهم إنّا خلق من خلقك ولا غناء بنا من فضلك » . قال : فصب الله عليهم المطر .

وقال الله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل : ٢٠ ـ ٣٧] .

يذكر الله تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كانت علىٰ كل صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد علىٰ ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالىٰ فيه أن ينظر إلىٰ الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلَّبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه في محل خدمته ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠] أي ماله مفقود من ها هنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل علىٰ كل تقدير ﴿ أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ اي بحجة تنجيه من هذه الورطة[1] .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [النمل : ٢٢] أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها ﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي اطلعت علىٰ ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] أي بخبر صادق

---

(١) تاريخ الطبري .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلىٰ امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته علىٰ بابها ، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد . وقيل شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد تأبىٰ أن يتزوج من أهل اليمن ، فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس .

وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن حرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، قال ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » . وإسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف الحديث .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف ، عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرىٰ قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[١] .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ بمثله وقال الترمذي : حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٢٣] أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] يعني سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلىء والذهب والحلي الباهر .

---

(١) صحيح البخاري جـ٨/ ٩ كتاب الفتن .

ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له ، ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : ٢٥] أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل : ٢٦] أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات .

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلىٰ طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلىٰ الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾ [النمل : ٣١] اي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أي واقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول وما يقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلىٰ قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلىٰ مشورتها ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ [النمل : ٣٠] ثم قرأته ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٠ ـ ٣١] ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تعني ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة علىٰ الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿و﴾ مع هذا ﴿ ٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترىٰ فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأرشد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب علىٰ

هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتُحَف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون .

ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : ٣٦] . هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة علىٰ أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إلىٰ من قد مَنَّ[1] بها فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون علىٰ أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتلهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلىٰ إجابته في تلك الساعة وأقبلوا في صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين . فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝٣٩ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠

---

(١) بفتح الميم وتشديد النون مع الفتح .

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١) .

[النمل : ٣٨ ـ ٤٤] .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها الذي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدومها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلىٰ قريب الزوال يتصدىٰ لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أي وإني لذو قدوة علىٰ إحضاره إليك وأمانة علىٰ ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان ، وقيل : هو رجل من مؤمني الجان ، كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل : رجل من بني إسرائيل من علمائهم . ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل : معناه قبل أن تبعث رسولاً إلىٰ أقصىٰ ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس . وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي فلما رأىٰ عرش بلقيس عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلىٰ بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي هذا من فضل الله علي وفضله علىٰ عبيده ليختبرهم علىٰ الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها

---

(١) النمل : ٣٨ ـ ٤٤ والطبري جـ١/٣٤٨ .

وعقلها ولهذا قال : ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ هذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر علىٰ هذا الصنع العجيب الغريب ،قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[النمل : ٤٢ ـ ٤٣] أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلىٰ ذلك ولا حداهم علىٰ ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس علىٰ سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها علىٰ مملكة اليمن وردها إليه ، كان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود علىٰ البساط ، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غمدان وسحالين وبيتون . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[ص : ٣٠ ـ ٤٠] .
يذكر الله تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنىٰ الله تعالىٰ عليه فقال : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع مطيع لله . ثم ذكر الله تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف علىٰ ثلاثة وطرف حافر الرابعة ، الجياد

وهي الضمرة السراع .

﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ يعني الشمس . وقيل الخيل علىٰ ما سنذكره من القولين . ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه علىٰ القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتىٰ خرج وقت العصر وغربت الشمس . روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره . والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً في شريعتهم ، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك[١] .

وقد ادعىٰ طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتىٰ نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد . كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً ، وعلىٰ هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام علىٰ هذا . والله تعالىٰ أعلم . وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ عائد علىٰ الخيل وأنه لم يفته وقت صلاة وأن المراد بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق .

ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم .

وقد ذهب بعض علمائنا إلىٰ أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار بشيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه حين استشهد ، وقد قيل : إنها كانت خيلاً

---

(١) تفسير الطبري جـ ٣٣/ ٩٩ .

عظيمة قيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة قيل كانت عشرة آلاف فرس ، وقيل عشرين ألف فرس . . والله أعلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أو خيبر وفي سهوتها[1] ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات[2] لعائشة تلعب فقال : ما هذا يا عائشة . . . ؟ فقالت : بناتي ، ورأىٰ بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال : ما هذا الذي أرىٰ وسطهن . . . ؟ قالت : فرس ، قال : وما الذي عليه هذا . . . ؟ قالت : جناحان قال : فرس له جناحان . . . ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة . . .!! . . .؟ قالت : فضحك حتىٰ رأيت نواجذه ﷺ[3] .

وقال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر كما سيأتي الكلام عليه ، قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا علىٰ رجل من أهل البادية فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبّهنا علىٰ ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا عليه هنا علىٰ مجرد التلاوة .

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبني بناء محكماً . وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً نبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند

---

(١) السهوة : بناء صغير يوضع فيه الماء كالبركة .

(٢) وكانت لعباً صغيرة .

(٣) رواه أبو داود بسنده عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة .

قول أبي ذر . قلت : يا رسول الله . أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أي ؟ قال : « مسجد بيت المقدس » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » .

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنىٰ المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة وليس أربعين سنة ، وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله لبيت المقدس ؟ قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنىٰ بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكماً يصادف حكمه . فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه . فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها » .

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالىٰ فقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ أبيه في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ . وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلىٰ داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا علىٰ سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلىٰ أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتىٰ يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلىٰ ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك . وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلىٰ داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا

علىٰ سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه . فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها . فقضىٰ به لها »[1] .

ولعل كلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنىٰ الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال تعالى : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩ ـ ٨٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء : ٨١]أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١ ـ ٨٢] .

وقال الله تعالىٰ في سورة ص : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [٣٦ ـ ٤٠] .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوىٰ وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد من أي البلاد ، كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء فإذا حمل هذه الأمور المذكورة علىٰ البساط أمرالريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس ، فتغدو به الريح

---

(١) صحيح البخاري : الأنبياء ٤٠ ومسلم : أقضية ٢٠ »، والنسائي : قضاة ١٤ »، ومسند أحمد : جـ٢/ ٣٣٢ .

فتضعه بإصطخر مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلىٰ آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلىٰ بيت المقدس .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٢ ـ ١٣] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر[١] فيتغدىٰ بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل[٢] وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

قلت : قد ذكر المتكلمون علىٰ العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتىٰ كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق علىٰ أحد الأقوال .

وأما القِطْر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة وكانت باليمن ، أنبعها الله له .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلىٰ هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبىٰ فيه الماء ، قال الأعشى :

---

(١) إصطخر : بلدة بفارس وتعتبر من أهم الحصون ، وبها مسجد يعرف بمسجد سليمان عليه السلام .

(٢) لعلها كابول عاصمة أفغانستان اليوم ، قال ياقوت : وكابل اسم يشمل الناحية وهي بين الهند ونواحي سجستان . غزاها المسلمون في أيام بني مروان وافتتحوها وأسلم أهلها .

وأما القدور الراسيات فقال عِكْرِمَة: أَثَافِيُّها منها، يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن، وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨] يعني أن منهم من قد سخره الله في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك. وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود، وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يكن أيضًا لمن كان قبله.

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]فرددته خاسئًا»[(١)]. وكذا رواه مسلم[(٢)] والنسائي[(٣)] من حديث شُعْبَة.

وقال مسلم: حدثنا محمد بن سَلَمة المرادي، حدثنا عبد الله بن وَهْب عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا

---

(١) البخاري، أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾، رقم: (٣٤٢٣). ثم قال البخاري: «عفريت: متمرد من إنس أو جان»، قال ابن حجر في فتح الباري (٥٦١/٦): «قال ابن عبد البر: الجن على مراتب: فالأصل جني، فإن خالط الإنس قيل: عامر، ومن تعرض منهم للصبيان قيل: أرواح، ومن زاد في الخبث قيل: شيطان، فإن زاد على ذلك قيل: وارد، فإن زاد على ذلك قيل عفريت قال الراغب: العفريت من الجن هو العارم الخبث، وإذا بولغ فيه قيل عفريت نفريت».

(٢) مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم: (٥٤١).

(٣) النسائي، كتاب: السهو، باب: لعن إبليس والتعوذ بالله منه في الصلاة.

رسول الله . . قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة »(١) .

وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا مرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان ، قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي ، فذهبت أمرّ بين يديه فردني ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلىٰ صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس وقد أهويت عليه بيدي فمازلت أخنقه حتىٰ وجدت برد لعابه بين إصبعيّ هاتين الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل »(٢) .

روىٰ أبو داود منه « فمن استطاع » إلىٰ آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من الناس ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري . وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء ، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً .

قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة علىٰ سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ولد ساقطاً أحد شقيه » .

---

(١) صحيح مسلم جـ١/ ١٥٢ : المساجد .

(٢) مسندأحمد جـ٢/ ٢٩٨ .

فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » .

وقال شعيب وابن أبي الزناد : تسعين وهو أصح .

تفرد به البخاري من هذا الوجه(١) .

وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة علىٰ مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله . ولم يقل إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة علىٰ مائة امرأة فلم تلد منهن إلا امرأة ولدت نصف إنسان » فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل » .

إسناده علىٰ شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة علىٰ مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن . فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان . قال : قال رسول الله ﷺ : « لو استثنىٰ لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل » .

تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنامعمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، قال : ونسي أن يقول إن شاء الله ، فأطاف بهن قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته » .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما

---

(١) البخاري جـ٤/ ١٢٦ باب خلق آدم .

(٢) تهذيب ابن عساكر جـ٦ و ٧ .

لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ١٦] ، و﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] ، وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي أعط من شئت واحرم من شئت ، فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك علىٰ ذلك ، وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه ألا يعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك .

وقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلىٰ يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتىٰ تقوم الساعة . فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر الله تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه علىٰ ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٢٥] .

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

وروىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلىٰ رأىٰ شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن

كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأىٰ شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم عمِّ علىٰ الجن موتي حتىٰ تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصا فتوكأ عليها حولاً والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة[1] فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين . قال : ـ وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ـ فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء » .

لفظ ابن جرير . وعطاء الخراساني في حديثه نكارة .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس موقوفاً . وهو أشبه بالصواب . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه . فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت : نبت دواء لكذا وكذا . فيجعلها كذلك حتىٰ نبتت شجرة يقال لها الخروبة ، فسألها ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . فقال : ولأي شيء نبت ؟ فقالت : نبت لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التي علىٰ وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها في حائط له . ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً علىٰ عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوىٰ بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتىٰ يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان

---

(١) الأرضة : السوسة .

من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلىٰ سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ، فلم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلىٰ سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته ـ وهي العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة علىٰ العصا فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا علىٰ ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وهي قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ذلك ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين . قال : فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلىٰ الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها .

وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة ، قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني ، قال : ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب يلقىٰ إلي فيها تسمية من يموت .

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني ، فأتاه فقال : يا سليمان . قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ علىٰ عصاه قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء علىٰ عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك

الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال : فبعث الله دابة الأرض ـ يعني إلىٰ منسأته ـ فأكلتها حتىٰ إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

قال أصبغ : وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتىٰ خر ، قد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم . . . والله تعالىٰ أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري وغيره : أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة . . والله تعالىٰ أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة .

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير . وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

قصة العُزَيْر

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عُزَيْر بن جروة ، ويقال ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عدي بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العاذر بن هارون ابن عمران . ويقال : عُزَيْر بن سروخا ، جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق . ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو ، عن حبان بن علي ، عن محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس مرفوعاً : لا أدري العزيز بيع أم لا ، ولا أدري أعُزَيْر كان نبياً أم لا .

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن ، عن محمد بن إسحاق السجزي ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

ثم روىٰ من طريق إسحاق بن بشر ، وهو متروك عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : أن عزيراً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة . قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن كعب وسعيد بن أبي عروة ، عن قتادة ، عن الحسن ومقاتل وجويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس وإدريس ، عن جده وهب بن منبه ، قال إسحاق : كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم علىٰ بعض قالوا بإسنادهم : إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلىٰ ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتىٰ إلىٰ خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهو علىٰ حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقىٰ علىٰ قفاه وأسند رجليه إلىٰ الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأىٰ ما فيها وهي قائمة علىٰ عروشها وقد باد أهلها ورأىٰ عظاماً بالية فقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ ﴾ فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، فأماته الله مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث فبعث الله إلىٰ عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى . ثم ركب خلقه وهو ينظر ، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح ، كل ذلك وهو يرىٰ ويعقل ، فاستوىٰ جالساً فقال له الملك : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ولم يتم لي يوم . فقال له الملك : بل لبثت مائة عام فانظر إلىٰ طعامك وشرابك ، يعني الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة ، فإذا هما علىٰ حالهما لم يتغير العصير

والخبز اليابس ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غضّ لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك ؟ فانظر إلىٰ حمارك . فنظر إلىٰ حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة . فنادىٰ الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتىٰ ركبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسنها العروق والعصب ، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلىٰ السماء ناهقاً . فذلك قوله تعالىٰ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ يعني وانظر إلىٰ عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتىٰ إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إحياء الموتىٰ وغيره .

قال : فركب حماره حتىٰ أتىٰ محلته فأنكره الناس وأنكر منزله فانطلق علىٰ وهم منه حتىٰ أتىٰ منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتىٰ عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة ، فقال لها عزير : يا هذه . . . أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم هذا منزل عُزَيْر . فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عُزَيْراً وقد نسيه الناس . قال : فإني أنا عُزَيْر كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت : سبحان الله ! فإن عُزَيْراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر . قال : فإني أنا عُزَيْر . قالت : فإن عُزَيْراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد علي بصري حتىٰ أراك فإن كنت عُزَيْراً عرفتك .

قال : فدعا ربه ومسح بيده علىٰ عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله . فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عُزَيْر .

وانطلقت إلىٰ محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعُزَيْر شيخ

ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبني بنيه شيوخ في المجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عُزَيْر قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مئة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه . فكشف عن كتفيه فإذا هو عُزَيْر فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عُزَيْر وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء ، فاكتبها لنا وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عُزَيْر ، فانطلق بهم إلىٰ ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب .

قال : وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتىٰ دخلا جوفه . فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل ، فمن ثم قالت اليهود : عُزَيْر ابن الله ، للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل ، والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ .

قال ابن عباس : فكان كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني لبني إسرائيل ، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة ، فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات .

قال ابن عباس : بعث بعد بختنصر وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنىٰ ما قاله ابن عباس :

واسودّ رأسٌ شاب من قبله ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرىٰ ابنه شيخاً يدب علىٰ العصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقر
ما لابنه حيل ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشي الصبي فيعثر
يعد ابنه في الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجري ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرّها ... ولابن ابنه تسعون في الناس غبّر
فما هو في المعقول إن كنت دارياً ... وإن كنت لا تدري فبالجهل تعذر

فصل

المشهور أن عُزَيْراً نبي من أنبياء بني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها علىٰ بني إسرائيل .

وروىٰ ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتْبِه لبني إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بني إسرائيل : لم يستطع موسىٰ أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإن عُزَيْراً قد جاءنا بها من غير كتاب . فرماه طوائف منهم وقالوا : عُزَيْر ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير .

وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري . وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان ، عن عطاء ، وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ، ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء : بختنصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : كان أمر عُزَيْر وبختنصر في الفترة .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أولىٰ الناس بابن مريم لأنا ، الأنبياء أولاد علات ـ وليس بيني وبينه نبي »[1] .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسىٰ عليهما السلام .

وقد روىٰ ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عُزَيْراً كان في زمن موسىٰ بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعني لما كان من سؤاله عن القدر وأنه انصرف وهو يقول : مائة موتة أهون من ذل ساعة .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ١٤٣ ـ ١٤٤ .

وفي معنىٰ قول عزير قال بعض الشعراء :

قـد يصبـرُ الحـرُّ علـىٰ السيـف ويـأنـفُ الصبـرَ علـىٰ الحيـف
ويـؤثـر المـوتَ علـىٰ حـالـةٍ يعجـزُ فيهـا عـن قـرىٰ الضيـف

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثم أمر بها فأحرقت بالنار ، فأوحىٰ الله إليه : فهلا نملة واحدة** » . . . . ! ! فروي عن مجاهد أنه عزير ، وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير والله تعالىٰ أعلم .

قصة النبي شعيا[(١)] عليه السلام

قال محمد بن إسحاق : كان النبي شعيا قبل زكريا ويحيىٰ وهو ممن بشر بعيسىٰ ومحمد عليهما السلام ، وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا علىٰ بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة ، وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان ، وهو سنحاريب في ستمائة ألف راية ففزع منه الناس فزعاً شديداً ، فلجأ الملك إلىٰ النبي شعيا وقال له : ماذا أوحىٰ الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده . . . ؟ قال : لم يوح إلي فيهم شيء بعد .

ثم نزل الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستخلف علىٰ ملكه من يشاء فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك جعل الملك يصلي ويسبح ويدعو الله تعالىٰ ويبكي بكاء شديداً ، وقال وهو يبكي ويتضرع إلىٰ الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : (اللهم رب الأرباب وإله الآلهة ، يا رحمن يا رحيم يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعلمي وفعلي وحسن قضائي علىٰ بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك) قال : فأجاب الله دعاءه ورحمه وأوحىٰ الله إلىٰ شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وأخر في أجله خمس عشرة سنة

---

(١) هو عند أهل الكتاب إشعيا بن آموص .

وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما أخبره شعيا بذلك ذهب منه المرض وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً لله تعالىٰ وقال في سجوده : (اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ،عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتجيب دعوة المضطرين) فلما رفع رأسه أوحىٰ الله إلىٰ شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله علىٰ قرحته فيشفىٰ ويصبح قد برىء ، ففعل فشفي بإذن الله ، وأرسل الله علىٰ جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا جميعاً سوىٰ سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر ، فجعلوا في الأغلال وطيف بهم في البلاد علىٰ وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ثم أودعوا في سجن ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ شعيا أن يأمر الملك بإطلاق سراحهم وإرسالهم إلىٰ بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهان : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطعها أحد من ربهم .

ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله تعالىٰ بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه ، فلما فرغ من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهُدبة ثوبه فأبرزها لهم فلما عرفوه جاؤوا بالمنشار فوضعوه علىٰ الشجرة فنشروها ونشروه معها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقيل : إن الذي نشر بالمنشار هو زكريا عليه السلام كما سيأتي .

روىٰ إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات موتاً والله أعلم .

* * * * *

قصة النبي أرميا[1] عليه السلام

قال ابن عساكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف علىٰ دم يحيىٰ بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم أفتنت بني إسرائيل فاسكن ، فسكن ورسب حتىٰ غاب[2] .

ذكر أبو بكر بن أبي الدنيا بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أيْ رب أيُّ عبادك أحبُ إليك . . . ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً ، الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ، ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه[3] ، وإذا زوي عنهم[4] سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

وقد بعثه الله تعالىٰ إلىٰ بني إسرائيل حين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا في الأرض وارتكبوا المعاصي وقتلوا الأنبياء ، فأوحىٰ الله إليه أني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم علىٰ صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي ، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد علىٰ رأسه وخر ساجداً يبكي وقال : يا رب وددت أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي .

فقال الله : ارفع رأسك ، فرفع رأسه وبكىٰ ثم قال : يا رب من تسلط عليهم . . ؟ فقال : عبدة النيران لا يخافون عقابي ، ولا يرجون ثوابي . . وذكر كلاماً طويلاً .

فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه ، ثمّ عدوا عليه فأخذوه ، وقيدوه ، وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل عليهم بجنوده حتىٰ نزل بساحتهم ، ثم حاصرهم فكان كما قال الله

---

(١) وعند أهل الكتاب هو إرميا بكسر الهمزة ابن حلقيّا .

(٢) وسيأتي ذلك في ترجمة زكريا ويحيىٰ عليهما السلام .

(٣) قلوه : هجروه .

(٤) زوي عنهم : كشف .

تعالى : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ [الإسراء : ٥].

فلما طال بهم الحصار نزلوا علىٰ حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة ، فدخلها عليهم وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش فيهم بطش الجبارين ، فقتل الرجال والأطفال ، وسبىٰ النساء ، وترك المرضىٰ والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس ، وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم دور العبادة وحرق التوراة ، وسار بختنصر بجنوده فجاس الديار ووطىء بلاد الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتىٰ أفناهم ، وهذا معنىٰ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ [الإسراء : ٥].

قال وهب بن منبه : فلما فعل بهم ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك ويذكر لهم خبرك ويخبرهم أنت تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه ، فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن وقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم . . . ؟ قال : نعم ، قال : فإني قد علمت ذلك ، قال أرميا : أرسلني الله إليهم فكذبوني ، قال : كذبوك وضربوك وسجنوك . . . ؟ قال : نعم ، قال : بئس القوم قوم كذبوا نبيَّهم وكذبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك ، وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك ، قال أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان .

فلما سمع بختنصر هذا القول تركه ومضىٰ إلىٰ بلاده يقود الأسرىٰ والغنائم حتىٰ قدم أرض بابل ، وأقام النبي أرميا مكانه بأرض إيليا ، فاجتمع عليه من بقي من بني إسرائيل ونجا من القتل والأسر فقالوا : إنا قد أسأنا إليك وظلمناك ونحن نتوب إلىٰ الله عز وجل مما صنعنا فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربه عز وجل ، فأوحىٰ إليه أنه غير فاعل فإن كانوا صادقين فليستقيموا معك بهذه البلدة ، فأخبرهم أرميا ما أمره الله تعالىٰ به ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله علىٰ أهلها . . . ؟ فهابوا أن يقيموا بها .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد ، فنزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادي القرى ، وذهبت شرذمة منهم إلىٰ مصر- فكتب بختنصر إلىٰ ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبىٰ عليه ، فركب بختنصر في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبىٰ ذراريهم ، ثم ركب إلىٰ بلاد المغرب حتىٰ بلغ أقصىٰ تلك الناحية ، ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن(١) .

وهذا مصداق قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٧ ـ ١٦٨] .

دانيال عليه السلام

ذكر ابن أبي الدنيا بسنده عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : ضرا بختنصر أسدين فالقاهما في جب وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهىٰ ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحىٰ الله إلىٰ أرميا وهو بالشام : أن اعدد طعاماً وشراباً لدانيال فقال : يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحىٰ الله إليه أن اعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتىٰ وقف علىٰ رأس الجب فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا فقال : ما جاء بك . . . ؟ قال : أرسلني إليك ربك قال : وقد ذكرني ربي . . . ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسىٰ من ذكره ، والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلىٰ غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا

---

(١) هذا النص التاريخي يبدد أحلام اليهود ، ويدحض حججهم ، ويبطل أكاذيبهم بادعائهم أن هذه البلاد حق لهم وأنها موطن آبائهم ، إنه هراء ومحض افتراء ، وكذب علىٰ الله ، وتزييف للحقائق ، وتغيير للتاريخ ، وتضليل للإنسانية . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

بعد كربنا ، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين ينقطع الحبل عنا .

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فجعلناه إلىٰ عمر بن الخطاب ، فدعا له كعباً[1] فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبي العالية : ما كان فيه . . . ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد ، قلت : فما صنعتم بالرجل . . . ؟

قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة فلماكان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه علىٰ الناس فلا ينبشونه ، قلت : فما يرجون منه . . . ؟

قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون ، قلت : من كنتم تظنون الرجل . . . ؟ قال : رجل يقال له دانيال ، قلت : منذ كم وجدتموه قد مات . . . ؟

قال : منذ ثلاثمائة سنة .

قلت : ماتغير منه شيء . . . ؟

قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع . . . وهذا إسناد صحيح إلىٰ أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً منذ ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ، لأن عيسىٰ بن مريم عليه السلام ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي رواه البخاري ، والفترة التي كانت بينهما ستمائة سنة ، وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه ، دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قريب الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم.

---

(١) هو كعب الأحبار .

وفي كتاب أحكام القبور لابن أبي الدنيا عن أبي الأشعث الأحمري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد ﷺ** » فلما افتتح أبو موسىٰ الأشعري تُستَر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : من دل علىٰ دانيال فبشروه بالجنة ، فكان الذي دل عليه رجل يقال له حرقوص ، فكتب أبو موسىٰ إلىٰ عمر يخبره ، فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إليَّ حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله بن عنبسة بن سعيد وكان عالماً قال : وجد أبو موسىٰ مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك[1] ودراهم وخاتم ، فكتب أبو موسىٰ بذلك إلىٰ عمر ، فكتب إليه عمر ، أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من معك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم نفّلناكه[2] .

وروي أن أبا موسىٰ لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلىٰ عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض ، وإن عنده رَبْعة فأمر عمر بأن يغسل بماء وسِدْر ويكفن ويدفن ويخفىٰ قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلىٰ بيت المال وبالربعة أن تحمل ، ونفله الخاتم .

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن بردة بن أبي موسىٰ الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، فقال أبو بردة : هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسىٰ يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسىٰ علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يهدد ملكك ويفسده ، فقال الملك : والله لا يبقىٰ تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في

---

(١) الودك بفتح الواو والدال ، ما سال من لحم الميتة وشحمها .
(٢) أي خذهُ غنيمة .

أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولا يؤذيانه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتىٰ بلغ ما بلغ .

قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسىٰ نعمة الله عليه في ذلك . . إسناد حسن والله أعلم .

قصة لقمان(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٢ ـ ١٩] .

من هو لقمان ؟

هو لقمان بن عنقاء بن سدون ، ويقال : لقمان بن ثاران ، حكاه السهيلي عن ابن جرير ، وقال : كان نوبياً من أهل أيلة ، قلت : وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة .

ويقال : كان قاضياً في زمن داود عليه السلام . فالله أعلم .

وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

---

(١) هو أحد أربعة اختلف في نبوتهم وهم : الخضر والعزير وذو القرنين .

وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهىٰ إليكم في شأن لقمان . . . ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة ، وعن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعي : حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلىٰ سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولىٰ عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر .

وقال الأعمش عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين ، وفي رواية مصفح القدمين .

وقال عمر بن قيس : كان عبداً أسود غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعىٰ معي الغنم في مكان كذا وكذا . . . ؟

قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى[1] . . . ؟

قال صِدْق الحديث ، والصمت عما لا يعنيني ، رواه ابن جرير ، وعن عبد الرحمن بن أبي يزيد بن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعىٰ غنمي بالأمس . . . ؟ قال : بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى . . . ؟ قال : قدر الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك ما لا يعنيني[2] .

وقال ابن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش الفتياني عن عمر مولىٰ عفرة قال : وقف رجل علىٰ لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان . . . ؟ أنت عبد بني النحاس . . . ؟ قال : نعم ، قال فأنت راعي الغنم الأسود . . !! . . . ؟ ؟ ، قال : أما سوادي فظاهر ، فما الذي يعجبك من أمري . . . ؟ قال : وطء الناس

(١) أي من الحكمة وحسن الحديث وحلاوة المنطق .
(٢) رواه ابن أبي حاتم بسنده .

بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك . . . ! !

قال يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك ، قال : ما هو . . . ؟ قال لقمان : غض البصر ، وكف اللسان ، وعفة المطعم ، وحفظ الفرج ، والقيام بالعدة ، والوفاء بالعهد ، وإكرام الضيف ، وحفظ الجار ، وترك مالا يعني ، فذاك الذي صيرني كما ترى .

وعن أبي الدرداء أنه ذكر يوماً لقمان الحكيم فقال : ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولاخصال ولكنه كان رجلاً ضمضامة[1] ، سكيتاً طويل التفكّر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد .

وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا ، فلم يبك عليهم ، وكان يغشىٰ السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي .

ومن زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه ، ففي هذا نظر والله أعلم .

وما روي عن جابر الجعفي عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً فقول ضعيف لضعف حال الجعفي .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً ، وقد ذكره الله تعالىٰ في القرآن فأثنىٰ عليه وحكىٰ من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ماوعظ به أن قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ فنهاه عنه وحذره منه .

وقد قال البخاري : حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] شق ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم . . !! . . ؟؟

---

(١) الجسيم المجتمع الخلق أو الشجاع .

فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلىٰ قول لقمان ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] »(١) .

ثم اعترض تعالىٰ للوصية بالوالدين وبيان حقهما علىٰ الولد وتأكده وأمر بالإحسان إليهما حتىٰ ولو كانا مشركين ، ولكن لا يطاعان علىٰ الدخول في دينهما(٢) .

ثم قال تعالىٰ مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل فإن الله يسأل عنها ويحضرها يوم القيامة ويضعها في الميزان كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة دقيقاً كالخردلة ، ولو كان في جوف صخرة صماء ، لا باب لها ولا كوة ، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض أو السماوات في اتساعهما وامتداد أرجائهما لعلم الله مكانها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي علمه دقيق فلا يخفىٰ عليه الذر مما تراءىٰ للنواظر أو توارى ، كما قال تعالىٰ ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٧٥]

وقال : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣]

وقد زعم السدي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة الصخرة التي

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) وذلك الحديث (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

تحت الأرضين السبع ، وحكي هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال ابن عمر وغيرهم ، وفي صحة هذا القول نظر ، ثم إن في هذا المراد نظراً آخر ، فإن هذه الكلمة نكرة غير معرفة ، فلو كان المراد بها ما قالوه لقال : فتكن في الصخرة ، وإنما المراد فتكن في صخرة أي صخرة كانت ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسىٰ حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » .

ثم قال : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها ، واجتنب ما ينهىٰ عنه فيها ، ثم قال ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ أي بجهدك وطاقتك ، أي إن استطعت باليد فاليد ، وإلا فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك[1] ، ثم أمره بالصبر فقال : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يعادىٰ وينال منه ، ولكن له العاقبة ولهذا أمره بالصبر علىٰ ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج ، وقوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ التي لابد منها ولا محيد عنها ، وقوله ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم : معناه لا تتكبر علىٰ الناس وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك علىٰ وجه التكبر عليهم والازدراء لهم ، قال أهل اللغة : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها فتلتوي رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر الذي يميل وجهه إذا كلم الناس أو كلموه علىٰ وجه التعظم عليهم ، قال أبو طالب :

وكنا قديماً لا تقرُّ ظلامةً ... إذا ما ثنَوا صُعَرِ الخدود نقيمُها

وقال عمرو بن حيي التغلبيّ :

وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّهُ ... أقمنا مِن ميلِهِ فتقوّما

---

(١) يؤيده ما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ينهاه عن التبختر في المشي علىٰ وجه العظمة والفخر علىٰ الناس كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] يعني لست بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه ، ولست بدقك الأرض برجلك تخرقها بوطئك عليها ، ولست بتشامخك . وتعاظمك وترفعك تبلغ الحبال طولاً ، فاتئد علىٰ نفسك فلست تعدو قدرك ، وقد ثبت في الحديث : (بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة .

ولما نهاه عن الاختيال في المشي أمره بالقصد فيه فإنه لا بد له أن يمشي ، فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي لا تتباطأ مفرطاً ولا تسرع إسراعاً مفرطاً ولكن بين ذلك قواما كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ثم قال ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ يعني إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير ، وقد ثبت في الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا نهىٰ عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ولا سيما عند العطاس فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ ، فأما رفع الصوت بالأذان وعند الدعاء إلىٰ الفئة للقتال وعند الإهلال ونحو ذلك فذلك مشروع . . . فهذا مما قصه الله تعالىٰ عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحكم والمواعظ والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر ، وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمىٰ بحكمة لقمان ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

ذكر الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « **إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيئاً حفظه** » .

وعن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « **قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع[1] فإنه مخونة بالليل مذمة بالنهار** » .

---

(١) التقنع : لبس القناع ، وقنع قنوعاً سأل ، والقانع : السائل ، وربما يراد المعنيان هنا .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فادعهم بسهم الإسلام ـ يعني السلام ـ ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتىٰ تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلىٰ غيرهم .

وعن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلىٰ جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتىٰ نفد الخردل فقال : يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر ، قال : فتفطر ابنه . وقال مالك بن دينار : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة .

وقال محمد بن واسع : كان لقمان يقول لابنه : يا بني اتق الله ولا ترالناس أنك تخشىٰ الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر .

وعن خالد الربعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال ائتني بأطيب مضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب ، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين . . . ؟ قال : لا ، فسكت عنه مدة ثم قال له : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال له : ألق أخبثها مضغتين ، فرمىٰ اللسان والقلب ، فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب . . . ! ! فقال : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وعن الجعد أبي عثمان قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب في ود الجاهل فيرىٰ أنك ترضىٰ عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده ذلك فيك .

وعن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان ألا إن يد الله علىٰ أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له .

وحدثنا عبد الرزاق سمعت ابن جريج قال : كنت أقنع رأسي بالليل فقال لي عمر : أما علمت أن لقمان قال القناع بالنهار مذلة وهو معجزة بالليل فلم تقنع رأسك بالليل . . . ؟

قال : قلت له إن لقمان لم يكن عليه دَيْن .

وحدثني حسن بن الجنيد حدثنا سفيان قال لقمان لابنه : يا بني ماندمت علىٰ السكوت قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

وقال قتادة : قال لقمان لابنه : يا بني اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق .

وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة يا بني إياك والرغب فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحكم كما يزيل الطرب ، يا بني إياك وشدة الغضب فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

وروىٰ أحمد بسنده عن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني اختر المجالس علىٰ عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ، فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يعلموك ، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصبك معهم ، يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه ، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يزيدوك غباء ، وإن يطلع الله عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم .

وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال : قيل للقمان أي الناس أصبر . . . ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى .

قيل : فأي الناس أعلم . . . ؟ قال : من ازداد من علم الناس إلىٰ علمه ، قيل : فأي الناس خير . . . ؟ قال :الغني ، قيل : الغني من المال . . . ؟ قال : لا ، ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وُجِدَ ، وإلا أغنىٰ نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان بن عيينة قال : قيل للقمان أي الناس شر . . . ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وعن أبي سعيد قال : قال لقمان لابنه : يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذه المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً

لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا[1] .

وذكر ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن بشير عن قتادة قال : خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة علىٰ النبوة ، قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة فأصبح ينطق بها .

قال سعيد : سمعت قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة علىٰ النبوة وقد خيرك ربك . . . ؟ فقال إنه لو أرسل إلي بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكن خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إلي .

وهذا فيه نظر ، لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه ، والذي رواه سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال : يعني الفقه والإسلام ، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه .

وهكذا نص علىٰ هذا غير واحد من السلف منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس ، والله أعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى
خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل
لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

---

(١) وقد قمت بحذف الأسانيد اختصاراً كما هو واضح .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١ ـ ١٥] .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

[آل عمران : ٣٧ ـ ٤١] .

وقال الله تعالىٰ في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء : ٨٩ ـ ٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[الأنعام : ٨٥] .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان ، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن أينامن بن رحيعام بن سليمان بن داود ، أبو يحيىٰ النبي عليه السلام من بني إسرائيل(١) .

دخل البثنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى . وقيل إنه كان بدمشق حين

---

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٥/ ٣٨١ .

قتل ابنه يحيى . . . والله تعالىٰ أعلم . وقد قيل غير ذلك في نسبه . ويقال فيه زكريا بالمد والقصر . ويقال زكرىٰ أيضاً .

والمقصود أن الله تعالىٰ أمر رسوله ﷺ أن يقص علىٰ الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً علىٰ الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى فقال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادىٰ ربه مناداة أسرّها عمن كان حاضراً عنده مخافتة فقال : يا رب يا رب يا رب . . . فقال الله : لبيك لبيك لبيك . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ أي ضعف وخار من الكبر ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب علىٰ سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته :

أما ترىٰ رأسي حاكىٰ لونه ... طُرَّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُّ في مسودّه ... مثل اشتعال النار في جمر الغضا
وآض عود اللهو يبساً ذاويا ... من بعد ما قد كان مجَّاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً . وهكذا قال زكريا عليه السلام : ﴿ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له علىٰ هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء ، عاين أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر علىٰ أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] وقوله : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ قيل المراد بالموالي العصبة ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك

﴿وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي، وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جَرِير ها هنا وحكاه عن أبي صالح من السلف، لوجوه:

أحدها: ما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَث ما تركنا صدقة»(١) فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم.

الثاني: أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» وصححه.

الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجارًا يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهادًا يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له يخلفه من بعده. وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره تفهمه إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، يعني ابن هارون، أنبأنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن

---

(١) البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: فرض الخمس، رقم: (٣٠٩٣). ومسم، كتاب: الجهاد والسير، باب: حكم الفيء، رقم: (١٧٥٧).

ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن حماد بن سلمة به[1] .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ وهذا مفسر بقوله : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم علىٰ وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه والله تعالىٰ أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد . . . والله تعالىٰ أعلم .

كما قال الخليل : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] .

وقالت سارة : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] .

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحي إليه بأمر ربه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ أي قدرته ، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً أفلا أوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً ؟ !

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . ومعنىٰ إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت .

---

(١) صحيح مسلم جـ٢/ ٢٢٧ كتاب الفضائل .

وقيل في لسانها شيء . أي بذاءة .

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم : ١٠] أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٠] يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج معتدل البنية . وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم : ١١] والوحي هاهنا هو الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قال مجاهد والسدي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة . قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة ، اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله تعالى : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهيه لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه . قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال : ما للعب خلقنا . قال : وذلك قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] .

وأما قوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم : ١٣] فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان .

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة : ﴿وَحَنَانًا﴾ أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما .

وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم : ١٤] ثم قال : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ١٥] هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من

عالم إلىٰ عالم آخر فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير إلىٰ الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلىٰ هذه الدار ليكابد همومها وغمها !

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلىٰ عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلىٰ عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير ! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولـدتـك أمـك بـاكيـاً مستصـرخـاً والنـاس حـولـك يضحكـون ســروراً

فـاحـرص لنفسـك أن تكـون إذا بكـوا فـي يـوم مـوتـك ضـاحكـاً مســروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون علىٰ ابن آدم سلّم الله علىٰ يحيىٰ في كل موطن منها فقال الله تعالى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ .

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيىٰ وعيسىٰ التقيا فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني ، فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني ، فقال له عيسى : أنت خير مني سلّمْتُ علىٰ نفسي[1] ، وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلهما .

وأما قوله تعالىٰ في الآية الأخرى : ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] . فقيل : المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء ، وقيل : غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : ﴿هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ [آل عمران : ٣٨] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيىٰ بن زكريا ، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم : ٣٣] .

وقال وهب بن منبه : حدثني ابن لهيعة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسىٰ كليم الله . وقال قائل : عيسىٰ روح الله وكلمته . وقال قائل : إبراهيم خليل الله . وهم يذكرون ذلك فقال : « أين الشهيد ابن الشهيد ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب » قال ابن وهب : يريد يحيىٰ بن زكريا .

وقال إسرائيل عن أبي حصين ، عن خيثمة ، قال : كان عيسىٰ بن مريم ويحيىٰ ابن زكريا ابني خالة وكان عيسىٰ يلبس الصوف ، وكان يحيىٰ يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوىٰ يأويان إليه ، أين ما جنهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى : أوصني(١) . قال : لا تغضب ، قال : لا أستطيع إلا أن أغضب ، قال : لا تقتن مالاً ، قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً علىٰ روايتين ، الأولىٰ أنه قال هرب من قومه فدخل شجرة ، فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها فلما وصل المنشار إلىٰ أضلاعه أنَّ ، فأوحىٰ الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتىٰ قطع باثنتين ، وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله .

الثانية : أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات موتاً . . . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا أبو خلف موسىٰ بن خلف ، ـ وكان يعد من البدلاء ـ حدثنا يحيىٰ بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جده ممطور ، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فجمع يحيىٰ بني إسرائيل في بيت المقدس حتىٰ امتلأ المسجد فقعد علىٰ الشرف فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن .

---

(١) أوصىٰ بعضهما بعضاً بطاعة الله تبارك وتعالى .

وأولهن : أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، والله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة وبالصيام . وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتديَ نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل » . قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس ، الله أمرني بهنّ : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم » قيل : يا رسول الله وإن صام وصلى...؟ قال : « وإن صام وصلى ؟ وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعم منك يا يحيى. . . !. . . ؟

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى ابن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه.

عن ابن شهاب ، قال : جلست يوماً إلى إدريس الخولاني وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد : قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت ألست أنتِ أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين. . . ؟ فقال له : ابك يا بني . فبكيا جميعاً .

وروى ابن عساكر عن وهب بن منبه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ، ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما . . . ؟

وذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

وفاة زكريا

مات نبي الله زكريا عليه السلام قتلاً قتله اليهود المجرمون ، وقيل في سبب قتله : إنه لما شع الخبر في بني إسرائيل أن مريم عليها السلام حامل اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبد معها في المسجد ، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام لذلك عزموا على قتله ، فأمسكوا به ونشروه بالمنشار ، وقيل في سبب قتله قولٌ آخر وهو أنه لما قُتل ابنه يحيى بأمر الملك « هيردوس» أرسل هذا الملك في طلب أبيه زكريا عليه السلام فاستخفى عليه السلام منهم فدخل بستاناً ومر بشجرة عند بيت المقدس فنادته الشجرة بمشيئة الله : هلمَّ إليّ يا نبي الله ، فلما أتاها عليه السلام انشقت بقدرة الله ومشيئته فدخلها فانطبقت عليه وبقي عليه السلام في وسطها ، فأتى عدو الله إبليس اللعين فأخذ هدب رداء زكريا وأخرجه من الشجرة ثم لقي القوم الذين خرجوا في طلب زكريا وكان متشكلاً لهم بصورة رجل فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد زكريا ، فقال لهم : إنه سحر هذه الشجرة فانشقت له ودخلها ، قالوا : لا نصدقك ! قال لهم : فإن لي علامة تصدقونني بها ، فأراهم طرف ردائه فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشجرة ونشروها بالمنشار فقتل نبي الله زكريا عليه السلام فيها ومات شهيداً وقد سلط الله عليهم الملك الكافر بختنصر فاستأصلهم والله عزيز ذو انتقام .

وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم عن إجرام اليهود وقتلهم الأنبياء قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزوجها ، فنهاه يحيىٰ عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى ، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلىٰ عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبىٰ عليها ، فلما يئست منه تحيلت أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلىٰ ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

ثم اختلف في مقتل يحيىٰ بن زكريا هل كان في المسجد الأقصىٰ أم بغيره . . . ؟ علىٰ قولين : فقال الثوري : عن الأعمش عن شمر بن عطية قال : قتل علىٰ الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيىٰ بن زكريا عليه السلام .

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيىٰ بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيىٰ بن زكريا يغلي فسال عنه فأخبروه فقتل علىٰ دمه سبعين ألفاً فسكن ، وهذا إسناد صحيح إلىٰ سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري ، فالله أعلم .

ورویٰ الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيىٰ بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة التي تلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرة والشعر علىٰ حالهما لم يتغيرا .

وفي رواية : كأنما قتل الساعة .

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في المستقصىٰ في الأقصىٰ بسنده عن قاسم مولىٰ معاوية قال : كان ملك هذه المدينة ، يعني دمشق هداد بن هداد ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريلا ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً ، ثم إنه أراد أن يراجعها فاستفتىٰ يحيىٰ بن زكريا فقال له : لا تحل لك حتىٰ تنكح زوجاً غيرك ، فحقدت عليه فسألت من الملك رأس يحيىٰ بن زكريا ، وذلك بإشارة أمها فأبىٰ عليها ، ثم أجابها إلىٰ ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له : لا تحل له . . لا تحل حتىٰ تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته علىٰ رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلىٰ قدميها ثم إلىٰ حقويها وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلىٰ منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلىٰ برأسها ، ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء ولم يزل دم يحيىٰ يفور حتىٰ قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً .

قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتىٰ وقف عنده النبي أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله ، فسكن ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلىٰ بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة ، وسبىٰ منهم ، ثم رجع عنهم . . . والله أعلم .

مات يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام مقتولاً ، فقد قتلهُ بنو إسرائيل ظلماً وعدواناً بأمر ملكهم حاكم فلسطين آنذاك هيردوس لعنه الله . وقيل في سبب قتله :

إن هذا الملك « هيردوس » كان يكرم يحيىٰ بن زكريا ويدنيه من مجلسه ويستشيرهُ في أموره وكان هيردوس متزوجاً من امرأة كانت قد كبرت وذهب جمالها وكانت لها بنت فائقة الجمال يقال لها « هيروديا » وكانت ربيبة هذا الملك ولم تكن ابنتهُ من صلبه ، ثم إن هذا الملك وقع في غرام هذه البنت وأراد أن يتزوجها فقالت لها أمها : تزوج بنتي هذه ، حتىٰ لا يذهب الملك لامرأة أخرىٰ فتذهب عنها النعمة

التي تتقلب فيها فقال لها الملك : حتىٰ استفتي يحيىٰ أيجوز هذا أم لا ، فلما استفتاه نهاه عن نكاحها وأخبرهُ بأن ذلك حرام في شريعتهم ، فلما بلغ ذلك أم الفتاة حقدت علىٰ نبي الله يحيىٰ عليه السلام ودبرت له مكيدة قتل ، فقد زينت ابنتها « هيروديا » أحسن زينة وعطرتها وألبستها أفخر لباس وأدخلتها علىٰ « هيردوس »الملك ، فأخذت ترقص أمامه حتىٰ حركت مشاعره وأمرتها أمها أن تسقيه الخمر وأن تتعرض له فإن أرادها علىٰ نفسها أبت عليه حتىٰ يعطيها ما سألته ، فلما فعلت ما أمرتها أمها قال لها الملك : تمني علي فسألتهُ أن يأتي برأس يحيىٰ في طست فقال لها الملك : ويحك سليني غير هذا ؟ فقالت لا أريد غير هذا ، فلما أبت عليه زين له الشيطان سوء عملها وطلبها واستحاب لها فأمر بقتل يحيىٰ عليه السلام والإتيان برأسه ، فقتل يحيىٰ عليه السلام ظلماً علىٰ أيدي اليهود وهو في الصلاة فذبح ذبحاً ، ثم قدم رأسه إلىٰ الملك في الطست والدم ينزف منه ، فلما رأت المرأة رأس يحيىٰ قالت : اليوم قرت عيني ، وانتقم الله تعالىٰ لنبيه يحيىٰ عليه السلام ، فلما صعدت هذه المرأة إلىٰ سطح قصرها سقطت منه إلىٰ الأرض وكان هناك كلاب ضارية فوثبت الكلاب عليها فأكلتها وهي تنظر إليهم وكان آخر ما أكل منها عينيها .

وكان عليه الصلاة والسلام لما ذبح وهو في الصلاة وقطع رأسهُ تقطر دمهُ وسال علىٰ الأرض ، ولم يزل دمه يغلي ويفور حتىٰ سلط الله تعالىٰ علىٰ الملك هيردوس ومن معهُ بختنصر أحد ملوك بابل من دمشق فجاءته امرأة فدلته علىٰ دم يحيىٰ بن زكريا وهو يغلي فسأل عنه فأخبروه بقصته ، فألقىٰ الله تعالىٰ في قلبه أن يقتل منهم عدداً علىٰ ذلك الدم حتىٰ يسكن ويهدأ فقتل سبعين ألفاً فسكن الدم عند ذلك .

قصة عيسى ابن مريم

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد علىٰ النصارى ، الذين زعموا أن لله ولداً ، عليهم لعائن الله ، تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً .

وكان قد قدم وفد من نصارىٰ نجران علىٰ رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدَّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم

الذات المقدسة وعيسىٰ ومريم ، علىٰ اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسىٰ عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير آب ولا أم ، وقال له : كن فكان سبحان الله وتعالىٰ عمَّا يصفون . وبين أصل ميلاد أمه مريم كما ستتكلم علىٰ ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته .

فقال الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٣ ـ ٣٧] .

يذكر الله تعالى أنه اصطفىٰ آدم عليه السلام واختار من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام .

وقال محمد بن إسحاق : هو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم ابن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العارز بن اليود بن اختز بن صادوق بن عيازوز بن الياقم بن أيبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا ابن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط ابن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق(١) .

---

(١) تفسير الطبري جـ٣/ ١٥٧ .

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان وزوج أخت مريم « أشياع » في قول الجمهور وقيل زوج خالتها « أشياع » . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له فاشتهت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً في بيت المقدس .

قالوا : فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ وقرىء بضم التاء ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ أي في خدمة بيت المقدس ، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم[1] .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استدل به علىٰ تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلىٰ رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله .

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمىٰ ويحلق رأسه »[2] .

رواه أحمد وأهل السنن وصححه والترمذي . وجاء في بعض ألفاظه : « ويدمى » بدل « ويسمى » وصححه بعضهم . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقولها : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إلا

---

(١) تفسير الطبري جـ٣/ ١٥٧ .

(٢) الترمذي أضاحي ٣١ وابن ماجه ذبائح ١ ومسند أحمد جـ٥/ ١٧ .

مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية ، عن عبد الله بن الزبيدي ، عن الزهري عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب ، عن عجلان مولىٰ المشمعل ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلاّ مريم بنت عمران وابنها عيسى » .

تفرد به من هذا الوجه . ورواه مسلم عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب عن عمر ابن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه[1] إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلىٰ الصبي حين يسقط كيف يصرخ » ؟ قالوا : بلىٰ يا رسول الله . قال : « ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه » .

وهذا علىٰ شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه ، ورواه قيس عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة ـ أو عصرتين ـ إلا عيسىٰ بن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

وكذا رواه محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ . بأصل الحديث .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله ، حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الخزامي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسىٰ بن مريم ذهب يطعن فطعن

---

(١) أي جنبيه .

في الحجاب » وهذا علىٰ شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ثم خرجت بها إلىٰ المسجد فسلمتها إلىٰ العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها .

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يكفلها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها علىٰ القولين ، فشاحنوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته إرادة الله فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] . قالوا : وذلك أن كلاً منهم ألقىٰ قلمه معروفاً به . ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرىٰ قلمه علىٰ خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرىٰ علىٰ خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرىٰ قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة . قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتىٰ صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتىٰ إنّ

نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه . فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ فتقول ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي رزق رزقنيه الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فعند ذلك وهنالك أمل زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسنَّ وكبر ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨]. فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٤٢ ـ ٥١] .

يذكر الله تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالم زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ أي في صغره يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدل علىٰ أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلىٰ الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه

النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم في الصلاة حتىٰ تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها .

فقول الملائكة : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ . لأن الله سبحانه وتعالىٰ اختارها لمهمة شاقة لا يتحملها بشر وهيأها لهذه المهمة باصطفائه لها وتطهيرها من رجس الشيطان وفعله فكانت أمّاً لنبي ولد بغير أب هو كلمة الله وروحه عيسىٰ بن مريم عليه السلام ، وقد ضربت المثل الأعلىٰ في الصبر علىٰ اتهام بني إسرائيل لها وقذفهم إياها بالباطل حتىٰ برأها سبحانه وتعالى . ويحتمل أن يكون المراد من الآية أنَّ الله اصطفاها علىٰ زمانها كقوله لموسى﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعرف : ١٤٤] . وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢]. ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكىٰ عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان أو وجد بعدها لأنها إن كانت نبية علىٰ قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسىٰ محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلىٰ أم موسى ، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع علىٰ هذا أن تكون مريم أفضل من سارة أو أم موسىٰ لعموم قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إذ لم يعارضه غيره . . . والله تعالىٰ أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلىٰ مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥]فعلىٰ هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن كان بعدها . . . والله تعالىٰ أعلم . . . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ

ورضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روىٰ الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[1] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام » . ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه ، عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم ابن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بيت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه علىٰ ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده » قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط .

وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرزاق به . وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني موسىٰ بن علي ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه علىٰ ولد في صغره وأرأفه بزوج علىٰ قلة ذات يده » قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل . تفرد به وهو علىٰ

---

(١) البخاري جـ٤/ ٢١٤ باب فضائل الأصحاب وجـ٤/ ١٣ باب خلق آدم وذريته ، ومسلم جـ٣/ ٢٤٣ باب رقم ١٢ الصحابة ، والترمذي حديث رقم ٣٨٧٧ وقال هذا حديث صحيح ، والسيوطي في الجامع الصغير حديث رقم ٤٠٨٩ .

شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة .

وقال أبو يعلىٰ الموصلي : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال : « أتدرون ما هذا »؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » . ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند .

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيىٰ بن حاتم العسكري ، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين أكببت علىٰ رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت .

وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد علىٰ شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد ـ وهو ابن أبي زياد ـ عن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبي سعيد ، قال : رسول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » إسناد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه ، وقد روىٰ نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل علىٰ أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا علىٰ السواء في الفضيلة .

ولكن ورد حديث إن صح عيّن الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا ، قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلص ، حدثنا أحمد بن سليمان ، حدثنا الزبير هو ابن بكار ، حدثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسىٰ بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » .

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم علىٰ ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد روىٰ هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفري ، عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردي ، عن إبراهيم بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف . لابثم الترتيبية ، فخالفه إسناداً ومتناً . . . والله تعالىٰ أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام » وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن أبي موسىٰ الأشعري ، قال : قال : رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام » .

فإنه حديث صحيح كما ترىٰ اتفق الشيخان علىٰ إخراجه ، ولفظه يقتضي حصر

الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره ، فآسية كفلت موسىٰ الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها وأرضاها .

وأما فاطمة بنت الرسول ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة علىٰ أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مِتْنَ في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة ـ بل ولا في غيرها ـ أعلم منها ولا أفهم ، وقد برأها الله حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتىٰ خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما ، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : « وفضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلىٰ المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلىٰ ما عدا المذكورات . . . والله تعالىٰ أعلم .

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله طهرها واصطفاها علىٰ نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها علىٰ النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا ﴾ [التحريم : ٥] قال : فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم . . . والله تعالىٰ أعلم .

قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفي ، حدثنا أبي ، أنبأنا عمي الحسن ، حدثنا يونس بن نفيع ، عن سعد بن جنادة ، هو العوفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران

وامرأة فرعون وأخت موسى » .

رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله . ثم قال العقيلي : وليس بمحفوظ .

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ
بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا
قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا
مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ
شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ
قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾
وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ
يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ١٦ ـ ٣٧] .

ذكر الله تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر في سورة آل عمران ، قرن بينهما في سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

[الأنبياء : ٨٩ ـ ٩١] .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد سواه ، وأنها لما بلغت ، اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر علىٰ ما يشاء إذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلىٰ ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل .

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء ، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصىٰ إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ قال أبو العالية : علمت أن التقي ذو نهية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقي » فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي خاطبها الملك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أي ولداً زكياً .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها

والحالة هذه قائلاً : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن يبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي وهذا سهل عليه ويسير لديه ، فإنه علىٰ ما يشاء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً علىٰ كمال قدرتنا علىٰ أنواع الخلق ، فإنه تعالىٰ خلق آدم من غير ذكر ولا أنثىٰ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسىٰ من أنثىٰ بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعني أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره ، وهذا معنىٰ قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ، ولم يحك سواه . . . والله تعالىٰ أعلم .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] .

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلىٰ فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال إنه نفخ في فمها أو إن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها ، فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة من مَحالها في القرآن ، فإن هذا السياق يدل علىٰ أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلىٰ فرجها فانسلكت فيه ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ فدل علىٰ أن النفخة ولجت فيه لا في فمها ، كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي فحملت ولدها ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها ، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من

عباد بني إسرائيل يقال له يوسف النجار ، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلىٰ وليس لها زوج ، فعرض لها ذات يوم من الكلام فقال : يا مريم . . هل يكون زرع من غير بذر ؟ فقالت : نعم ، فمن خلق الزرع الأول ، ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر . . . ؟ قالت : نعم فمن خلق الشجر الأول ، ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر . . . ؟ فقال : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله بشرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٤٦] .

ويروىٰ مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا . . . والله تعالىٰ أعلم .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة : أن مريم دخلت يوماً علىٰ أختها فقالت لها أختها : أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أني حبلى ؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى : إني أرىٰ ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله : ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ومعنىٰ السجود ها هنا الخضوع والتعظيم ، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسىٰ بن مريم ويحيىٰ بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً ، فبلغني أن أم يحيىٰ قالت لمريم : إني أرىٰ ما في بطني يسجد لما بطنك . قال مالك : أرىٰ ذلك لتفضيل عيسىٰ عليه السلام ، لأن الله تعالىٰ جعله يحيي الموتي ويبرىء الأكمه والأبرص .

رواه ابن أبي حاتم .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر .

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس : ما هو

إلا أن حملت به فوضعته ، قال بعضهم حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ .

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج : ٦٣] وكقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون : ١٤] ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل علىٰ أهل بيت ما دخل علىٰ آل بيت زكريا .

قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً . وقوله تعالى : ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلىٰ جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بنىٰ عليه بعض ملوك الروم فيما بعد علىٰ ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل .

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل علىٰ جواز تمني الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام علىٰ يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم تخلق بالكلية .

وقوله : ﴿فناداهَا مَنْ تَحْتَهَا ﴾[1] ، وقرىء : (مِنْ تحتِها) علىٰ الخفض ،

---

(١) بفتح الميم ، أي فالقراءتان سُبعيتان .

وفي المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفي عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسىٰ إلا بحضرة القوم . وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قيل : النهر وإليه ذهب الجمهور . وجاء في حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .

ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة . . . والله تعالىٰ أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة ، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاده كان في وقت الشتاء وليس ذاك وقت ثمر وقد يفهم ذلك من قوله تعالى علىٰ سبيل الامتنان ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ . وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَقُولِي ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي صمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسدي وابن أسلم . يدل علىٰ ذلك قوله : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلىٰ الليل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم ٢٧ ـ ٢٨] ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا علىٰ محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي أمراً عظيماً منكراً . وفي هذا الذي قالوه نظر ،

مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل علىٰ أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعدما تعافت من نفاسها بعد أربعين يوماً .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال .

ثم قالوا لها : ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون . قاله سعيد بن جبير . وقيل : أرادوا بهارون أخا موسىٰ شبهوها به في العبادة ، وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسىٰ وهارون نسباً ، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفىٰ علىٰ أدنىٰ من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسىٰ وهارون ضربت بالدف يوم نجىٰ الله موسىٰ وقومه وأغرق فرعون وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه .

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولاً ولله الحمد والمنة .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره ، عن سماك ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ نجران فقالوا : أرأيت ما تقرؤون : ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » .

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتىٰ قيل : إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمىٰ بهارون أربعون ألفاً . . . والله تعالىٰ أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ودل الحديث علىٰ أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أي لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمىٰ ورموها بالداهية الدهياء .

فذكر ابن جرير في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمناه ، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار(١) .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عظم التوكل علىٰ ذي الجلال ، ولم يبق إلاّ الإخلاص والاتكال ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها ﴿ قَالُواْ ﴾ من كان منهم جباراً شقياً : ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ اي كيف تحيلينا في الجواب علىٰ صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين الأشياء ، وما هذا منك إلا علىٰ سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولاً منطقياً ، بل تحيلين في الجواب علىٰ من كان في المهد صبياً .

فعندها : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم : ٣٠ ـ ٣٣] .

هذا أول كلام تفوه به عيسىٰ بن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ اعترف لربه تعالىٰ بالعبودية ، وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثُم برأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في

---

(١) وقارن تهذيب ابن عساكر ٥/ ٣٨٤ .

ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنا في زمن الحيض ، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولى العزم الخمسة الكبار ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالىٰ وتقدس ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ هذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلىٰ الخليقة بالزكاة ، وهي تشتمل علىٰ طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج علىٰ احتلاف الأصناف وقرىٰ الأضياف والنفقات علىٰ الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطىٰ كل نفس هداها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر الله تعالى قصته علىٰ الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم : ٣٤ ـ ٣٥] كما قال الله تعالىٰ بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٨ ـ ٦٣] .

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلىٰ أربعة عشر منهم ،

ويؤول أمر الجميع إلىٰ ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة ابن علقمة ، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلىٰ المسالمة والموادعة وقال قائلهم وهو العاقب عبدالمسيح : يا معشر النصارى . . لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها لاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلىٰ بلادكم . فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح .

والمقصود أن الله تعالىٰ بين أمر المسيح فقال لرسوله : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يكربه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم : ٣٦] هو من تمام كلام عيسىٰ لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه .

فمن قائل من اليهود : إنه ولد زنية ، واستمروا علىٰ كفرهم وعنادهم .

وقابلهم آخرون في الكفر فقال : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون ، ومن خالفهم في شيء من القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم

العليم بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] .

قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمر بن هانىء ، حدثني جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك به وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل »(١) .

قال الوليد : فحدثني عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عمير ، عن جنادة : وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » .

وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن جابر ومن طريق أخرىٰ عن الأوزاعي به .

باب

بيان أن الله تعالى منزه عن الولد تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

وقال الله تعالىٰ في آخر هذه السورة : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٨٩] شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٠ ـ ٩٥] .

فبين أن الله تعالى لاينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع الخلق في السموات والأرض عبيده ، هو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ

---

(١) البخاري جـ٤/ ١٢٩ باب خلق آدم . ومسلم جـ١/ ٢٥ كتاب الإيمان

إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٠ ـ ١٠٣] .

فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالىٰ لا نظير له ولا شبيه ولا عديل له ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ١ ـ ٤] يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافىء . ولا مساوٍ فقطع النظير المداني والأعلىٰ والمساوي ، فانتفىٰ أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال الله تبارك وتعالىٰ وتقدس : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

ينهىٰ الله تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد ، فالنصارىٰ لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتىٰ جاوزوا الحد . . .

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله ابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسىٰ عليه السلام . والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلىٰ الله

إضافة تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالىٰ كما يقال : بيت الله وناقة الله وعبد الله . وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسُمّي عيسىٰ بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] . وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٦ ـ ١١٧]

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

فأخبر الله تعالى أن اليهود والنصارىٰ عليهم لعائن الله ، كل من الفريقين ادعوا علىٰ الله شططاً وزعموا أن له ولداً ، تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه ، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلىٰ هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم .

وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثانٍ ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثاني كذلك حتىٰ تناهت العقول إلىٰ عشرة والنفوس إلىٰ تسعة والأفلاك إلىٰ تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها . ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة ، تعالىٰ الله عما يقولون وتنزه عما يشركون . كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ

عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٤٩ ـ ١٦٠] .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩] .

وقال الله تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [١ ـ ٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٨ ـ ٧٠] .

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد علىٰ سائر الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارىٰ الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولداً سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

ولما كانت النصارىٰ ـ عليهم لعنة الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة ـ من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض .

وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] . فدل علىٰ أن الحق يتحد ويتفق

والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله . تعالىٰ عمّا يصفون . وطائفة قالوا هو ابن الله ، عز وجل وحاشا لله أن يكون له ولد . وطائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة . جل الله وعلا سبحانه وتعالىٰ هو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

قال الله تعالىٰ في سورة المائدة : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٧] فأخبر الله تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر علىٰ كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه . وقال في آخر سورة المائدة : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ ـ ٧٥] .

حكم الله تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً ، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسىٰ بن مريم ، وقد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وتوعدهم علىٰ خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلىٰ الابن ، علىٰ اختلافهم في ذلك ما

بين المليكية واليعقوبية والنسطورية ، ـ عليهم لعائن الله ـ كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد . ثم توعدهم وتهددهم فقال الله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلىٰ التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار ، والعظائم التي توجب النار فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة ، أي ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله ، وفيه دليل علىٰ أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا . وقوله تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً ، تعالىٰ الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً .

وقال السدي وغيره : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ زعمهم في عيسىٰ وأمه أنهما الإلهان مع الله ، يعني كما بين الله تعالىٰ كفرهم في ذلك بقوله تعالىٰ في آخر هذه السورة الكريمة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٦ ـ ١١٨] .

يخبر الله تعالى أنه يسأل عيسىٰ بن مريم عليه السلام يوم القيامة علىٰ سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ للذين ادعوا أنه إله وممن كذب عليه من المشركين وافترىٰ وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله أو أنه شريكه ، تعالىٰ الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه

لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول الله تعالىٰ له : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي تعاليتَ أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ اي ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلىٰ عليهم . ثم فسر ما قاله لهم بقوله : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ اي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي علىٰ أحدهم حتىٰ انتقموا منه فلما كان ذلك ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم قال علىٰ وجه التفويض إلىٰ الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلىٰ المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتىٰ أصبح : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقال : « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالىٰ لمن لا يشرك بالله شيئاً » . وقال ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ ـ ٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [الزمر : ٤ ـ ٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الزخرف : ٨١ ـ ٨٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد ».

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر علىٰ أذىً سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] . وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ـ ٧٠] وقال الله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧] .

* * * * *

ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام ومرباه في صغره وصباه ، وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس .

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف النجار وهي راكبة علىٰ حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء .

وهذا لا يصح ، والحديث الذي تقدم ذكره دليل علىٰ أن مولده كان ببيت لحم ، كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل .

وذكر وهب بن منبه أنه لما وُلِد خرت الأصنام يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتىٰ كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسىٰ فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : هذا لمولد عظيم في الأرض ، فبعث رسله ومعهم ذهب ومرّ ولبان هدية إلىٰ عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسىٰ بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلىٰ قتله إذا انصرفوا عنه ، فلما وصلوا إلىٰ مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك . فاحتملته فذهبت به إلىٰ مصر ، فأقامت بها حتىٰ بلغ عمره اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره ، فذكر منها أن الدهقان[1] الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها ، وعز ذلك علىٰ مريم عليها السلام وشق علىٰ الناس وعلىٰ رب المنزل وأعياهم أمرها ، فلما رأىٰ عيسىٰ عليه السلام ذلك عمد إلىٰ رجل أعمىٰ وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه . فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلىٰ كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا

---

(١) الدهقان : زعيم القرية .

المال من تلك الكوة من الدار . فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسىٰ في أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئاً فشق ذلك عليه ، فلما رأىٰ عيسىٰ ذلك منه قام فجعل يمر علىٰ تلك الجرار ويُمِرّ يده علىٰ أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب ، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلىٰ أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره ، عن موسىٰ بن وردان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسىٰ بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل ، فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولاجبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوك ، المتعال في دنوك ، الرفيع علىٰ كل شيء من خلقك ، أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نوراً علىٰ سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم في مفطور سماواتك وفيما دحوت من أرضك ، دحوتها علىٰ الماء فمسكتها علىٰ تيار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت علىٰ ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً علىٰ ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجلمودها .

« فتباركت اللهم ! فمن يبلغ بنعته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر

السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين ، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس ، نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ، ولا أعانك علىٰ خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ، ولم يكن لك كفواً أحد » .

وقال إسحاق بن بشر : عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، أن عيسىٰ بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتىٰ بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] .

قال : فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب ، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه .

وروىٰ ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسىٰ بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلىٰ أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي فتقول : وأي شيءٍ خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسىٰ بن مريم . فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم . فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم . فخرج عيسىٰ يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك . رواه ابن عساكر وقال إسحاق بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : وكان عيسىٰ يرىٰ العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهودوترعرععيسى ، فهمت به بنو إسرائيل ، فخافت أمه عليه ، فأوحىٰ الله إلىٰ أمه أن تنطلق به إلىٰ أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين، وهو الجاري السارح على وجه الأرض فقيل المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس، ولهذا ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق. وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم.. والله أعلم، وقيل هي الرملة[١].

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وَهْب بن مُنَبِّه، قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

وقال أبو زُرْعَة الدمشقي: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، عمن حدثه قال: «أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة، وأنزل الإنجيل على عيسى بن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عامًا، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان»[٢].

وقد ذكرنا في التفسير[٣] عند قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٢٠)

(٢) أحمد (٤/ ١٠٧) رقم: (١٦٥٣٦). والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٨٥)

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٤_٢٠٦).

ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في تاريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتىٰ رفع إلىٰ السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، وقاتل عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ عيسىٰ بن مريم : يا عيسى . . . جد في أمري ولا تهن ، واسمع وأطع يا بن الطاهرة البكر البتول ، إنك من غير فحل ، وأنا خلقتك آية للعالمين ، فإياي فاعبد وعلي فتوكل ، خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السريانية ، بلغ من بين يديك أني أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول ، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج ـ وهي العمامة ـ والمدرعة والنعلين والهراوة ـ وهي القضيب ـ الأنجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين ، الجعد الرأس ، المقرون الحاجبين ، الأقنىٰ الأنف ، المفلج الثنايا ، البادي العنفقة ، الذي كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه ، له شعرات من لبته إلىٰ سرته تجري كالقضيب ، ليس علىٰ بطنه ولا علىٰ صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً . وإذا مشىٰ كأنما يتقلّع من صخر وينحدر من صبب ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه ، ولم يرقبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة الطيب الريح ، ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركة لها يعني في الجنة ـ من قصب لا نصب فيه ولا صخب ، تكفله يا عيسىٰ في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك ، له منها فرخان مستشهدان ، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام ، طوبىٰ لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه .

بيان شجرة طوبى

قال عيسى : يا رب . . . ؟ وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة أنا غرستها بيدي ، فهي للجنان كلها ، أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم ، وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

قال عيسىٰ: يا رب . . . اسقني منها . قال : حرام علىٰ النبيين أن يشربوا منها حتىٰ يشرب ذلك النبي ، وحرام علىٰ الأمم أن يشربوا منها حتىٰ تشرب منها أمة ذلك النبي .

قال: يا عيسى . . . أرفعك إلي . قال يا رب ولم ترفعني ؟ قال أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان لترىٰ من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم علىٰ قتال اللعين الدجال ، أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها أمه مرحومة ولا نبي بعد نبيهم .

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه ، أن عيسىٰ قال: يا رب . . . أنبئني عن هذه الأمة المرحومة . قال : أمة أحمد ، هم علماء حكماء أنبياء ، يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضىٰ منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . يا عيسى . . . هم أكثر سكان الجنة ، لأنه لم تذل ألسن قوم بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب بالسجود كما ذلت به رقابهم . رواه ابن عساكر. وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي ، عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ بن مريم : أنزلني من نفسك كهمك ، واجعلني ذخراً لك في معادك ، وتقرب إلىٰ بالنوافل أحبك ولا تول غيري فأخذلك ، اصبر علىٰ البلاء وارض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك ، فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى ، وكن مني قريباً وأحي ذكري بلسانك ، ولتكن مودتي في صدرك ، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً وأمت قلبك في الخشية لي وراع الليل لحق مسرتي واظمىء نهارك ليوم الري عندي ، نافس في الخيرات جهدك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدلي ، فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ولا تكن حلساً كأنك مقبوض وأنت حي تتنفس .

يا عيسىٰ بن مريم . . . ما آمنت بي خليقة إلا خشعت ، ولا خشعت لي إلا رجت ثوابي فأشهدك أنها آمنة من عقابي مالم تغير أو تبدل سنتي .

يا عيسىٰ بن مريم البكر البتول . . . ابك علىٰ نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلىٰ الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه ، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال ، قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينيك بملول(١) الحزن إذا ضحك البطالون ، وكن في ذلك صابرا محتسباً ، وطوبىٰ لك إن نالك ما وعدت الصابرين ، ارج من الدنيا بالله يوم يبعثون وذق مذاقه ما قد هرب منك أين طعمه ، وما لم يأتك كيف لذته ، افرح من الدنيا بالبلغة ، وليكفك منها الخشن الجئيب(٢) ، قد رأيت إلىٰ ما يصير ، اعمل علىٰ حساب فإنك مسؤول ولو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك ، وزهقت نفسك .

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا محمد بن يحيىٰ بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : لقي عيسىٰ بن مريم إبليس فقال : أما علمت انه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس فأوف بذروة هذا الجبل فتردّ منه فانظر هل تعيش أم لا . فقال ابن طاوس ، عن أبيه : فقال عيسى : أما علمت أن الله تعالىٰ قال : لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبدة ، أنبأنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاوس قال : أتىٰ الشيطان عيسىٰ بن مريم ؟ فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأت هوة فألق نفسك . قال : ويلك أليس قال : يا بن آدم . . . لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء !

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد ، قال : تعبد الشيطان مع عيسىٰ عشر سنين ـ أو سنتين ، أقام يوماً علىٰ شفير جبل فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي . فقال :

---

(١) هكذا وردت ، ولعلها ميول : جمع ميل وهو ما يجعل به الكحل في العين .
(٢) أي الغليظ .

إني لست بالذي أبتلي ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني . وعرفه أنه الشيطان ففارقه .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت ، عن الخطاب بن القاسم ، عن ابي عثمان ، كان عيسىٰ عليه السلام يصلي علىٰ رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيءٍ بقضاء وقدر ؟ قال : نعم . قال : ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر علي . فقال : يا لعين . . . الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل بن موسىٰ البصري . حدثنا إبراهيم ابن بشار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسىٰ بن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسىٰ بن مريم . . . الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك . قال : بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني . قال : فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى . قال : بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت من أحييت ثم يحييه . قال : والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض . قال : فصكه جبريل صكة بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس . ثم صكه أخرىٰ بجناحيه فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرىٰ فأدخله بحار السابعة فأساخه ، وفي رواية : فأسلكه فيها ، حتىٰ وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول : ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا بن مريم .

وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو الحسن بن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سيدي ، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسىٰ العطار ، أنبأنا علي بن عاصم ، حدثني أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه ، قال : صلىٰ عيسىٰ ببيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً . فأكثر عليه وجعل عيسىٰ يحرص علىٰ أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول : لاينبغي لك يا عيسىٰ أن تكون عبداً . قال : فاستغاث عيسىٰ بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقر معه علىٰ العقبة اكتنفا عيسىٰ وضرب جبريل

إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً ، إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأىٰ البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا اقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ولكن الله يكون إلهاً في السماء وتكون أنت إلهاً في الأرض فلما سمع عيسىٰ ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ، ثم ضربه ضربةً أخرىٰ فأقبل إبليس يهوي ومر عيسىٰ وهو بمكانه فقال : يا عيسى . . . لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً . . . فرمىٰ به في عين الشمس ، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال فغطوه فجعل كلما خرج غطوه في تلك الحمأة قال : والله ما عاد إليه بعد .

قال وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة قال : جاء إبليس إلىٰ منازله واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا . . . لقد لقيت تعباً ، قال : إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمَّه إلهين من دون الله . قال وأنزل الله فيما أيد به عيسىٰ وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً يذكر نعمته علىٰ عيسىٰ فقال : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ [المائدة : ١١٠] يعني إذ قويتك بروح القدس ، يعني جبريل ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ [المائدة : ١١٠] الآية كلها وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضىٰ بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلىٰ الجنة ، فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكىٰ الخلائق وأرضاها عندي .

وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا وبكينا بمثل حنين الجنال فلم يرحم بكاؤنا . فقل لهم :

ولـم ذاك ومـا الـذي يمنعنـي ؟ أن[١] ذات يـدي قلـت ؟ أو ليـس خزائـن السمـوات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء ؟ أو أن البخل يعتريني ؟ أو لست أجودَ مَنْ سُئِل وأوسعَ مَنْ أَعطى ، أو أن رحمتي ضاقت ؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي .

ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسىٰ بن مريم غروا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثرة علىٰ الآخرة لعرفوا من أين أتوا ، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدىٰ الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلىٰ الذين يحاربوني ويستحلون محارمي ، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها ، يا عيسى . . . إنما أجزي عليها أهلها ، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ؟ ازددت عليهم غضباً .

يا عيسى . . . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدني وقال فيكما[٢] بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر علىٰ يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يتزين بالفحش ولا قوال بالخنا ، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل التقوىٰ ضميره والحكم مقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته ، اسمه أحمد ، أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغني به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضعة ، أهدي به ، وافتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة ، وأجعل أمته

---

(١) التقدير : ألآن .

(٢) فيكما : عيسىٰ وأمّه .

خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل ، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم ، ويصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً ، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم ، رهبان بالليل ليوث في النهار ، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة .

وقد روىٰ أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي ، دخل حديث بعضهم في بعض ، قالوا : لما بعث عيسىٰ بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون : ما أكل فلان البارحة وما ادخر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً ، والكافرون شكاً وكفراناً .

وكان عيسىٰ مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه ، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به . فكان أول ما أحيا من الموتىٰ أنه مر ذات يوم علىٰ امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها ما لك أيتها المرأة . . . ؟

فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها وإني عاهدت ربي أن لا أبرح موضعي هذا حتىٰ أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها ، فقال لها عيسىٰ عليه السلام : أرأيت إن نظرت إلها أراجعة أنت . . . ؟

قالت : نعم ، قالوا : فصلىٰ ركعتين ثم جلس عند القبر فنادى : يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي ، فتحرك القبر ، ثم نادىٰ الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثم نادىٰ الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عني . . . ؟ فقالت لما جاءتني الصيحة الأولىٰ بعث الله لي ملكاً فركب خلقي ، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إلي روحي ، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة ، ثم أقبلت

علىٰ أمها فقال : يا أماه ما حملك علىٰ أن أذوق كرب الموت مرتين . . !! . . ؟؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلىٰ الآخرة وأن يهون علي كرب الموت ، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض ، فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقدمنا في عقب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلىٰ لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد ميتاً .

وقد روىٰ السدي عن أبي صالح وأبي مالك . عن ابن عباس في خبر ذكره وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل علىٰ سريره فجاء عيسىٰ عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل ، فرأىٰ الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجيباً .

وقال الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١٠ ـ ١١١] .

يذكره الله تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله له آية للناس ودلالة علىٰ كمال قدرته تعالىٰ ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان علىٰ براءتها مما نسبه إليها الجاهلون ولهذا قال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلىٰ أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ ﴾ أي تدعو الناس إلىٰ الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير علىٰ أمر الله له بذلك

﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أي بأمري يؤكد الله تعالىٰ بذكر الإذن له ذلك لرفع التوهم .

وقوله تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ قال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمىٰ ولا سبيل لأحد من الحكماء إلىٰ مداواته ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني . وقد تقدم ما فيه دلالة علىٰ وقوع ذلك مراراً متعددة بما فيه كفاية .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذىٰ وسلامة له من الردى .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم .

كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص : ٧]. وقيل المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين : ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ بن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال الله تعالى لعبده محمد ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] وقال الله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ

﴿ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٨ ـ ٥٤] .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسىٰ عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرىٰ الخارق علىٰ يديه تصديقاً له ، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسىٰ بن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنّىٰ لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلىٰ أن يقيم الميت في قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة علىٰ صدق من قامت به وعلىٰ قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدىٰ به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالىٰ لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسىٰ عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم علىٰ كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلىٰ بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا علىٰ قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقىٰ شبهه علىٰ أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه

وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .

قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . [الصافات : ٦ ـ ٨] إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه . إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك . قال : « **دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام** » .

وقد روي عن العرباض بن سارية وأبي أمامه عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] الآية . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي

الأمي خاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق أحمد ، وهو محمد :بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام .
قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يحتمل عود الضمير إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ويحتمل عوده إلىٰ محمد ﷺ .

ثم حرض الله تعالى عباده المؤمنين علىٰ نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته علىٰ إقامة الدين ونشر الدعوة فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي من يساعدني في الدعوة ، إلىٰ الله ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى ، قال الله تعالى ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ يعني لما دعا عيسىٰ بني إسرائيل وغيرهم إلىٰ الله تعالى ، منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكيه بكاملهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلاً ثلاثة ، أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورين في سورة يس لماتقدم تقريره في قصة أصحاب القرية ، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيد الله من آمن به علىٰ من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ٥٥] الآية . فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين علىٰ النصارىٰ الذي غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزل الله به .

ولما كان النصارىٰ أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله ، كان النصارىٰ قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلىٰ زمن الإسلام وأهله .

* * * * *

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢ ـ ١١٥].

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف .

ومضمون ذلك: أن عيسىٰ عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها طلبوا من عيسىٰ إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلىٰ طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافيةً لأولهم وآخرهم وغنيهم وفقيرهم . فوعظهم عيسىٰ عليه السلام في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلىٰ مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصفَّ بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلىٰ الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلىٰ ما طلبوا .

فأنزل الله تعالىٰ المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً . وكلما دنت سأل عيسىٰ ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتىٰ استقرت بين يدي عيسىٰ عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسىٰ يكشف عنها وهو يقول : « بسم الله خير

الرازقين » فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة . ويقال : وخل ، ويقال : ورمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً ، قال الله : كوني فكانت .

ثم أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لا نأكل حتىٰ تأكل . فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها . فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء . فأمر الفقراء والمحاويج والمرضىٰ والزمنىٰ وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرىء كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس علىٰ ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتىٰ قيل : إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف .

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسىٰ أن يقصرها علىٰ الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء . فشق ذلك علىٰ كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روىٰ ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن خلاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » .

ثم رواه ابن جرير عن بندار ، عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار موقوفاً . وهذا أصح . وكذا رواه من طريق سماك ، عن رجل من بني عجل ، عن عمار موقوفاً . وهو الصواب . . . والله تعالىٰ أعلم[1] .

وخلاس عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائدة : هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور يؤكد أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله

---

(١) تفسير الطبري جـ٧/ ٨٨ .

تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ، كما قرره ابن جرير . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد روىٰ ابن جرير بإسناد صحيح إلىٰ مجاهد وإلىٰ الحسن بن أبي الحسن البصري ، أنهما قالا : لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . ولهذا قيل إن النصارىٰ لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً في كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوافر الدواعي علىٰ نقله . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقد تقصينا الكلام علىٰ ذلك في التفسير فليكتب من هناك ، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم . . . ولله الحمد والمنة .

فصل

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبيهم عيسىٰ فقيل لهم توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلىٰ البحر إذا هو يمشي علىٰ الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤترز بنصفه ، حتىٰ انتهىٰ إليهم فقال له بعضهم ، ـ قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم ـ : ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدىٰ رجليه علىٰ الماء ثم ذهب ليضع الأخرىٰ فقال : أوه . . غرقت يا نبي الله . فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشىٰ علىٰ الماء !

ورواه أبو سعيد بن الأعرابي ، عن إبراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمان بن حرب ، عن أبي هلال بن بكر بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، عن الفضيل بن عياض ، قال : قيل لعيسىٰ بن مريم : يا عيسىٰ بأي شيء تمشي علىٰ الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا : فإنا آمنا كما

آمنت وأيقنا كما أيقنت . قال : فامشوا إذاً . قال فمشوا معه في الموج فغرقوا فقال لهم عيسى : ما لكم ؟ فقالوا : خفنا الموج . قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال : فأخرجهم ، ثم ضرب بيده إلىٰ الأرض فقبض بها وبسطها ، فإذا في إحدىٰ يديه ذهب وفي الأخرىٰ مدر ـ أو حصىٰ ـ فقال : أيهما أحلىٰ في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب : قال : فإنها عندي سواء !

وقدمنا في قصة يحيىٰ بن زكريا عن بعض السلف أن عيسىٰ عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلىٰ منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه . . صلوات الله وسلامه عليه .

وروىٰ ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسىٰ عليه السلام إذا ذكرت عند الساعة صاح وقال : لاينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسىٰ كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر حدثنا جعفر بن برقان أن عيسىٰ كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهناً بعملي ، فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمت بي عدوي ، ولا تسؤ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ، ولا تسلط علي من لا يرحمني .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد : كان عيسىٰ يقول : لا نصيب حقيقة الإيمان حتىٰ لا نبالي من أكل الدنيا .

وقال الفضيل : وكان عيسىٰ يقول فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق ، قال : وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى .

قال : وبينما عيسىٰ يوماً نائم علىٰ حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مرّ به إبليس فقال : يا عيسى . . ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا . قال : فقام عيسىٰ فأخذ الحجر فرمىٰ به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا !

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسىٰ علىٰ أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتُبان[1] حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، وسراجي القمر بالليل ، وصلاتي[2] في الشتاء مشارق الشمس ، وريحاني بقول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجلسائي الزمنىٰ والمساكين ، أصبح وليس لي شيء وأمسي وليس لي شيء ، وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنىٰ مني وأربح !

رواه ابن عساكر .

وقال عبد الله بن المبارك : عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حوشب ، قال : قال عيسىٰ للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا .

وقال قتادة : قال عيسىٰ عليه السلام : سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي .

وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال عيسىٰ للحواريين . كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين ، بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه علىٰ علمه يود أن الناس كلهم مثله .

وروي نحوه عن أبي هريرة .

قال أبو صعب عن مالك : إنه بلغه أن عيسىٰ كان يقول : يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرير وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره .

---

(١) أي سروال صغير يستر العورة .

(٢) ربما كان الصحيح : صلاي أي ما أتدفأ به .

وقال ابن وهب ، عن سليمان بن بلال عن يحيىٰ بن سعيد قال : كان عيسىٰ يقول : اعبروا الدنيا ولا تعمروها . وكان يقول : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وحكىٰ وهيب بن الورد مثله وزاد : ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً .

وعن عيسىٰ عليه السلام : يابن آدم الضعيف . . . اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلِّمْ عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر .

وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ علىٰ موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً .

وفي هذا يقول سابق البربري :

لكم بيوت بمستن السيول وهل ... يبنىٰ علىٰ الماء بيت أسه مدر !

وقال سفيان الثوري : قال عيسىٰ بن مريم : لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء .

وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي قال : قال عيسى : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتىٰ يقتله .

وعن عيسىٰ عليه السلام : إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات .

وقال الأعمش عن خثيمة : كان عيسىٰ يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى .

وبه قالت امرأة لعيسىٰ عليه السلام : طوبىٰ لحجر حملك ولثدي أرضعك فقال : طوبىٰ لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وعنه : طوبىٰ لمن بكىٰ من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته .

وعنه : طوبىٰ لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلىٰ غير إثم .

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسىٰ وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أنتن ريحها ، فقال : ما أبيض أسنانها . لينهاهم عن الغيبة .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: يحدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عدي قال : قال عيسىٰ بن مريم : يا معشر الحواريين . . . ارضوا بدنيِّ الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا .

قال زكريا : وفي ذلك يقول الشاعر :

أرىٰ رجالاً بأدنىٰ الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنىٰ الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسىٰ بن مريم عليه السلام : « لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافىٰ ومبتلىً فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله علىٰ العافية » .

وقال عبد الله بن المبارك : أنبأنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلىٰ هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها .

وقال صفوان بن عمرو : عن شريح بن عبد الله ، عن يزيد بن ميسرة ، قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله . . . انظر إلىٰ مسجد الله ما أحسنه . قال : آمين آمين . . . بحق أقول لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً ، إن أحب شيء إلىٰ الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت علىٰ غير ذلك .

عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « مر عيسىٰ عليه السلام علىٰ مدينة خربة ، فأعجبه البنيان فقال : أي رب . . . مُرْ هذه المدينة أن تجيبني فأوحىٰ الله إلىٰ المدينة : أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسىٰ قال : فنادت المدينة :

عيسىٰ حبيبي وما تريد مني ؟ قال : ما فعلت أشجارك وما فعلت أنهارك وما فعلت قصورك وأين سكانك ؟ قالت : حبيبي . . جاء وعد ربك الحق فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني . قال : فأين أموالهم ؟ فقال : جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني ، لله ميراث السموات والأرض ، قال : فنادىٰ عيسىٰ عليه السلام فعجبت من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . . . ! ! ابن آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك ، وتقدم علىٰ رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك ، وأنت يا ابن آدم ترىٰ حشد مالك في ميزان غيرك » هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري عن أبيه ، عن إبراهيم التيمي ، قال عيسىٰ عليه السلام : يا معشر الحواريين . . اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه .

وقال ثور بن يزيد ، عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسىٰ بن مريم عليه السلام : من تعلم وعلم وعمل دُعي عظيماً في ملكوت السماء .

وقال أبو كريب : روي أن عيسىٰ عليه السلام قال : لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي .

وروىٰ ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً : أن عيسىٰ قام في بني إسرائيل فقال : يا معشر الحواريين . . لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيّه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلىٰ الله عز وجل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن رجل ، عن عكرمة قال : قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلىٰ الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير !

وكذا حكىٰ وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه : أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل ، الضحك من غير عجب

والصبحة[1] من غير سهر .

وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم ، فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير .

وعنه أنه قال : يا علماء السوء جعلتم الدنيا علىٰ رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى[2] تعجب من رآها وتقتل من أكلها .

وقال وهب : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم علىٰ أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

وقال مكحول : التقىٰ يحيىٰ وعيسى ، فصافحه عيسىٰ وهو يضحك ، فقال له يحيى : يا بن الخالة . ما لي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست ؟ فأوحىٰ الله إليهما : أن أحبكما إليّ أبشكما بصاحبه .

وقال وهب بن منبه : وقف عيسىٰ هو وأصحابه علىٰ قبر وصاحبه يُدلىٰ فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع .

* * * * *

---

(١) أي نوم الغداة .

(٢) الدفلى : نبت مر ، قتال .

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء في حفظ الرب ، وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٤ ـ ٥٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَلْ رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٥ ـ ١٥٩] .

فأخبر الله تعالى أنه رفعه إلىٰ السماء بعدما توفاه بالنوم علىٰ الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلىٰ بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار بيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم أُلقي شبهه علىٰ بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسىٰ من روزنة[١] من ذلك البيت إلىٰ السماء ، وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسىٰ فصلبوه ووضعوا الشوك

---

(١) من كوة .

علىٰ رأسه إهانة له ، وسَلّم لليهود عامة النصارىٰ الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسىٰ أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً .

وأخبر الله تعالىٰ بقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أي بعد نزوله إلىٰ الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، كما أوردنا ذلك مستقصىٰ في كتاب « الفتن والملاحم » عند أخبار المسيح الدجال ، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلىٰ الضلال .

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلىٰ السماء .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله أن يرفع عيسىٰ إلىٰ السماء خرج علىٰ أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقىٰ عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في الجنة ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسىٰ من روزنة في البيت إلىٰ السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق . فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلىٰ السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان علىٰ المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتىٰ بُعث محمد ﷺ .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس علىٰ شرط مسلم .

قال : وجعل عيسىٰ عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله ، يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله ، قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس أخو يعقوب ، وأندراوس ، وفليبس ، وابرثلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوس ، وفتياتيا ، ويودس كريايوطا ، وهذا هو الذي دل اليهود علىٰ عيسى .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارىٰ وهو الذي ألقي شبه المسيح عليه فصلب عنه . قال : وبعض النصارىٰ يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقي شبهه هو يودس بن كريايوطا . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسىٰ شمعون وقتلت اليهود يودس الذي ألقي عليه الشبه .

وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال سمعت الفراء يقول في قوله تعالىٰ ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ قال : إن عيسىٰ غاب عن خالته زماناً فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب علىٰ عيسىٰ حتىٰ اجتمعوا علىٰ باب داره فكسروا الباب ودخل رأس الجالوت ليأخذعيسىٰ فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلىٰ اصحابه فقال : لم أره ومعه سيف مسلول فقالوا : أنت عيسىٰ وألقىٰ الله شبه عيسىٰ عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ .

وعن وهب بن منبه قال : أتىٰ عيسىٰ ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم علىٰ صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسىٰ أو لنقتلكم جميعاً ، فقال عيسىٰ لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة . . . ؟ فقال رجل : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوره الله علىٰ صورة عيسىٰ فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثم شُبّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، وظنت النصارىٰ مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسىٰ من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثنىٰ حدثنا إسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسىٰ بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم قال لهم : ألا من رد علي الليلة شيئاً مما أصنع فليس مني ولا أنا منه ، حتىٰ إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم علىٰ الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم علىٰ بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدْعون الله وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم فلم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها . . . ! ! فقالوا : والله ما ندري مالنا والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمراً وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال : يذهب بالراعي وتتفرق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه ، ثم قال : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه ، فجحد وقال : ما أنا بصاحبه ، فتركوه ، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكىٰ وأحزنه ، فلما أصبح أتىٰ أحد الحواريين إلىٰ اليهود فقال : ما تجعلون لي إن دللتكم علىٰ المسيح . . . ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيي الموتىٰ وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل . . . ! ! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتىٰ أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً .

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسىٰ فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسىٰ فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك .

فقال : إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا الذي فعلوا به ما فعلوا إنما شبه لهم . فأمر الحواريين أن يلقوني إلىٰ مكان كذا وكذا ، وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم علىٰ ما صنع فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيىٰ فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدْعُهم .

وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصارىٰ من أن المسيح جاء إلىٰ مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب .

وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل علىٰ خلاف الحق ومقتضىٰ الدليل .

وحكىٰ الحافظ ابن عساكر من طريق يحيىٰ بن حبيب ، فيما بلغه ، أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنه ابنها ، أن ينزل جسده ، فأجابهم إلىٰ ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ قالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرىٰ أحداً . فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أم يحيىٰ وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم . . . أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به . فقال : يا مريم . . إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتىٰ الذي ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه ، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأتي غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح .

قال : فرجعت إلىٰ أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة ، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسىٰ في الغيضة ، فلما رآها أسرع

إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أمه . . إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً . ثم صعد عيسىٰ فلم تلقه إلا تلك المرة حتىٰ ماتت .

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسىٰ خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة . رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري : كان عمر عيسىٰ عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة . وفي الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » . وفي الحديث الآخر : « علىٰ ميلاد عيسىٰ وحُسْن يوسف » وكذا قال حماد بن سلمة عن علي بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : رفع عيسىٰ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان في تاريخه ، عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله ، وأنه أخبرني أن عيسىٰ بن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهباً علىٰ رأس ستين . فهو حديث غريب .

قال الحافظ بن عساكر : والصحيح أن عيسىٰ لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته ، كما روىٰ سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن يحيىٰ بن جعدة ، قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : « إن عيسىٰ بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة » وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعمش ، عن إبراهيم : مكث عيسىٰ في قومه أربعين عاماً .

ويروىٰ عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن عيسىٰ عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي علي بعد طعنه بخمسة أيام .

وقد روىٰ الضحاك عن ابن عباس أن عيسىٰ لما رفع إلىٰ السماء جاءته سحابة فدنت منه حتىٰ جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهي تنظر وألقىٰ عمامته علىٰ شمعون ، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتىٰ غاب عنها ، وكانت تحبه حباً شديداً ، لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له ، وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً وكانت كما قال بعض الشعراء :

وكنت أرىٰ كالموت من بين ساعة فكيــف ببيــن كــان مــوعــده الحشــر

وذكر إسحاق بن بشر ، عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارىٰ بجهلهم ، ذلك ، تسلطوا علىٰ أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلىٰ صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلطوا علىٰ أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيي الموتىٰ ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجيء بهم وفيهم يحيىٰ بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فبايعهم علىٰ دينهم وأعلىٰ كلمتهم وظهر الحق علىٰ اليهود وعلت كلمة النصارىٰ عليهم ، وبعث إلىٰ المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظم النصارىٰ الصليب ، ومن هاهنا دخل دين النصرانية في الروم .

وفي هذا نظر من وجوه :

أحدهما : أن يحيىٰ بن زكريا نبي لا يقر علىٰ أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع علىٰ جهة الحق .

الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين ، بن قسطن ، باني المدينة المنسوبة إليه علىٰ ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتىٰ كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما

مسها ذو عاهة إلا عوفي . . . والله تعالىٰ أعلم أكان هذا أم لا ، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أو كان هذا منحة وفتنة لأمة النصارىٰ في ذلك اليوم ، حتىٰ عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها ، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته علىٰ الصخرة التي هي قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتىٰ فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلىٰ رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

قيل : سمّي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ، لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلىٰ أمه عليهما السلام . وقيل لأنه كان ممسوح القدمين .

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد : ٢٧] . وقال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧ و٢٥٣] والآيات في ذلك كثيرة جداً .

وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ، ذهب يطعن فطعن في

الحجاب » . وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة ، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل » .

رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم .

ورویٰ البخاري ومسلم من حديث الشعبي ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : قال : رسول الله ﷺ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلّمِها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسىٰ بن مريم ثم آمن بي فله أجران ، والعبد إذا اتقىٰ وأطاع مواليه فله أجران » ؟

هذا لفظ البخاري .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام ، عن معمر ، وحدثني محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسري بي لقيت موسىٰ ـ قال : فنعته ـ فإذا رجل حسبته قال : ـ مضطرب رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : ولقيت عيسىٰ فنعته النبي ﷺ فقال : ربعة[1] ، أحمر كأنما خرج من ديماس ـ يعني الحمام ـ ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسىٰ وموسى وإبراهيم . فأما عيسىٰ فأحمر جعد الصدر ، وأما موسىٰ فآدم جسيم سبط[2] كأنه من رجال الزط » .

تفرد به البخاري .

---

(١) أي متوسط بين الطول والقصر .
(٢) أي مسترسل الشعر .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا أبو ضَمْرة، حدثنا موسى بن عقبة، عن نافع، قال: قال عبد الله بن عمر: ذكر النبي ﷺ يومًا بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال: إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية، وأراني الليلة عند الكَعْبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعًا يديه على منكبي رجلين، وهو يطوف بالبيت فقلت: من هذا! فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعدًا قططًا أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن. واضعًا يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح الدجال[1].

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة. ثم قال البخاري: تابعه عبد الله بن نافع. ثم ساقه من طريق الزُّهْري عن سالم بن عمر قال الزُّهْري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية.

فبيَّن صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحَيْن: مسيح الهدى ومسيح الضلالة، ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني» وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق[2].

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن حُمَيْد الطويل، عن الحسن وغيره، عن أبي هريرة قال: ولا أعلمه إلا من النبي ﷺ قال: «رأى عيسى رجلاً يسرق فقال: يا فلان أسرقت؟ فقال: لا والله ما سرقت.

---

(١) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وإذكر في الكتاب: مريم﴾، رقم: (٣٤٣٩). ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم: (١٦٩).

(٢) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وإذكر في الكتاب: مريم﴾، رقم: (٣٤٤٤). ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، رقم: (٢٣٦٨).

فقال : آمنت بالله وكذبت بصري » .

وهذا يدل علىٰ سجية طاهرة ، حيث قدّم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً علىٰ ما شاهده منه عياناً ، فقبل عذره ورجع علىٰ نفسه فقال : آمنت بالله . أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلاً ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فأول الخلق يكسىٰ إبراهيم ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول : أصحابي فيقال : إنهم لن يزالوا مرتدين علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسىٰ بن مريم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٧ ـ ١١٨] .

تفرد به دون مسلم من هذا الوجه .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان ، سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عمر يقول علىٰ المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج يصلي إذ جاءته أمه فدعته لأمر ألم بها تريد معونته فقال في نفسه : أجيبها أو أصلي ؟ وآثر الصلاة علىٰ أن يجيبها فقالت وقد ظنت أنه أغفل دعوتها عمداً ولم تعلم أنه يصلي : اللهم لا تمته حتىٰ تريه ما يكره . وذات ليلة كان جريج في صومعته فعرضت له امرأة وكلمته تريده أن يفجر بها فأبىٰ فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلىٰ ركعتين ودعا

ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي. قالوا: أنبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنًا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه. قال أبو هريرة: كأني انظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه. ثم مرّ بأمةٍ فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه. فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فقالت: لم ذلك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل»[(١)].

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شُعيب، عن الزُّهْري، أخبرني أبو سَلَمة، أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علاَّت ليس بيني وبينه نبي»[(٢)]. تفرد به البخاري من هذا الوجه.

ورواه ابن حِبَّان في صحيحه[(٣)] من حديث أبي داود الحفري، عن الثَّوْرِي عن أبي الزِّنَاد، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سُفْيَان هو الثَّوْرِي، عن أبي الزِّنَاد، عن الأَعْرَج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء اخوة أولاد علات، وليس بيني وبين عيسى نبي»[(٤)].

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه. وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وأخرجه ابن حِبَّان من حديث عبد الرزاق نحوه.

قال أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن أبي عَرُوبَة، حدثنا قَتَادَة، عن عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء اخوة لعلاّت، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع

---

(١) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وإذكر في الكتاب: مريم﴾، رقم: (٣٤٣٦). ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع، رقم: (٢٥٥٠).

(٢) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وإذكر في الكتاب: مريم﴾، رقم: (٣٤٤٢).

(٣) ابن حبان (٦١٩٥).

(٤) أحمد (٤٦٣/٢)، رقم: (٩٦٥٥).

إلىٰ الحمرة والبياض ، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخصرتين[1] . فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتىٰ تهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمنة في الأرض حتىٰ ترتع الإبل مع الأسد جميعاً والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفىٰ فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه »[2] .

ثم رواه أحمد عن عفان ،عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة فذكر نحوه . وقال : فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفىٰ ويصلي عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد ، عن همام بن يحيىٰ به نحوه .

وروىٰ هشام بن عروة ، عن صالح مولىٰ أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » وقد بينا نزوله عليه السلام في آخر الزمان كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالىٰ في سورة النساء ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : ٦١] الآية وأنه ينزل علىٰ المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصلِّ ، فيقول : لا ، بعضكم علىٰ بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة . وفي رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك . فيصلي خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة .

وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصارىٰ حين حرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسىٰ بن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لنثنيهما ،

---

(١) المحصرة : ما يتوكأ عليها كالعصا ونحوها ، أو قضيب يشار به في أثناء الخطابة والكلام ، وكان يتخذه الملوك والخطباء .

(٢) البخاري ٢/ ٢٧٧ كتاب البر والصلة .

ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً ، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ، ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسىٰ الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة : صفة محمد وعيسىٰ بن مريم عليهم السلام يدفن معه ، قال مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن ، كذا قال ، والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه .

وروىٰ البخاري عن يحيىٰ بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسىٰ ومحمد ﷺ ستمائة سنة وعن قتادة : خمسمائة وستون سنة . وقيل : خمسمائة وأربعون سنة . وعن الضحاك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة . ومنهم من يقول ستمائة بالشمسية . . . والله تعالىٰ أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسىٰ علىٰ هديه » . حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح علىٰ سنته وهديه مائتي سنة » .

وهذا حديث غريب جداً ، وإن صححه ابن حبان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق ، أن عيسىٰ عليه السلام قبل أن يرفع وصىٰ الحواريين بأن يدعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له وعين كل واحد منهم إلىٰ طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم . وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتىٰ ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلىٰ كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلىٰ الأخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متىٰ ويوحنا[1] ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا .

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولما جاء به ، وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتىٰ مات رحمه الله .

ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله ، فتلقاه عند كوكبا ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه ، فلما رأىٰ ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء عليه واعتذر مما صنع ، وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ،

---

(١) أشار محقق المطبوعة إلىٰ أنه قد سقط من نسخة « البداية والنهاية » المأخوذ عنها هذا الكتاب ـ والمصورة عن مكتبة ولي الدين بالآستانة ، والمحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١١٠ ـ من هذه العلامة حتىٰ نهاية الكتاب وقد ورد بهذه النسخة زيادة نصها :

وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في كتابه « الرد علىٰ النصارى » لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود ، مع دعواهم أنه ابن الله ، تعالىٰ الله عن قولهم علواً كبيراً .

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلىٰ الله والداً نسبوه
أسلموه إلىٰ اليهود وقالوا ... أهم بعد قتله صلبوه
فإن كان ما تقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلىٰ ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاعذروهم لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

فقال : اذهب إلىٰ ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبينت له كنيسته باسمه فهي كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتىٰ خربت .

فصل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلىٰ السماء فيه علىٰ أقوال ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلىٰ السماء . وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] .

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل علىٰ أربعة اقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمىٰ والبلية الكبرى : اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان في المسيح علىٰ أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلىٰ الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول فصار الملك إلىٰ قول أكثر فرقة اتفقت علىٰ قول من تلك المقالات ، فسموا الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم ، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أربوس الذي ثبت علىٰ أن عيسىٰ عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات ، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة ، وعمدوا

إلىٰ ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلىٰ الشرق وقد كانت إلىٰ الشمال إلىٰ الجدي .

بيان بناء بيت لحم والقيامة

وبنىٰ الملك قسطنطين بيت لحم علىٰ محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانه كنيسة القيامة ، يعني علىٰ قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح .

وقد كفر هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ، ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير ، وصلوا إلىٰ الشرق ولم يكن المسيح صلىٰ إلا إلىٰ صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلىٰ إليها بعد هجرته إلىٰ المدينة ستة عشر ـ أو سبعة عشر ـ شهراً ثم حول إلىٰ الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل .

وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة .

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث ، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها .

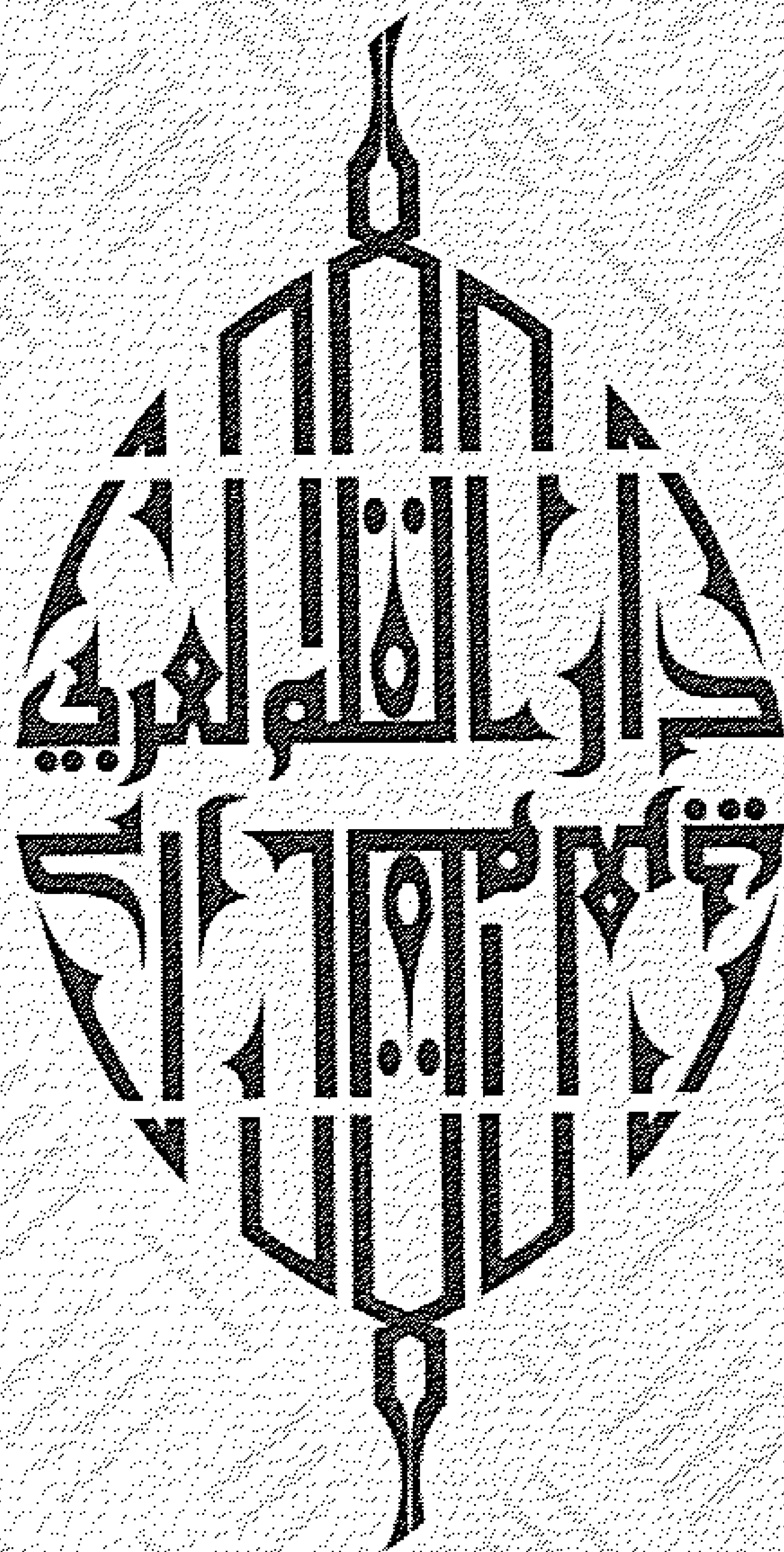
وها أنا أحكيها ـ وحاكي الكفر ليس بكافر ـ علىٰ ما فيها من ركاكة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلىٰ النار ذات الشواظ فيقولون :

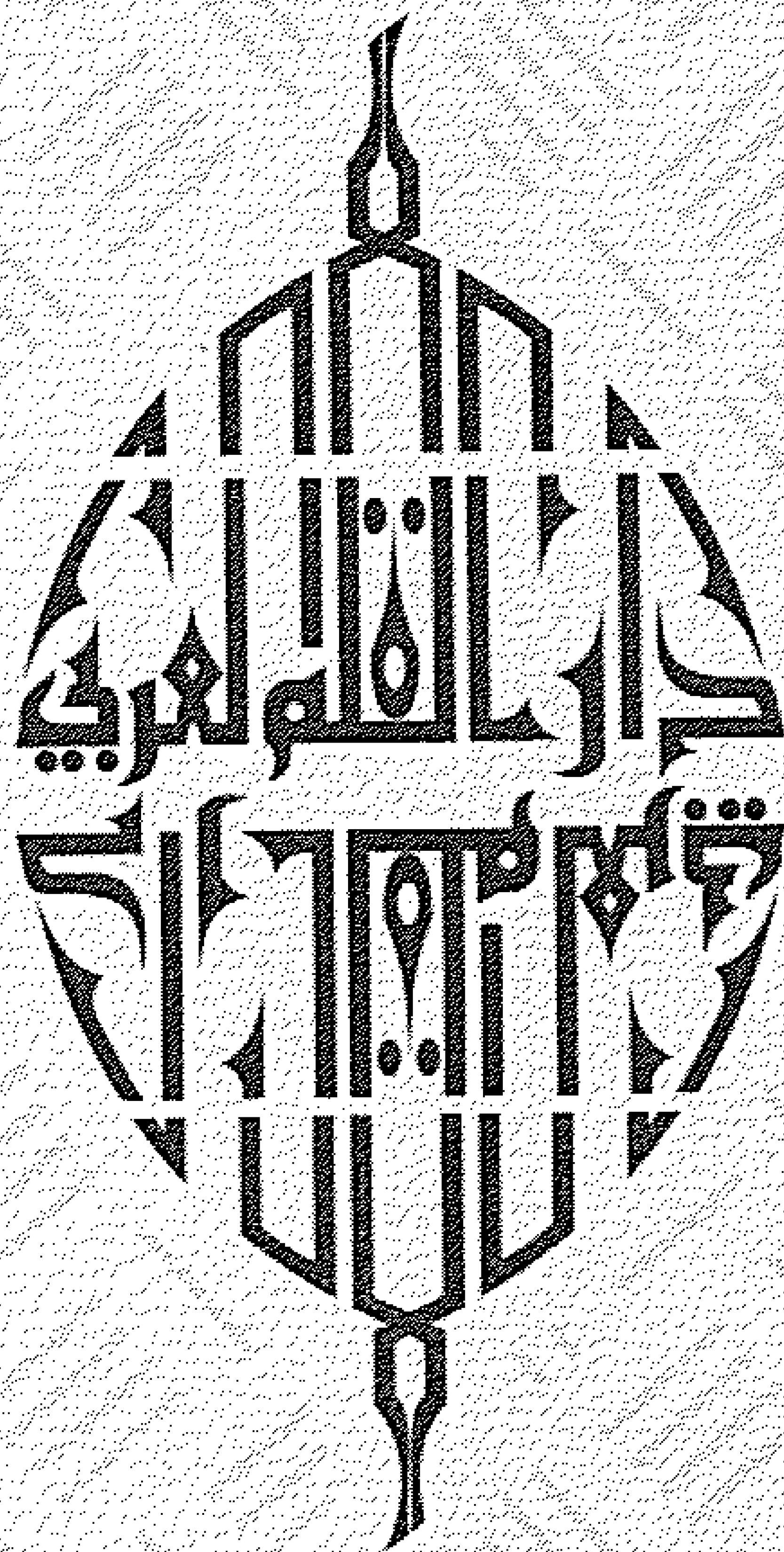
« نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرىٰ وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء ، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد

من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب علىٰ عهد ملاطس النبطي وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلىٰ السماء وجلس علىٰ يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات ، الذي لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب ، والابن مسجود له بمجد الناطق في الأنبياء كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتىٰ وحياة الدهر العتيد كونه . . . آمين » .

وإلىٰ هنا ينتهي كتاب « قصص الأنبياء »
للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير ،
والحمد لله علىٰ نعمته .

* * * * *


دار القلم العربي


دار القلم العربي

قصص الأنبياء

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

هذا الكتاب

إن الأنبياء و الرسل هم صفوة الله من خلقه اجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم وجعلهم أسوة حسنة، و أيّدهم بمعجزات باهرة . و المسلم يؤمن بهم جميعاً.

وهذا الكتاب جمعه الحافظ ابن كثير و أجاد فيه لكنّ فيه استطرادات كثيرة، لذا قام الأستاذ عبد القادر الشيخ إبراهيم بتحقيقه و تهذيبه و توضيح مبهمه.

ونشرته دار القلم العربي بحلب بحلة جديدة، تتناسب و مكانة الكاتب و الكتاب.

الناشر





